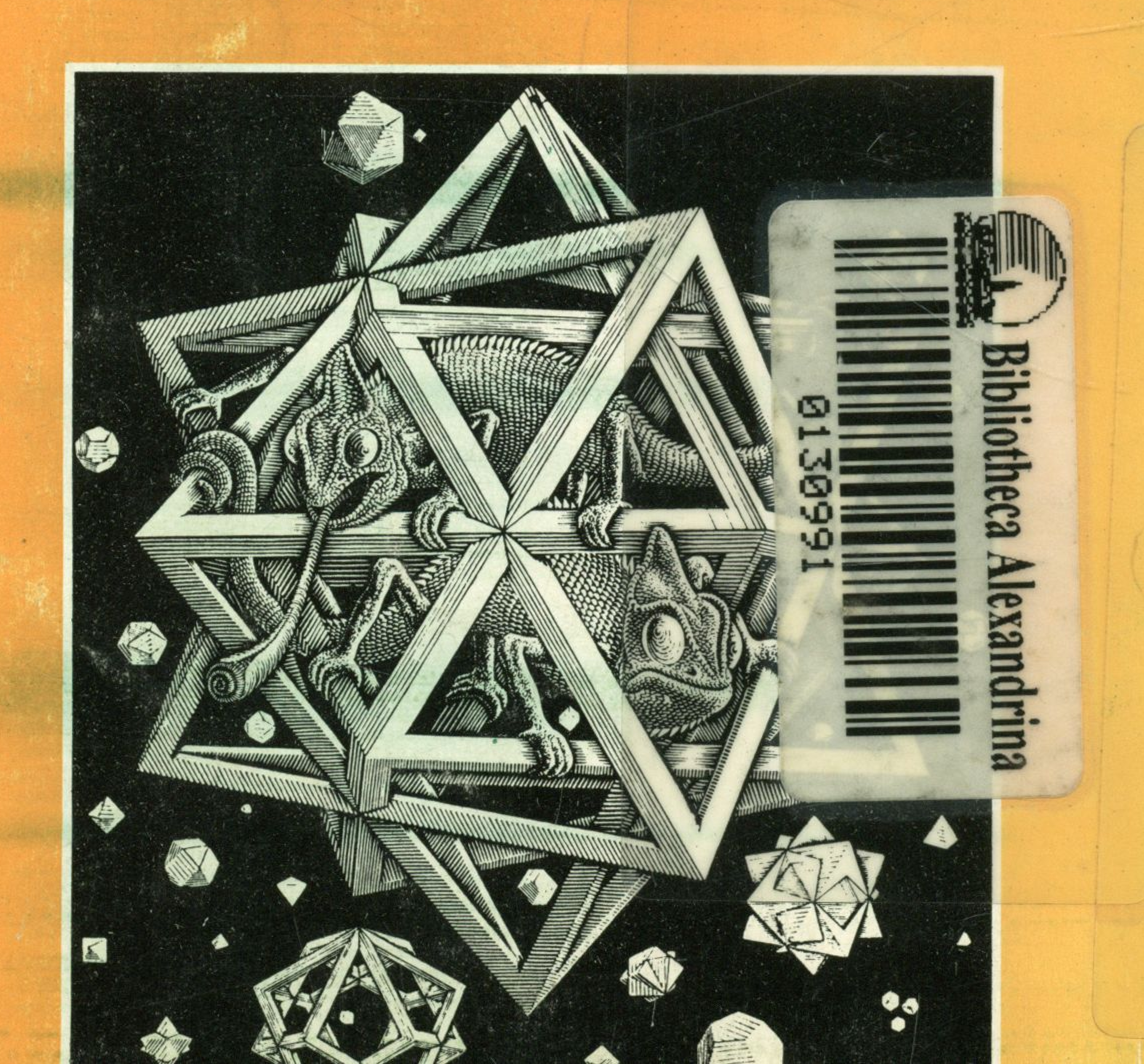


سيّد القمني

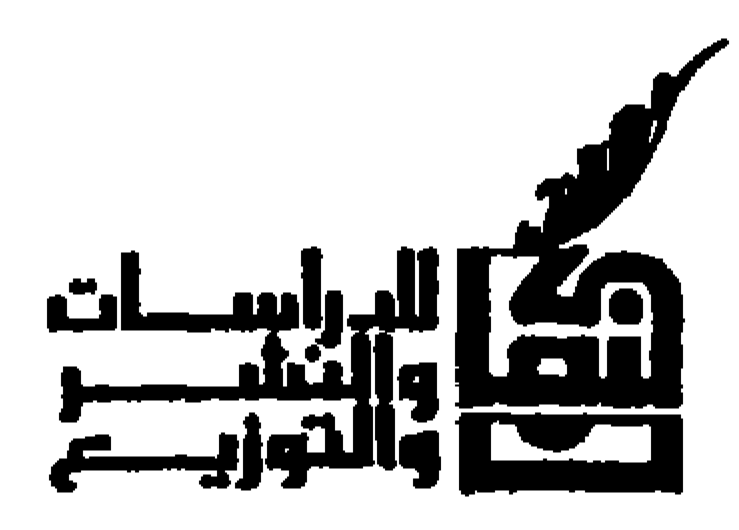
إسرائيل

التوراة .. التاريخ التضليل



اسرائيل

التوراة
التاريخ
التضليل



الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر
دمشق - ص.ب (٤٤٣) - هاتف (٢٣٠١٩١)

الطبعة الأولى: ١٩٩٤
(١٠٠٠) نسخة

الإشراف الفني: جمـال الابطح

الاهداء :

إلى دماء فرج فودة
الشاهدة على تردي هذا الزمن
وعلى كَمّ المعاناة والإحباط والألم
لكن القلم
ماقتلوه يقينا
ولكن شُبّه لهم .

تمهيد

في التجربة المستمرة للتعامل مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، المؤسسة على أعمدة تاريخية ودينية قدسية، كنت على يقين دوماً بمدى تهافت كثير من أعمالنا الفكرية وترنحها ازاء تلك الطروحات، رغم كم الشعارات والجمل الساخنة، والإطالة المفرطة، حيث كانت تلك الأعمال تلقي بنا في النهاية إلى حجر الفكر الصهيوني وقبضة منظومته الفكرية، بعد الإقرار لها بكل تأسيساتها التاريخية والقدسية، برداء إسلامي يعيد إنتاج عناصر الأيديولوجيا الصهيونية، وهو ناتج ضروري، ولزوم حتمي عن التسليم الإيماني بقدسية التاريخ الاسرائيلي، كمادة أولى وأساس في النص المقدس، وكمادة أولى في قانون الإيمان (بالله وملائكته ورسله)، وكان الواضح أن أولئك الرسل جميعاً من بني اسرائيل نسباً وشرفاً وعقيدة، وإن تم سحب المصداقية عن مقدسهم المتداول بين الأيدي الآن بعد وصمه بالتحريف، بعد اكتشاف يهود يثرب والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، اختلاف توجهاتهم عن البعد الاستراتيجي، ومن ثم تغير التكتيك المرحلي زمن الدعوة، بالنسخ القدسي، ليتم الكشف عن الإسلام كبعد تاريخي قديم، وأن الإسلام كان مستبطناً باليهودية التاريخية، ومن ثم تمت إعادة التاريخ دورة كاملة الى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحول جميع أنبياء وملوك دولة إسرائيل القديمة الى أنبياء مسلمين، كانوا يدعون بدعوة الإسلام، وإن ظلت الشهادات المنسوخة متواجدة بالمقدس الإسلامي،

بكل تفاصيلها التاريخية الاسرائيلية كما هي في المنظومة التوراتية، وظلت التوراة بصفتها الحاملة للهدى والنور، وظلت الآيات التي تذكر بهم كشعب مختار متميز فضلهم الله على العالمين، وغير ذلك لانجد سوى تنويعات عروبية نادرة ويتيمة، عن القرى العربية البائدة، وأنبياء مثل هود وصالح، أما النسب الإسلامي والعربي، فقد ظل بدوره اسرائيلياً، بإعلان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، أنه الحفيد النبوي الأخير لسلسلة إسرائيلية استعربت بعد إبراهيم، باستعراب ولده اسماعيل، واكتسابه الجنسية العربية بسكناه بلاد الحجاز، عبوراً على عمومة مؤكدة لإسحق شقيق اسماعيل، الذي أنجب اسرائيل (يعقوب) وبنيه وسلساله الطويل من أنبياء، توارثوا النبوة خلفاً عن سلف.

هذا ناهيك عن تطابق المنمنمات الدقيقة حول الإله وقدراته، وقصص الأولين الأولى بدءاً من قصة الخليقة وآدم مروراً بنوح والطوفان، حتى قيام مملكة شعب الرب (مملكة اسرائيل القديمة) في فلسطين، ومالحق ذلك من قصص الأنبياء والمرسلين، وكلهم من ذات النسل المبارك، ثم ماأضيف من عصر التدوين الإسلامي للسير والتآريخ، تلك المدونات التي عملت مستضيئة بحديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، والتزاماً بقانون الإيمان، ومافرضه كل ذاك من سيادة المأثور الاسرائيلي على العقل العربي وروحه، بعد أن غص مأثوره

بالاسرائيليات .

أما الشق الثاني من عناصر الأمة ، والذي يمثله المسيحيون العرب ، فمعلوم منذ البدء أنهم قد سلموا لاسرائيل وتوراتها ، عبر اسرائيلية المسيح وتلامذته جميعاً ، نسباً ، بل وبالشق الأعظم من العقيدة المسيحية ، وذلك اتباعاً لأمر إيماني ، يطلب الايمان بالمقدس الاسرائيلي القديم ، والتاريخ الاسرائيلي ، إعمالاً لتوجيهات يسوعية بدأت بالإعلان : «ماجئت لأنقض الناموس ، بل جئت لأكمل» ، ولهذا ركز المسيح تعاليمه على الجانب الأخلاقي التشريعي ، وترك مادون ذلك للمؤمن يبحث عنه في المقدس الاسرائيلي ، لذلك تم ضم الكتاب اليهودي المقدس (التوراة ومجموعة الأسفار القديمة) الى الكتاب المسيحي المقدس (الأناجيل ومجموعة رسائل التلاميذ) في كتاب واحد مقرر على المسيحي المؤمن ، يحمل عنوان (الكتاب المقدس) بشقيه (العهد القديم) و(العهد الجديد) .

وإعمالاً لذلك سلم المسيحيون بتاريخ اسرائيل وقدسيته وحتميته القدرية ، ونهايته المرسوم في التقدير الإلهي لقيام مجد اسرائيل في فلسطين مرة أخرى ، بل أصبح المسيحيون هم مادة التطور الكبرى ، لقيام مملكة داود وسليمان في فلسطين بزعامة الرب يسوع صاحب الملكوت ، لأنه امتداد لملوك اسرائيل القديمة ، باعتباره من نسل سليمان وأبيه داود ، فهو إن إلا حفيد ملوك ، تجري في عروقه دماء اسرائيلية ملكية ، ارتفع في المسيحية من كرسي التجارة الأرضية في مدينة الجليل ،

حيث كان يمارس حرفته، الى كرسي الألوهية في السماء، لكن ليظل وفياً لرحمه وعشيرته، يمركز كل الحقوق التاريخية والدينية لاسرائيل في فلسطين، لأنه هو ذاته إله اليهود، (يهوه) القائد الرباني المظفر الذي قاد شعب اسرائيل من مصر ليقيم مملكة في فلسطين، نعم هو (يهوه) ولكن بعد أن تجلى لخرافه الضالة في صيغة بشرية.

ومن ثم تنافس العربان، عتاة العقيدة العاضون بالنواجز على الإيمان، مسيحية وإسلام، في تشريف تاريخ اسرائيل وتكريمه، وبينما باتت عودة المسيح لإقامة مملكة أبيه داود، والجلوس على عرش سلفه سليمان في فلسطين، مشروعاً مسيحياً، فلا زال المسلمون ينتظرون المسيح ليقتل الدجال، ويقيم ذات المملكة، وبعدها يقف اسرافيل ينفخ في البوق من صخرة بيت المقدس، لقيام مملكة الحق الاسلامية الخالدة، مشروعاً إسلامياً.

والأمر بهذا الشكل مشكلة إيمانية، وأزمة فكرية طاحنة، يتغافل عنها الجميع وفق صيغهم السياسية، وتكتيكاتهم المرحيلة، وأهدافهم الاستراتيجية، لكن المأساة الحقيقة أنها تتجاوز ذلك الإطار الى مستوى الأزمة الوطنية والقومية والاجتماعية، بحالة تبدو مستعصية على الحل تماماً، أللهم إلا في عالم الحلم الثوري الآتي، وهو- بالركون إليه - يعادل تماماً انتظار المسيح قاتل الدجال ثم دخول الجنات في المشروع الاسلامي، كما يعادل انتظار عودة المسيح الإله وقيام

المملكة المجيدة في المشروع المسيحي واليهودي، على حد سواء، والمدرك لأبعاد تلك الأزمة المروعة في الفكر والسلوك العربي، سيجد كماً من الإحباط الفكري والنفسي، والواقعي (في التعايش مع ذلك الفكر السائد)، كفيل وحده بإلجائه الى إهمال الأمر برمته، ونفض يديه منه، بيأس كامل ومطبق، لولا بقية من روح قتالية تتشبث بالمحاولة، لوضع لبنة حقيقية في بناء الأمل الآتي، ضمن لبنات أخرى نتمناها ونرجوها ونستحثها، من الباحثين المخلصين.

وضمن تلك المحاولات يأتي كتابنا هذا، الذي أوردناه بالمعنى السالف، ولانعلم مدى ماحققناه فيه، الأمر متروك في النهاية للجدل القائم الآن على مستوى التعامل مع التراث لتحديد الهوية، فقط نريد الآن لفت نظر القارىء الى ان لب هذا الكتاب وعمدته الأساس، هو بابه الثالث، الذي هو هدف الكتاب الرئيسي، لأنه معني بالرد على تنظيرة بني اسرائيل التاريخية، المعتمدة رسمياً وقدسياً من المؤسسة الصهيونية.

وقد رأينا أن نمهد لذلك الباب الأخير، بالبابين الأولين: التوراة، التاريخ، لنضع بيد القارىء المفاتيح والأدوات اللازمة للتعامل مع الباب الأخير (التضليل)، بأقل قدر لازم من المشقة، وبحيث يمتلك القارىء قدراً من المعرفة المبسطة بالكتاب اليهودي المقدس، ومايكفيه من مؤونة للعلم بالمرحلة الزمنية من تاريخ اسرائيل، التي ركزت عليها تنظيرة بني اسرائيل عملها، وسعيها.

ومن ثم، فقد تعرضنا في الباب الأول (التوراة)، لمجموعة من الشروح حول ذلك المقدس وأهميته التاريخية، ومتى تمت صياغته بشكله الحالي، وبأي الأدوات، ولتحقيق أي أغراض؟ مع محاولة متعجلة لوضعه على محك المصداقية التاريخية، ثم أردفناه بالباب الثاني (التاريخ)، لعرض الفترة الزمنية المتعلقة برحلة الدخول الاسرائيلي الى مصر، ثم رحلة الخروج منها الى فلسطين، حيث تم تأسيس مملكة اسرائيل القديمة.

وعليه، أضع هذا الجهد، الذي ربما كان متعجلاً في بعض مواضعه، كناتج محاولة المسارعة بالخروج الى الساحة، بعد تأخر طويل، راجياً أن أكون بذلك قد وضعت بين يدي القارىء مساهمة على طريق التعامل العلمي مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، مع قناعة خاصة، أو اعتقاد، أني أقدم به واحدة من الأدوات اللازمة، في الصراع القومي والحضاري، الملتبس دوماً بالاجتماعي، والذي تخوضه فصائل أمتنا الواعية اليوم.

سيد القمني

البـاب الأول

التــوراة

تأسيس

على الصفحة الأولى للكتاب المقدس
(النسخة العربية)
نقرأ إعلاناً افتتاحياً يقول:

الكتاب المقدس: أي كتب العهد القديم والعهد الجديد وقد ترجم من اللغات الأصلية وهي؛ اللغة العبرانية، واللغة الكلدانية، واللغة اليونانية.

والعهد القديم يشمل مجموعة الكتب اليهودية المقدسة، التي يشار إليها في مجموعها ـ مجازاً ـ باسم التوراة، وهو الاصطلاح الذي استخدمناه في عنونة كتابنا هذا، للدلالة على مجموعة كتب العهد القديم، رغم أن التوراة تقتصر على الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، لكن الاصلاح صار دارجاً للدلالة على مجموع الكتب اليهودية التي يشملها ذلك العهد بكامله، وهو المختص في صفحة عنوان الكتاب المقدس، بالترجمة عن اللغة العبرانية واللغة الكلدانية، أما العهد الجديد فيشمل مجموعة الكتب المقدسة للعقيدة المسيحية، وهو فقط من بين مجموع كتب الكتاب المقدس، المترجم عن اللغة اليونانية.

ويطلق على كتب العهدين اصطلاحاً لفظة (أسفار) جمع (سفر) أو كتاب، وتعني السور أو المحيط بالمحتوى، و(سفر) هي المقابل العبري لكلمة (سورة) في اللغة العربية، حيث يتبادل الحرفان (ف) و(و) بين العبرية والعربية، كما في (ليفي) العبرية، ومقابلها (لاوي) في العربية، وقد اعتبرت تلك السور أو الأسفار عند اصحابها كتباً مقدسة، ، أي موحى بها، أما كلمة العهد في التسميتين (العهد القديم) و(العهد الجديد) فتعني الميثاق، بمعنى أن كلا المجموعتين من الكتابات عبارة عن ميثاق أخذه الله على البشر، وارتبطوا به مع الله، فكان العهد القديم ميثاق العقيدة اليهودية، بينما أصبح العهد الجديد ميثاق العقيدة المسيحية.

وكتب العهد الجديد تمثل مجموعة الأناجيل وعددها أربعة أناجيل هي على الترتيب: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا، هذا اضافة الى سفر أعمال الرسل، ومجموعة رسائل تخص تلامذة المسيح والتي بشروا بها الأمم، وهي:

- رسائل بولس الرسول: رسالة الى رومية، ورسالتين الى كورنثوس، ورسالة الى غيلاطية، ورسالة الى إفسيس، ورسالة الى فيلبي، ورسالة الى كولوسي، ورسالتين الى تسالونيكي، ورسالتين الى تيموثاوس، ورسالة الى تيطس، ورسالة الى فيلمون، ورسالة الى العبرانيين.
- رسالة يعقوب الرسول.
- رسالتين لبطرس الرسول.
- ثلاثة رسائل ليوحنا الرسول.
- رسالة ليهوذا.
- سفر الرؤيا، وهو سفر خاص ناتىء يخص رؤيا ليوحنا اللاهوتي.

وتلك الأسفار والرسائل في مجموعها اضافة الى الأناجيل تشكل سبعة وعشرين كتاباً أو سفراً، تكوّن منظومة المقدس المسيحي أناجيل ورسائل مقدسة.

لكن الأهم، والذي يعنينا هنا، هو القسم الأول من الكتاب المقدس، وهو القسم الأكبر والأضخم (العهد القديم) أو التوراة، ويتضمن تسعة وثلاثين سفراً ضخماً هي على الترتيب:

سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، سفر يشوع، سفر القضاة، سفر راعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثاني، سفر أعمال الملوك الأول، سفر أعمال الملوك الثاني، سفر أخبار الأيام الأول، سفر أخبار الأيام الثاني، سفر عزرا، سفر نحميا، سفر إستير، سفر أيوب، سفر مزامير النبي داود (المعروف إسلامياً باسم الزبور لاختلاط حرفي ب، م بين اللسان العبراني واللسان العربي)، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر نشيد الانشاد الذي لسليمان، وسفر إشعيا (وهو مجموعة نبوءات)، وسفر إرميا (نبوءات بدوره)، وسفر مراثي إرميا، وسفر حزقيال (نبوءات)، وسفر دانيال، وسفر هوشع، وسفر يوئيل، وسفر عاموس، وسفر عوبيديا، وسفر يونان، وسفر ميخا، وسفر ناحوم، وسفر حبقوق، وسفر صفينا، وسفر حجي، وسفر زكريا، وسفر ملاخي.

وعادة مايتم تقسيم هذه المجموعة من الأسفار الى أربعة أقسام هي على الترتيب:

القسم الأول: المعروف باسم التوراة، أوكتب موسى الخمسة، أو البانتاتك Pentateuque ويشمل خمسة أسفار هي: التكوين Cenesis والخروج Exodus واللاويين Leviticus والعدد Nambers والتثنية Deuteronomy. وتعد تلك الأسفار الخمسة أهم أجزاء العهد القديم، وتنسب بجملتها الى النبي موسى بوحي من الله.

ويحكي السفر الأول منها (التكوين) تاريخ العالم من لحظة البدء بخلق السماوات والأرض، ثم آدم ونسله، ويسير مع ذلك النسل حتى يصل الى أولاد يعقوب المعروف باسرائيل، وهم اثني عشر ولداً يعرفون بالأسباط أو بني اسرائيل، وينتهي السفر باستقرار هؤلاء ضيوفاً على أرض مصر، في زمن حلت به المجاعة بالمنطقة بكاملها، ومن المرجح عند العلماء ان هذا السفر قد تم تأليفه حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بحوالي خمس قرون، وهو افتراض علمي لايأخذ بعين الاعتبار مسألة نسبته للوحي أو لموسى من الأساس.

أما السفر الثاني (الخروج) فيعرض للأحداث التي مرت بها القبيلة الاسرائيلية في مصر، وقصة النبي موسى وقيادته لبني اسرائيل في رحلة خروج - أو

هروب ـ كبرى، ويحكي السفر أحداث الرحلة بتدقيق وتفصيل شديدين، ويشير الى أسماء ومواضع الحل بكثافة وإصرار، اضافة لما يحويه ذلك السفر من بعض أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات، ويرجح أنه قد تم تأليفه زمن تأليف سفر التكوين.

والسفر الثالث هو سفر (التثنية)، الذي شُغِل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحرب والسياسة والاقتصاد، والمعاملات والعقوبات والعبادات، وقد سمي التثنية لأنه ثني أو أعاد ذكر التعاليم التي يفترض أن موسى تلقاها من ربه، لكن العلماء يرجحون أن هذا السفر قد تم تأليفه في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أي بعد موسى بحوالي سبعة قرون، وذلك أثناء وجود القبيلة الاسرائيلية في المنفى البابلي.

والسفر الرابع هو سفر (اللاويين) أو الليفيين، نسبة الى لاوي أو ليفي Levi أحد الأسباط، والاشارة هنا الى أبناء ليفي أو سلسلة نسله من أحفاد الأحفاد، الذين اشتغلوا بالكهانة اليهودية، ومن هؤلاء الأبناء كان النبي موسى، وقد شغل معظم هذا السفر بشؤون العبادة وطقوسها، خاصة ماتعلق منها بطرق تقديم الأضاحي والقرابين.

أما السفر الخامس وهو سفر (العدد)، فقد اهتم باحصائيات عن عدد قبائل بني اسرائيل، وجيوشهم، وأموالهم، وأي أمر كان يمكن إحصاؤه في شؤونهم، لذلك سمي (العدد) من عملية العدّ والاحصاء.

القسم الثاني: ويعرف بالأسفار التاريخية، وعددها اثني عشر سفراً، قامت بعرض تاريخ بني اسرائيل بعد استيلائهم على كنعان (فلسطين)، وهي أسفار: يشوع Josue (ويشوع هو خليفة موسى على قيادة بني اسرائيل الى فلسطين بعد موت موسى)، وسفر القضاة Juges (وهم الذين تولوا أمور حكم بني اسرائيل بشكل قبلي، بعد استيلائهم على بعض أرض فلسطين)، ثم سفر راعوث Ruth (وهي جدة داود من جهة أبيه)، ثم سفر صموئيل الأول، وصموئيل الثاني (وصموئيل هو آخر قضاة اسرائيل قبل انتهاء النظام القبلي وقيام المملكة المركزية)، ثم يلي ذلك سفران بعنوان أعمال الملوك أول وثاني، ويحكي تاريخ ملوك بني اسرائيل

بدءاً من أول ملكـوهم (شـاؤ ول) مروراً بداود وولـده سليـمان وسلسلة الملوك من بعدهم، ويلي ذلك سفران بعنوان أخبار الأيام، وهما أول وثاني بدورهما، ويعرضان على الـترتيب شجـرة النسب من آدم الى يعقـوب اسرائيل، وهو تكرار سبق عرضه في سفر التكوين، ثم بعد ذلك يتم تقديم عرض لتاريخ داود، ثم ولده سليمان، ثم عرض لتاريخ اسرائيل السياسي بعد سليمان.

ويأتي بعـد ذلـك سفـر عزرا Esdras وينسب الى عزرا النبي الذي تمكن من إعـادة الاسـرائيليين من منفاهم في بابل الى فلسطين، وذلك حوالى القرن الخامس قبـل الميـلاد، وإليـه تنسب محاولـة إعـادة تجديـد الـديـانـة ونفخ الروح في القومية الاسرائيلية، اضـافة الى قيامه بتجديد بناء الهيكل، وينسب الى عزرا النشط هذا تحرير كثير من أسفار العهد القديم، حتى بلغ منزلة عظيمة الشأن عند بني اسرائيل.

ومن بين تلك الأسفـار التـاريخيـة يأتي أيضاً سفر نحميا Nehemie نسبة الى نحميـا، أحـد وجهـاء بني اسـرائيـل، والـذي تمكن بمساعدة عزرا من إقناع ملك الفـرس، بالسـماح لهم ببنـاء الهيكـل مرة أخـرى، ويـلي نحميـا سفر إستير Esther وهو سفـر صغـير يشتمـل على تسعة إصحاحات فقط، يروي قصة الاسرائيلية الجميلة إستـير، التي تمكنت من إغـواء أخشـويريش ملك الفرس فتزوجها، كما تمكنت من إحبـاط مؤ امـرات وزيـره هامان ضد بني ملتها، ودبرت مع عمها الكاهن مردخاي مكيـدة قضت عليـه وعلى أنصاره، حتى سمح لهم الملك الفارسي بالولوغ في الدم كيف شاءوا، فقـام الاسـرائيليـون بذبح الآلاف من قوم هامان ونسائهم وأطفالهم، وحتى اليـوم يحتفـل أصحـاب الملة اليهـوديـة بذكـرى تلك المذبحة الدموية في عيد البوريم، أو عيد إستير، وذلك في شهر مارس من كل عام.

القسم الثـالـث: ويعـرف بمجمـوعـة أسفـار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشمـل أسفـاراً في صيـغ الأناشيد والمواعظ الدينية المؤلفة تأليفاً شعرياً وهي خمسة أشعار أولها أيوب Job ثم المزامير Bsaumes وبعده سفر أمثال سليمان Bruverbes ثم سفـر الجـامعـة Ecclesiastes وهـو منسـوب بدوره لسليـمان، ومن بعـده سفر نشيد الانشاد Canuque des Cantigues وهو بدوره من أعمال سليمان حسب عنوان (نشيد

الانشاد الذي لسليمان).

القسم الرابع: ويسمى بمجموعة أسفار الأنبياء (النبيم)، ويشمل سبعة وعشرين سفراً تعرض لتاريخ أنبياء اسرائيل بعد موسى، وهي إشعيا Esaie وإرميا Jeremie ومراثي إرميا، وحزقيال Ezechiel ، ودانيال Daniel وهوشع Osee ويوئيل Joe وعاموس Amos وعوبديا Abdlas ويونس Jonas وميخا Michee وناحوم Nahum وحبقوق Habakuk وصفنيا Sophonie وحجي Ajjee وزكريا Zacharie وملاخي Malachie.

ويرجح العلماء أن معظم تلك الأسفار قد تم تأليفها ابن النصف الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، وأوائل القرن السادس قبل الميلاد، وأن بعضها يمكن تزمينه بأواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

علاقة النبي موسى بالتوراة

بات معلوماً ـ اليوم ـ أن نسبة الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) الى النبي موسى، أمراً مشكوكاً فيه تماماً، وغير علمي بالمرة، بل أصبح من العلمية **القطع** بتأليفه على يد عدد من الكتاب الذين اختلفت مشاربهم وأمزجتهم وثقافاتهم ومواقعهم الاجتماعية وتوجهاتهم العقائدية، وهو الأمر الذي فرض نفسه في النهاية على المؤسسات الدينية ذاتها، حتى أنك تجد في مقدمة الطبعة الكاثولوكية للكتاب المقدس، الصادرة في عام ١٩٦٠ مانصه:

> مامن عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.

وقد كان السبب في اطلاق اصطلاح (أسفار موسى الخمسة) على التوراة، هو افتراض إيماني ينسب تأليفها الى النبي موسى، حتى صار ذاك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهد فيلون السكندري ويوسفيوس في القرن الأول قبل الميلاد، اللذان عاصرا المسيح، وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة، وهي العقيدة التي ظلت تأخذ بها الكنيسة الى زمن قريب، ولاتزال سائدة في كثير من الكنائس.

إلا أن التوراة نفسها تقدم لمن يبحثها شواهد تقطع بأن تلك النسبة الى موسى باطلة تماماً، ومن تلك الشواهد على سبيل المثال:

● هناك عبارات تتعلق بموسى في التوراة، ويستحيل أن تصدر عنه وذلك مثل الآية التي تقول: «وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض ـ عدد ١٢ : ٣»، فهنا واضح تماماً أن الكاتب شخص آخر يتحدث عن موسى، ويذهب الى تأكيد حلم (الرجل موسى)، كما لو كانت محاولة للتنصل من أحداث في سيرة ذلك النبي التوراتية، تنفي عنه صفة الحلم بالمرة،

ومثل تلك الآية، أخرى تقول: «وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر، في عيون فرعون وعيون الشعب ـ خروج ١١ : ٣». هذا ناهيك عن الخبر الخاص بوفاة موسى والذي يقول: «فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله، ودفنه في الجواء في أرض موآب ـ تثنية ٣٤ : ٥»، وبالطبع يستحيل أن يكتب موسى عن نفسه أنه قد مات، بل ويحدد موضع دفنه.

● إنك تجد في التوراة أسماء لمواضع جغرافية يستحيل أن يكون لدى موسى علم بها، لأنها في عمق أرض فلسطين، وموسى مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين، اضافة الى أن أكثر تلك الأسماء لم تكن قد سميت زمن موسى، بل تمت تسميتها حسب ظروف ومستجدات حدثت بعد موسى بثلاثة أو أربعة قرون، مثل اسم مدينة دان (تكوين ١٤ : ١٤، تثنية ٣٤ : ١)، ومثل مجموعة القرى المعروفة باسم يائير (عدد ٣٢ : ٤١، تثنية ٣ : ١٤)، وهي القرى التي لم تظهر أصلاً في الوجود إلا في عصر القضاة بعد زمن موسى بقرون (انظر القضاة ١٠ : ١٤).

● وفي قصة يوسف خطأ تاريخي هائل، يطلق على فلسطين أرض العبريين (تك ٤٠ : ١٥) وهو الاسم الذي لم يطلق إلا بعد ذلك بزمان، بينما قبل ذلك ـ بتأكيد التوراة نفسها ـ كانت تسمى أرض الفلسطينيين، وأرض الكنعانيين.

● وفي سفر التكوين سقطة فاضحة تؤكد كتابة التوراة بعد قيام الملكية المركزية لاسرائيل، أي بعد أربعة قرون أويزيد من زمن النبي موسى، والسقطة تتضح في حديث التوراة، وقولها أن ماترويه عن زمن موسى، كان «قبل أن يملك ملك من أبناء اسرائيل ـ تكوين ٣٦ : ٣١، عدد ٢٤ : ٧» وهي جملة لايكتبها إلا شخص عاصر العهد الملكي وعرف بقيام المملكة، إنها بالقطع لايمكن أن تكتب إلا في العصر الملكي لاسرائيل.

● هناك تعبير متواتر في التوراة هو (حتى اليوم)، يلحق قص بعض الأحداث، ثالقول انه تم تسمية مدينة كذا بهذا الاسم وهذا اسمها (حتى اليوم)، أوأن الحدث الفلاني قد أدى الى تدمير مدينة كذا وظلت على حالها ذلك (حتى اليوم)، والملاحظ أن كل التسميات والأحداث التي لحق بها هذا التعبير، تمت بعد عصر موسى بقرون، اضافة الى مساحة زمنية أخرى يضيفها تعبير (حتى اليوم)، أي حتى يوم

كتابة الحدث وتدوينه، أو كتابة التوراة برمتها، وهو مايشير باليقين الى مسافة زمنية أخرى تفصل بين الحدث وبين زمن التدوين، مما يبعد بزمن كتابة التوراة عن زمن موسى مسافات أخرى، ونموذجاً لذلك التعبير المتواتر مايمكنك أن تجده في عدة مواضع مثل (تكوين ٣٥ : ٢٠، تكوين ٤٧ : ٢٦، تكوين ٤٨ : ١٥، وخروج ١٠ : ٦، وعدد ٢٢ : ٣٠، وتثنية ٢ : ٢٢، وتثنية ١٠ : ٨ وتثنية ١١ : ٤).

● أما تعبير (ولم يظهر نبي مثل موسى - تثنية ٣٤ : ١٠) فهويشير الى معرفة الكاتب بظهور أنبياء بعد موسى، والمفترض أن ذلك لم يكن معلوماً زمن موسى، علماً أن هؤلاء الأنبياء لم يبدأ تواجدهم الفعلي إلا بعد عهد صموئيل ومع قيام الملكية الاسرائيلية.

وعلى مثل تلك الملاحظات التي يمكن لقارىء مدقق أن يراها في التوراة، تتالت التأكيدات التي ترفض نسبة التوراة الى موسى، فكان تأكيد توماس هوبز الفيلسوف الانجليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩): أن تدوين التوراة قد تم بعد موت موسى بزمن طويل، ثم تبعه الفيلسوف اليهودي باروخ اسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) الذي انتهى الى انكار أي احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة الى موسى، وقدم على ذلك شواهد عديدة، وقدم عدداً من القرائن التي تشير الى ان كتب العهد القديم بدءاً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثاني، قد كتبها عزرا الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان الطبيب الفرنسي جاك أوستراك (١٦٨٤ - ١٧٦٦) أول من كشف عن احتواء سفر التكوين على روايتين مختلفتين، وأوضح حقيقة وجود اسمين مختلفين للإله في ذلك السفر وقسم في سفر الخروج، هما (إلوهيم = الآلهة) و(يهوه). وقد ربط (أوستراك) بين ذلك وبين روايات التوراة فاكتشف أن الأجزاء التي تستخدم اسم إلوهيم تروي رواية مختلفة عن تلك التي تستخدم اسم يهوده.

ويأتي الألماني (جراف - ١٨٦٥) ليكمل تلك الدراسات، فيقوم بعملية عكس وقلب شامل للتصور التقليدي، الذي شاع عن كون القصة الإلوهيمية هي الأقدم، ليؤكد أن القصة اليهوية كانت هي الأقدم، بينما دونت القصة الإلوهيمية

في فترة مابعد العودة من المنفى البابلي زمن عزرا، وذلك خلال القرن الخامس قبل الميلاد.[1]

ولعل أهم ماينفي نسبة التوراة الى موسى، أنها لم تكن أبداً موضوعاً واحداً متكاملاً دفعة واحدة، يؤكد ذلك التكرار الذي يمكنك ملاحظته في قصة الخلق، مما يشير الى اختلاف المؤلفين، بل أنك تجد في ذلك التكرار مخالفات جوهرية، ونماذج لتلك الروايات والمخالفات مايمكن أن نورده كأمثلة وليس حصراً:

في قصة الخلق أو التكوين التي يمكن للقارىء الرجوع الى نصها كاملاً بالتوراة منعاً للإطالة، يمكننا أن نقف على ذلك التناقض في فعل الخلق، الذي يقوم به مرة من سمي في الترجمة العربية (الله)، وهو في الأصل العبري (يهوه)، كما في القول: «في البدء خلق الله السماوات والأرض ـ تكوين ١ : ١» أو كما في القول: «وقال الله ليكن. . . كذا وكذا»؛ ومرة أخرى نجد الخالق في ذات القصة لكن في مواضع أخرى هو (اللوهيم) أو (الآلهة)، وذلك كما في قوله لأعضاء مجمعه الإلهي: «نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا ـ تكوين ١ : ٢٦».

وفي موضع من القصة يقوم الإله بخلق السماء والأرض دفعة واحدة «في البدء خلق الله السماوات والأرض ـ تكوين ١ : ١» بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتان في الأصل في هيئة غمر ماء أزلي مظلم، يفتقه الله عن بعضه الى سماء وأرض «وكانت الآرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. . وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد. . ودعا الله الجلد سماء ـ تكوين ١ : ٢ ـ ٨».

---

(١): للمزيد حول علاقة موسى بالتوراة ارجع الى:

ـ اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفي، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.

ـ د. فؤاد حسنين علي: التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

وفي مشهد آخر من دراما التكوين، نجد الإله يقوم بإنبات النبات في الأرض ويضع فيها حيوانها ودباباتها «وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض - تكوين ١ - ١١»، وفي مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم، ثم يضعه فجأة في مكان يدعى جنة عدن ليزرع أرضها ويفلحها «هذه مبادىء السماوات والأرض حين خلقت، ، يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد . . وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض . . وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله - تكوين ٢ : ١ - ٨».

اما افصح الاشارات لوجود روايتين مختلفتين لقصة الخلق، فهو ماجاء عن آدم عندما وضع في الجنة، فمرة نعلم أنه لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم في موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء «حتى تعود الى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، والى تراب تعود - تكوين ٣: ١٩».

ثم تناقض آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق قد بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة «في البدء خلق الله السموات والأرض - تكوين ١ : ١»، وأنه بعد ذلك تقرر إنارة الكون «وقال الله ليكن نور فكان نور . ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً - تكوين ١ : ٣ - ٥»، بينما لدينا رواية أخرى تتحدث عن السماء والأرض كموجود واحد أصلي في هيئة محيط أزلي مظلم، وترجىء تلك الرواية ايصال الإنارة الى مابعد فتق هذا المحيط الى سماء وأرض «وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه . . ودعا الله الجلد سماء . . وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل - تكوين ١ : ٦، ٨، ١٤».

أما أبرز الشواهد على مزج روايتين مختلفتين للتكوين، فهو الكيفية التي تم بها خلق الانسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الانسان دفعة واحدة، ككائن واحد يجمع في ذاته الواحدة بين الذكورة والأنوثة «يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم - تكوين ٥ : ١»، لكن في موضع آخر نجد الإله يخلق زوجين متمايزين ذكراً وأنثى «على صورة الله خلق الزوجين، ذكراً وأنثى خلقهم - تكوين ١ : ٢٧»

وبالطبع لم تكن شواهد التداخل بين روايات مختلفة تم جمعها، أمراً واضحاً في قصة الخلق وحدها، فهناك دلائل أخرى في روايات أخرى تشير الى هذا الأمر بوضوح، ففي قصة نوح نجد رواية تقول أن الله قد أمر نوحاً أن يأخذ معه في الفلك من كل زوجين اثنين «ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل، تدخل الى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى - تكوين ٦ : ١٩»، بينما نجد رواية أخرى ترتفع بهذا الرقم فتقول «من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى - تكوين ٧ : ٢»، ثم في موضع نجد نوحاً يستكشف أحوال الطوفان «وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض - تكوين ٨ : ٧»، بينما المستمر في القراءة يجد المياه لم تنشف بعد، فيرسل الحمامة، ثم بعد فترة «في الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض - تكوين ٨ : ١٤»، والقصة النوحية مليئة بمثل تلك التناقضات التي لاتغيب على فراسة قارىء مهتم، وهي ذات التناقضات التي تغص بها بقية أسفار التوراة بلا استثناء، فهناك كمثال، تعليلات قدمتها التوراة لتفسير بعض التسميات، كتعليلها لتسمية مدينة (بئر سبع) بهذا الاسم، فالتمسية في رواية تقول أنها سميت كذلك نسبة الى سبع نعاج قدمها النبي ابراهيم لأبيمالك ملك مدينة جرار الفلسطينية، كرمز لميثاق عدم اعتداء بينهما، وهو الوارد في (تكوين ٢١ : ٢٨ - ٣١)، لكن في رواية أخرى نجد التسمية تعود الى اسحق ابن ابراهيم الذي حفر له عبيده بئر ماء «فدعاها شعبه، لذلك اسم المدينة بئر سبع الى هذا اليوم - تكوين ٢٦ : ٣٣»، وذات التناقض نجده في تعليل تسمية مدينة (بيت إيل)، فهو في رواية ينسب الى يعقوب ابن اسحق عندما نام فأتاه الله في المنام، فقام متيقناً أن هذا المكان مسكن الإله فسماه بيت الإله أو بيت إيل «ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل، ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز - تكوين ٢٨ : ١٩»، وفي رواية أخرى تنسب التسمية الى يعقوب أيضاً لكن في قصة أخرى ومناسبة أخرى حيث حدثه الله «ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل - تكوين ٣٥ : ١٥»، هذا بينما نعلم من التوراة ذاتها أن المدينة كانت تحمل اسم بيت ايل قبل يعقوب وقبل أبيه اسحق وقبل جده ابراهيم، حيث نعلم أن ابراهيم عندما هبط أرض فلسطين غريباً، «ثم نقل من هناك الى الجبل شرقي بيت

إيل ونصب خيمته، وله بيت إيل من المغرب وعلى من المشرق ـ تكوين ١٢ : ٨»

وفي قصة يوسف نجد يهوذا أحد الأسباط هو صاحب اقتراح بيع يوسف للاسماعيليين بعشرين مثقالاً (تكوين ٣٧: ٢٦ ـ ٢٨) بينما في موضع آخر نجد رأوبين أخيهم يقترح إلقاءه في الجب (تكوين ٣٧: ٢١، ٢٢، ٢٤)، ثم تجد نفسك هنا في متاهة: هل ألقوه أم باعوه، ومن الذي أنقذه أو اشتراه، تجار اسماعيليون أم مديانيون، التضارب هنا يصل قمته فلا تخرج بطائل.

وعليه فلا مناص من الاعتراف بأن التوراة، مجموعة جمة من التآليف التي اشترك في وضعها مجموعة مؤلفين، اختلفوا، ولم يلتقوا أبداً لتصفية مابينهم من خلافات، وأن هذه المجموعة من التآليف تعنى بمسائل دينية ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، أما الذي يجب الإشارة إليه وعدم إهماله فهو شهادة العهد القديم نفسه في كثير من الاشارات الواضحة الى أسفار يحيلنا اليها، فلا نجدها ضمن المقدس المجموع، مما يدلل بسفور على ضياع كثير من الكتب والأسفار ونموذجاً لذلك، وربما سنحاول الحصر، سنأتي بالنصوص التوراتية التي تحيلنا لمزيد من التفصيل في أسفار أخرى، بينما هذه الأسفار غير موجودة على الإطلاق:

ـ لذلك يقال في كتاب حروب الرب: واهب في سوفة وأودية أرنون ـ العدد ٢١ : ١٤ (هنا سفر حروب الرب وهو غير موجود).

ـ فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه، أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر، فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ـ يشوع ١٠ : ١٣.

(هنا سفر ياشر، وهو مفقود بدوره).

ـ فكلم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه في السفر ووضعه أمام الرب ـ صموئيل الأول ١٠ : ٢٥.

(وهنا سفر قوانين المملكة، وهو غير موجود).

ـ وأمور داود الملك الأولى والأخيرة، هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي، وأخبار ناثان النبي، وأخبار جاد الرائي ـ أخبار أيام أول ٢٩ : ٢٩

(وهنا ثلاثة أسفار هي أخبار صموئيل الرائي وناثان النبي وجاد الرائي، وهي

بدورها لايُعلم شيئاً عنها).

ـ وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة، إما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي، وفي نبوءة أخيا الشيلوني، وفي رؤى يعدو الرائي ـ أخبار أيام ثاني ٩: ٢٩.

(وهنا إشارة الى سفرين آخرين مفقودين هما سفر أخيا الشيلوني، وسفر يعدو الرائي).

ـ وبقية أمور يهوشافاط الأولى والأخيرة، هاهي مكتوبة في أخبار ياهو بن حناني، المذكور في سفر ملوك اسرائيل ـ أخبار أيام ثاني ٢٠ : ٣٤.

(وهنا سفر آخر مفقود هو سفر أخبار ياهو بن حناني).

ـ وبقية أمور عزيا الأولى كتبها أشعيا بن آموص النبي ـ أخبار أيام ثاني ٢٦ : ٢٣.

(والإشارة هنا الى سفر غير سفر إشعيا المعروف، فالسفر المفقود هنا لإشعيا النبي، وقد دونه عن الملك الاسرائيلي عزيا).

ـ وبقية أمور حزقيا ومراحمه، هاهي مكتوبة في رؤيا إشعيا بن آموص النبي ـ أخبار أيام ثاني ٣٢: ٣٢.

(وكذلك فإن أخبار الملك الاسرائيلي حزقيا بدورها ليست مدونة في سفر إشعيا المعروف، وعليه فهناك سفر دونه إشعيا عن أخبار هذا الملك فقد بدوره، وربما كان هو ذات السفر المفقود الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة مباشرة).

ـ ورثى إرميا يوشيا، وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا في مراثيهم الى اليوم، وجعلوها فريضة اسرائيل ـ أخبار أيام ثاني ٣٥: ٢٥.

(وهنا إشارة لمراثي كتبها النبي إرميا على الملك الاسرائيلي يوشيا، الذي قتل على يد الفرعون المصري نخاو، وان تلك المراثي كانت ترتل كطقس فرضي على بني اسرائيل في صلواتهم، أو في تاريخ المناسبة السنوي، وهي غير موجودة في إرميا أو مراثية موجودة بالعهد القديم الموجود بين أيدينا، مما يشير الى كونها شكلت سفراً بذاتها فقد بدوره).

ـ وكان بنو لاوي رؤوس الآباء مكتوبين في سفر أخبار الأيام الى أيام يوحانان بن الياشيب نحميا ١٢ : ٢٣.

(وبـالبحث لم نجـد في السفـر المـوجود بالعهد القديم والمعروف بأخبار الأيام الأول، والسفـر المعـروف بأخبار الأيام الثاني، لم نجد تلك الإشارات حتى يوحانان بن الياشيب، مما يقطـع بوجود سفر أخبار أيام ثالث هو المقصود بتلك الإشارة، وهو غير موجود بالعهد القديم، مما يشير الى ضياعه بدوره).

وتأسيسـاً على ذلـك يمكن القـول أن هنـاك ستة عشر أو سبعة عشر كتاباً قد ضاعت في العهـد القـديم، وربـما يصل الرقم الى عشرين اذا أخذنا بإشارات الى ثلاثـة كتب مفقـودة تنسب الى الملك سليـمان، هذا عدا ماضـاع ولم تشر اليه أسفار العهـد القـديم، ولم نعلم بأمـره، وكـان ضيـاع تلك الأسفـار وغـيرها أمراً محتوماً، اقتضتـه ظروف المنطقـة والحـروب التي خاضها الاسرائيليون، والتي تعرض أثناءها هيكلهم للتـدمـير والتلف أكثر من مرة، هـذا إضـافـة للمدة الطويلة التي تطلبها تدوين ذلـك المقـدس الهـائـل، والتي امتدت حوالي ألف عام، وكان هذا بحد ذاته مدعـاة لنقص شديـد تعـرض له ذلـك الكتاب، والذي يلقي بظله على أي بحث ديني أو تاريخي فيـه، ناهيـك عن خضوع الأسفار لمؤثرات مختلفة وعديدة باختلاف الأزمان والأحداث التي عملت فيها حذفاً أو زيادة، حتى أنك تجد اليوم نزاعاً داخل المؤسسات اللاهوتية ذاتها، حول مدى أصالة سفري الجامعة ونشيد الإنشاد، وهل هما مقدسين يهوديين، أم دخيلين من ديانات أخرى.

تدوين العهد القديم وترجمته

انتهى التطور الأخير لأعمال مدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية حول الكتاب المقدس (١٨٤٤ ـ ١٩١٨)، الى الكشف عن وثائق أربعة مختلفة يتكون منها المقدس اليهودي التوراتي (العهد القديم)، هي على الترتيب:

١ ـ مصدر يهوي: Jahwist ويرمز له اختصارا بالرمز (J) وقد أخذت التسمية من اسم الإله يهوه Jahoua. لأنه الاسم الإلهي الغالب على الاستعمال في هذا المصدر، ويرجع تأليفه الى حوالي عام ٨٥٠ق.م في مملكة يهوذا، أي المملكة الجنوبية، وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذي أعطاه الله للبطاركة من ابراهيم الى موسى، وإن كان يحق لنا أن نرى ذلك التركيز في هذا المصدر، محاولة لإضفاء الشرعية التاريخية والدينية، على الإئتلاف الذي أنشأه داود، بوضعه هو وأسلافه في خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الله، يمتد شرعاً الى العهد مع ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى، ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً، وهي الوحدة التي لم تتحقق إلا بعد خروج قبائل راحيل الاسرائيلية من مصر، بقصد وضع أساس قومي تاريخي متين للدولة التي وحدت القبائل، حتى يصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية عبر الأنساب الى زمن الخلق الأول.

٢ ـ مصدر إلوهيمي: Elohist. ويرمز له اختصاراً بالرمز (E) نسبة الى الاسم الإلهي الغالب في ذلك المصدر وهو (إيل EL) أي الإله، وإللوهيم أي الآلهة، ويرجع زمن تأليفه الى حوالي ٧٧٠ق.م، ويرجح انه قد تم تأليفه في المملكة الشمالية اسرائيل، ثم تم بعد ذلك إدماج المصدرين اليهوي (J) والإلوهيمي (E) في مجموعة واحدة يرمز اليها بالرمز (EJ) وذلك حوالي عام ٦٥٠ق.م وقد عني هذا المصدر، باستكمال النقص الذي حدث في المصدرين اليهوي والكهنوتي.

٣ ـ سفر التثنية. (Deuternomy) ويرمز له اختصاراً بالرمز (D) ويعني بالإغريقية (القانون الثاني)، ويعد مصدراً منفصلاً، تم تأليفه خلال القرن السابع قبل

الميلاد، وتزعم الرواية التوراتية أنه كان مخفياً في مكان أو فجوة بجدران المعبد، وتم الكشف عنـه عام ٦٢٢ق. م أثنـاء حكم الملك اليهودي (يوشيا) Josias. عند ترميم معبد اورشليم (ملوك ثاني ٢٢ : ٣ ـ ١٠) و(٢٢ : ٣ ـ ٢٥)، حيث عثر المرمون في وجـود كبـير الكهنـة (حلقيا) على كتاب الشريعة وأحضروه للملك، فترك فيه أثراً عظيماً، حتى قام بموجبه يحرم كل الطقوس المتخلفة عن الوثنية، وقصر العبادة على معبد يهوه في أورشليم وحده، لكن الملاحظ هو تعرض ذلك المصدر لكثير من الحشو والاضافات من عناصر ثقافيـة لاعلاقة لها بالبيئـة الصحراوية البدوية، وواضح أن كاتبهـا ينتمي لثقـافـة دولـة متـماسكـة يحكمهـا ملك، ويعني هذا السفـر بالاضافة للشريعة، بوضع تشاريع الحرب وماجاء من أوامر إلهية بشأنها.

٤ ـ **المصـدر الكهنـوتي**: Priestly ويـرمـز له اختصـاراً بالحـرف (P) وهـو تجميـع كهنوتي يرجع الى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعـود للتركيـز على العهـد مع نوح وابـراهيم ومـوسى وداود، ويقوم جوهـره على وجـوب اخـلاص اليهـود للعهد حتى يستحقوا الخلاص والوفاء بالعهد، وذلك عن طريق التـزامهم شريعتهم بدقـة، وشـريطـة ان يتمسكـوا بلحظتـين تاريخيتـين جوهريتين: لحظة العهد القديم مع الله الذي أخذوا فيه الأرض مقابل الختان، أما اللحظـة الأهم والأخطـر فهي لحظـة الانقـاذ بكـبرى المعجـزات (فلق البحر) عند الخروج من مصر، لذلك يكاد العزف على معجزة البحر عند اليهود، يشكل ترنيمة دائمـة، وركنـاً أسـاسيـاً في الاعتقـاد، ويرجع زمن ذلك المصدر الى عهد (عزرا)، وقد تم ادمـاج هذا المصـدر مع المصـدر اليهـوي والمصـدر الالوهيمي حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وانتهت المـدرسـة الألمـانيـة، الى انـه قد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحـد، هو العهـد القـديم، حوالي عام ٢٠٠ ق. م، أمـا الأسفار المتأخرة مثل سفر المكـابيـين الأول والثـاني (في النسخـة السبعينيـة اليـونانية)، فقد تم تحريرها خلال القرن الأول قبل الميلاد، إلا أن مدرسة (فلهاوزن) قامت بعمل جريء حقاً عندما عكست الـترتيب الـلاهـوتي التقليدي القديم لتأليف الأسفار، بناء على ماأصبح بيـدهـا من نتـائج، وبحيث أصبح الترتيب يعاد على النحو التالي: أسفار الأنبياء،

فالأسفار التاريخية، ثم أسفار موسى الخمسة مضافاً إليها سفر يشوع لتشكل التوراة من ستة أسفار بدلاً من خمسة، ثم أضيفت إليها الأسفار بترتيب منهجي حسب مادتها، وليس حسب الترتيب الزمني لتأليفها.

أما عن الطرق والوسائل والأدوات التي استخدمها مؤلفو التوراة في التدوين، فهي مايمكن استخراجه من الكتاب المقدس ذاته، فنجد سفر إرميا (٣٦ : ٢) يحدثنا عن تدوين الأدراج، بمعنى اللفائف، وتكتب من اليمين الى اليسار، وقد أكدت ذلك الأسلوب في الكتابة أسفار عدة، مثل سفر حزقيال (٢ : ٩، ٣ : ١) وسفر زكريا (٥ : ١، ٢) وسفر المزامير (٤٠ ـ ٨)، أما الأدلة التي استخدمت في الكتابة على اللفائف، فكانت أحياناً قلم الاردواز كما يذكر المزمور (٤٥ : ٢)، أو باستخدام الأحبار كما في سفر إرميا (٣٦ : ١٨).

ويبدو أن تلك الأدراج قد بدأت بأوراق البردي المصرية، ثم تطورت الى الكتابة على الرق (الجلود)، وظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف حتى جاء القرن الثالث قبل الميلاد حيث بدأت تأخذ شكل الكتب، مع الاستمرار في العمل بنظام اللفائف، وهو نظام لازال معمولاً به حتى اليوم في الأشكال الطقسية التي تمارس في المعابد من باب تحنيط التاريخ، ونجد ذلك مستعملاً خاصة في أسفار التوراة وسفر إستير بشكل محدد.

إلا أن أول أسلوب اتبعه الاسرائيليون في التدوين، وإن كان غير موجود منه الآن أي أثر يشير إليه، أولم يعثر على شيء منه حتى تاريخه، فهو أسلوب النقش المصري القديم على المسلات، وكان أول من اتبعه النبي موسى، واستخدمه في كتابة ألواح الشريعة الحجرية، والمزعوم أنها نقرت على الحجر أو نقشت بيد الإله نفسه، ووردت قصتها في عدد من الإصحاحات المتفرقة في سفر الخروج، التي جمعناها ورتبناها حسب ترتيب ورودها كالتالي:

ـ وقال الرب لموسى: اصعد الى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحي حجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم.. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد الى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة ـ خروج ٢٤ : ١٢، ١٣، ١٨.

ـ ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء، لوحي شريعة مكتوبين بإصبع الله ـ خروج ٣١ : ١٨.

ـ فانصرف موسى ونزل من الجبل، ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيها، من هنا وهناك كانا مكتوبين، واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله، منقوشة على اللوحين .. وكان عند اقترابه من المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ـ خروج ٣٢ : ١٥، ١٦، ١٩.

ـ ثم قال الرب لموسى: أنحت لك لوحين حجر مثل الأولين، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين، اللذين كسرتهما .. فنحت لوحين من حجر كالأولين، وبكر موسى في الصباح، وصعد الى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ من يديه لوحي الحجر ـ خروج ٣٤ : ١، ٤.

(وقد جاء في الأثر الإسلامي: إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده[1]، كما جاء في الآيات الكريمة: **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة** ـ ١٤٤ ـ الأعراف).

هذا إضافة الى أسفار الشريعة، التي أمر موسى أتباعه بكتابتها، وبذات الطريقة، وهو مايتضح في قوله لهم: «يوم تعبرون الأردن الى الأرض التي يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك حجارة كبيرة، تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس .. حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة، التي أنا أوصيكم بها اليوم، في جبل عيبال، وتكلسها بالكلس .. وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس، نقشاً جيداً ـ تثنية ٢٧ : ٢، ٤، ٨».

أما اللغة التي دونت بها الأسفار، فهي كما جاء على غلاف العقد القديم من الكتاب المقدس: العبرانية والكلدانية، والعبرانية كما يقرر المقدس التوراتي هي لغة أولسان أو شفة كنعان الفلسطينية (إشعيا ١٩ : ١٨)، وإن كان من المفيد العلم

---

(١): الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١، ج ١، ص٢١١ (المذكور نص حديث شريف).

أن بعض الأجـزاء قد كتبت باللغـة الأرامية، وأجـزاء أخـرى كتبت بالخـط المربع (الأشـوري) بعـد السبي البـابلي، وقد استخدم تلك اللغة (عزرا) صاحب معظم أجزاء العهد القديم.

أمـا المنطق التـاريخي، فيفـترض أن بدء الكتـابـة، بل وربـما اللغـة، التي استخدمها الخارجون من مصر بقيادة موسى، هي اللغة المصرية، خاصة اذا كانت الأدوات والأسلوب مصريين، وهو مايجعل المدونات العبرية أمراً متأخراً حدث بعد موسى بزمان، وهو ماسبق وأثبتناه في الصفحات السابقة، كما يستحسن الفرض أن الاسـرائيليـين ـ وقـد قضـوا في مصـر مايـزيـد على أربعـة قرون ـ قد تكلموا اللغة المصـريـة القـديمـة، شأنهم شأن بقيـة الأقـوام التي دخلت مصر، هذا ناهيك عن موسى في مصر، و نشأته نشأة مصرية، وشهادة المقدس له بأنه تثقف ثقافة مصرية وأنه كان متفقهاً بكل حكمة المصريين.

بل وربـما ذهب الافـتراض حد القـول ان لغة التخاطب بين موسى وربه في سينـاء، كانت اللغـة المصـريـة القديمة وليست العبرية، التي لم يكن موسى يعرفها أصلاً، حيث مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان التي عرفت فيما بعد بالعبرية[٢]، هذا ناهيك عن كون لفظة توراة ذاتها من الألفاظ المصرية، ومعنى تورا Torah في العبرية (الشريعة) من Tororh (توروث)[٣]، وهي ترتبط ـ في رأينا ـ بعبادة الثور المقدس في المصرية القديمة[٤].

أمـا ترجمـة ذلـك الأثـر الهائل عن لغته الأصلية، فمعلوم أن الترجمة العربية المتـداولـة الآن، قد تمت عام ١٨٦٥م، أما الترجمة الانجليزية فقد تمت في عهد الملك

---

(٢): ذهب هذا المذهب الدكتور فؤاد حسنين علي، ولكنه لم يقدم عليه أية دلائل، حتى أنه سمى كتابه (التوراة الهيروغليفية)، والتي كانت عرضاً للعهد القديم كما نعرفه، ولاعلاقة له بأية هيروغليفية.

(٣): جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج ٦، ص١١١.

(٤): انظر كتابنا: قصة الخلق أو منابع سفر التكوين.

جيمس عام ١٦١١م، وكلا الترجمتين تمت عن الأصل العبري المعروف بالنص المازوري، الذي سبق تدوينه في القرن العاشر الميلادي، أي بعد ثلاثة قرون من تدوين القرآن الكريم.

ومن المفيد العلم أن النص المازوري قبل القرن العاشر كان غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق أو فيما بين الحروف الساكنة، وعند تدوين النص المازوري (المفترض أنه كان نصاً قديماً) تم اقتباس حركات النظام البابلي للحركات.

وهناك نص آخر باللغة اليونانية القديمة، يعرف بالنص السبعيني Version De Septante وقد تمت كتابته حوالي سنة ٢٨٣ قبل الميلاد، على يد اثنين وسبعين فقيهاً يهودياً مصرياً، بأمر ملك مصر آنذاك (بطليموس فلادفيوس)، وتزيد هذه النسخة عن النص المازورني أربعة عشر سفراً، وهي بالطبع غير موجودة بالنسخة العربية لأنها ترجمت عن النص المازوري، كما أنها غير الأسفار المفقودة التي أشرنا إليها آنفاً، وتلك الأسفار هي:

- سفر طوبيا Tobie وهو وصف لسيرة أسير إسرائيلي، في الأسر الآشوري بمدينة نينوى، في القرن السابع قبل الميلاد.
- سفر الحكمة لسليمان Salomon ويشمل أمثلة حكيمة وعظات ضد الوثنية.
- أسفار المكابيين Maccabees وعددها أربعة أسفار، تتحدث عن المكابيين الذين حكموا فلسطين حكماً وطنياً في عهد الرومان، في القرن الثاني قبل الميلاد وجاء اسمهم في الشعار الذي كانوا يتنادون به في الحروب وهو (مي كاموخا بجييم يهوفا)، أي (من مثلك بين الأمم يايهوه). فأخذ من كل كلمة حرف (م كا ب ي) شكلت الإسم (مكابي).
- سفر يهوديت Judith وهو قصة أرملة يهودية غنية وتقية، ساعدت اليهود في الانتصار على الجيش الآشوري،.
- سفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراح، وهو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان.
- سفر تسبيحة الفتية الثلاثة وهي تسابيح يقال أن أصدقاء دانيال الثلاثة

رنموها وهم في أتون النار، .

ـ سفر سوزان Suzane أو قصة سوسنة العفيفة، وهو تمجيد من النبي دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

ـ سفـر بعـل والتنـين، وهو قصة تم إلحاقها بسفر دانيال تشرح كيف تم إقناع قورش ملك فارس بنبذ عبادة الأصنام.

هذا إضـافـة الى ثلاثـة أسفـار منسوبة الى عزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصـل المـازوري في أسفـار (إستير) و(دانيال)، والمعلوم أن الكنيسة لم تتخل عن النص اليوناني السبعيني، الى النص الصبري المازوري، إلا بعد القرن العاشر الميلادي، حيث أصبح النص المازوري هو النسخة المعتمدة للعهد القديم، ورغم ذلـك مازالت الكنيسـة الارثـوذكسيـة اليـونانية، والكنيسة الروسية، وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعيني اليوناني.

الخرافة في العهد القديم

سبق وأشرنا في بحوثنا المنشورة من المصداقية التاريخية في النص التوراتي، والمصداقية هنا لاتعني أمراً لاهوتياً أوعلاقة ما بالغيبيات، قدر ماتعني مدى مطابقة النص لوقائع وأحداث أثبتتها نصوص تاريخية أركيولوجية، أي مصداقية موضوعية بحتة، وتلك الإشارة واجبة تماما وهامة، لكن على الحذر في احتساب نص بعينه صادقاً لمجرد مطابقة بعض أحداثه مع أحداث تاريخية واقعية، بل يجب القول أنه قد دخله حشو وإضافات ومتراكمات وزيادات خرجت به عن معنى المصداقية الحقة، وأن هناك فقط ظل من حقيقة، بل وظل باهت، ونموذجاً لذلك، أسماء المدن والمواضع وأخبار المعارك والحروب، وسير الأنبياء والملوك، لأنه من المستحيل علمياً أن نتغاضى عن آلاف اسماء للمواضع الجغرافية التي وردت بالعهد القديم، لمجرد أنها وضعت في سياق من الخرافة الواضحة، خاصة اذا علمنا أن هناك ـ كمثال ـ مواضع عديدة وكثيفة مرت بها رحلة الخروج من مصر الى فلسطين، ومن العبث أن تكون كل تلك أسماء لهذه المواضع قد ذكرت عبثاً، أما الأهم حقاً، فهوماجاء في روايات تثبت معرفة مدهشة لدى الكاتب التوراتي بشؤون تاريخية قديمة كانت مخفية عنا، ولم نعلم بأمرها إلا بعد كشف المناطق الآثارية القديمة في حضارات المنطقة، وفك رموز لغات تلك الحضارات، كمعرفة العهد القديم العجيبة، لأسماء مدن مصرية، أهال عليها الزمان النسيان، بعد أن أهالت عليها الرياح تلول الرمال، ولم نكشف عنها ونعرفها إلا حديثاً، كذلك أسماء بعض الفراعنة مثل (شيشنق) و(نخاو)، أومثل اسم زوجة النبي يوسف المصرية (إسنات بنت فوطي ـ فا ـ رع، كاهن مدينة أون)، وهو ماجاء ذكره في سفر التكوين (٤١ : ٤٥)، ولم نعلم إلا حديثاً باسم (رع) إله الشمس المصري، كما لم نعرف ماهي (أون) إلا بعد فك الطلاسم القديمة التي كشفت أن مدينة عين شمس الحالية كانت حاضرة عظيمة باسم (أون)، أوماجاء عن مدينة (رعمسيس) في سفر التكوين (٤٧ : ١١)، وهي المدينة التي لم نعثر عليها حتى الآن، لكننا وجدنا بشأنها برديات تتحدث عنها وتصف

معالمها بكل دقة، إضافة لنشيد مديح مدينة (رعمسيس) المنسوب للشاعر (بنتأور)، ناهيك بالطبع عن الإسم (رعمسيس) ذاته كدلالة تامة الصدق والمطابقة، لاسم الفرعون (رعمسيس) بنطقه المصري القديم، قبل تحريفه الى (رمسيس) بإهمال حرف الـ(ع).

أضف الى ذلك حديث التوراة عن مركبات فرعون (تك ٤١ : ٤٣ مثلاً)، أو معرفة التوراة أن المصريين كانوا يعتبرون الرعاة رمزاً للشر وأنجاساً ملاعين، كما في سفر التكوين (٤٦ : ٣٤) و(٤٣ : ٣٢)، مع معرفة دقيقة بالاسلوب المصري في التعامل مع الموتى وطقوس التحنيط والدفن، وهو ماذكرته التوراةعن دفن يعقوب في مصر، وأنه تم تحنيطه خلال أربعين يوماً، ثم البكاء والندب عليه سبعين يوماً (سفر التكوين ٥٠ : ١ ـ ٣)، وهو طقس لم نكن أبداً على علم به قبل فك أسرار المصريات القديمة.

وكثير مما يتعلق بشؤون مصر القديمة أثبتت التوراة معرفة دقيقة به، مثل قصة سقط البردي (خروج ٢ : ٣)، وأسلوب البناء بالطوب اللبن، الذي يؤخذ من طمي النيل ثم يخلط بالتبن ويجفف، وذكره سفر الخروج (٥ : ٦ ـ ١٧)، كذلك معرفة الكتابة بالحفر على المسلات كما جاء في سفر الخروج (٢٤ : ١٢ ـ ١٣) و(٣١ : ١٨)، أومعرفتهم بصفات التابوت المقدس بدقة مدهشة تكاد تطابق التوابيت المصرية الملكية، وهو ماجاء ذكره في سفر الخروج (٣٥ : ١٠) مع إفراد إصحاحات كاملة بذات السفر لمواصفات ذلك التابوت، أو عبادة عجل أبيس في سيناء (خروج ٣٢ : ١ ـ ١٩)، أو مركبات الشمس التي ورد ذكرها في سفر ملوك ثاني (٢٣ : ١١) وهي من أحدث الكشوف الحالية في المصريات القديمة.

لكن ذلك كله أمر، والتعامل مع النص بكامله كنص صادق تاريخياً أمر آخر، لأن التناقضات التي ينطوي عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لايقل حجماً عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها في مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التي ترويها، كوقائع حدثت في القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففي التو مبالغات لايمكن قبولها إطلاقاً، وهي أقرب الى الأسطورة منها الى التاريخ

الصادق.

وسنحاول هنا ضرب بعض الأمثلة التي تدخل روايات التوراة في عداد الخرافات البسيطة، والمركبة، فسفر القضاة مثلاً يحدثنا كيف قتل (شمشون) ألف فلسطيني بفك حمار (سفر القضاة ١٥ : ١٦)، وهناك روايات تحتوي على أرقام خيالية الى حد بعيد، كما في تقرير سفر الملوك الأول «فضرب بنو اسرائيل من الأرميين مائة ألف رجل في يوم واحد ـ ٢٠ : ٢٩)، والحديث هنا عن حرب دارت بين (أخاب) ملك اسرائيل، وبين (بنحدد) ملك دمشق، حوالي عام ٨٦٠ ق. م، ومثل ذلك الحديث ليس فقط عسير التصديق، بل هو كذب فاضح، لأن مملكة دمشق بكاملها لم تكن تحتوي على مائة ألف رجل يمكن قتلهم في يوم واحد، بل وربما لم يبلغ سكانها جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً هذا الرقم العظيم.

وفي تلك الخرافات مايعد لوناً من الأساطير المشروعة ايماناً، ولازالت موضع تصديق وايمان في اليهودية والمسيحية، بل وفي الإسلام مع بعض التعديل، مثل قصة وجود آدم في الجنة وأكله من الثمرة المحرمة، وحديث حواء مع الحية التي تتكلم:[1]

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لاتأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لاتأكلا منه وتمساه، لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر ـ تكوين ٣: ١ ـ ٥.

ومن قبيل تلك المصدقات الإيمانية، المبالغة الهائلة في أعمار الرعيل الأول من البشرية:

ـ فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ـ تكوين ٥ : ٥.
ـ فكانت كل أيام شيث تسع مئة سنة واثني عشرة سنة ومات ـ تكوين ٥ : ٨.

---

(١): للمزيد انظر كتابنا: الأسطورة والتراث، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.

- فكانت كل أيام آنوش تسع مئة وخمسين سنة ومات - تكوين ٥ : ١١ .
- فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات - تكوين ٥ : ١٤ .
- فكانت كل أيام مهلائيل ثماني مئة وخمسمائة وتسعين سنة ومات - تكوين ٥ : ١٧ .
- فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة ومات - تكوين ٥ : ٢٠ .
- فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة ومات - تكوين ٥ : ٢٣ .
- فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعاً وستين سنة ومات - تكوين ٥ : ٢٧ .
- فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة ومات - تكوين ٥ : ٣١ .
- فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات - تكوين ٩ : ٢٩ .

ثم هنـاك أحـاديث أخـرى عن إنجاب الله لأبناء تزوجوا من آدميات فأنجبوا جيلاً من الجبابرة، وهو ماجاء نصاً:

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنـات النـاس أنهن حسـان، فاتخـذوا لأنفسهن نسـاء من كل مااختاروا، فقال الـرب لايـدين روحي في الإنسـان الى الأبـد لزيغـانـه، هوبشـر وتكـون أيامه مئة وعشـرين سنـة، وكـان في الأرض طغـاة في تلك الأيام، وبعد ذلك إذ دخل بنو الله على بنـات النـاس وولـدن لهم أولاداً، هؤلاء الجبـابـرة الـذين منذ أبد الدهر ذوو اسم - تكوين ٦ : ١ - ٤ .[٢].

ومن باب تمجيد الآباء الأولين للقبيلة الاسرائيلية، نجد قصة تقول أن عدداً من الملوك العظـام (إمـرافل ملـك شنعـار، وإريوك ملك ألاسار، وكدر لعومر ملك عيـلام، وتـدعـال ملك جوييم) قد تحالفـوا في حرب ضد مجمـوعة ملوك لدويلات أخـرى في المنطقـة هم (بـارع ملك سدوم، وبـرشـاع ملك عمورة، وشنئاب ملك أدمـة، وشمئيـبر ملك صبوييم، وملك بالع التي هي صوغر)، وتمت هزيمة الحلف الثـاني، وكـان بين أسـرى المهزومين (لوط) ابن أخي (ابراهيم)، وهنا تقول القصة

---

(٢): وضعنا تفسيراً بقراءة علمية لتلك الأسطورة مرتبطة بظرفها الموضوعي في كتابنا: النبي ابراهيم والتاريخ المجمهول، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠ .

ببساطة أن النبي ابراهيم أخذ ثلاثمائة رجل من أتباعه وهزم حلف الدول الكبرى أو كما جاء في النص:

فلما سمع ابرام أن أخاه سبي، جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته، ثلث مئة وثمانية عشر، وتبعهم الى دان، وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم، وتبعهم الى حوبه التي عن شمال دمشق، واسترجع كل الأملاك، واسترجع لوطاً أخاه أيضاً، وأملاكه، والنساء أيضاً، والشعب ـ تكوين ١٤: ١٣ ـ ١٦.

هذا ناهيك عن ظهور الإله (بهيئة تشبه ماتحدثنا به الأساطير عن الجن) للبطاركة الأوائل، وحديثه معهم، وصراعه مع يعقوب، أو مثلما جاء في قصة لقائه بموسى وأتباعه وهو في هيئة أقرب الى التماثيل:

ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو، وسبعون من شيوخ اسرائيل، ورأوا إله اسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده الى أشراف بني اسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا وشربوا ـ خروج ٢٤: ٩ ـ ١١.

وغير ذلك كثير وكثيف، نشير اليه في عجالة، مثل: العصا الحية (خروج ٤: ١ ـ ٥)، وضرب يهوه للمصريين بضربات أسطورية (خروج ٧)، أو فلق البحر (خروج ١٤)، وانشقاق نهر الأردن (يشوع ٣: ١٦، ١٧)، وسقوط مدينة أريحا بمجرد أن صرخ عليها الاسرائيليون مع طبول وزمور وأبواق (يشوع ٦)، وإيقاف يشوع للشمس والقمر حتى ينتهي من القضاء على أعدائه (يشوع ١٠: ١٢ ـ ٤)، وعكاز الملاك الذي يحرق اللحم (قضاء ٦: ٢١)، وتحضير الأرواح (صموئيل ٢٨: ١١ ـ ٢٠)، ومعجزات شمشون في سفر القضاة (١٤: ٤)، (١٤: ٥)، (١٥: ١٥)، (١٦: ٣٠)، واحياء النبي ايليا للطفل الميت (ملوك أول ١٧: ٢١، ٢٢)، والأمر الذي أصدره إيليا بهبوط نار من السماء تأكل جنود الأعداء (ملوك ثاني ١: ١٠ ـ ١٢)، ثم صعوده الى السماء (ملوك ثاني ٢: ١، ١١)، وقيام رداء ايليا بعد ذلك بدور عصا موسى في فلق الماء (ملوك ثاني ٢: ٨، ١٤)، أو حروب الله مع التنين لويثان (اشعيا ٢٧: ١).

وعليـه ، فإن النص التـوراتي من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية ، لكنـه كأي وثيقـة أسطـورية أخرى ، وحسب منهجنا الذي اتبعناه في أعمالنا ، يمكن أن يقـدم لنـا ـ اذا تعـاملنـا معـه علميـاً ـ مادة تاريخيـة نادرة لم تسعفنـا بها الكشوف الاركيلولوجية ، وأن يضيء لنا مساحات مظلمة من التاريخ لم يكشف عنها البحث الآثـاري بعـد ، ولكن وفق أصـول وقـواعـد ومنهج صارم ، وهو ماسبق وأن قدمنا له نماذج في أعـمالنـا المنشـورة ، لكن في نفس الـوقت ، يمكن لبـاحث مغرض أن يقرأه قراءة أخـرى ، بأغـراض بعينها ، وفق أيديولوجيا خاصة ، فينطق بأمور أبعد ماتكون عن الصـدق والمـوضـوعية والعلمية ، وهو ماسنجد له نموذجاً مثالياً في الباب الثالث من هذا الكتاب .

الانبياء في العهد القديم

من الجديـر بالـذكر هنا، منعاً للالتباس، أن الآباء الأوائل أو البطاركة، من ابـراهيم الى موسى في التـوراة، لايحتسبـون أنبيـاء بالمعنى المفهـوم والسـائـد وفق الطـروحـات الاسـلاميـة، وتبـدأ النبوات فقط من العهد القديم بموسى، أما عن ابراهيم واسحق ويعقوب. . الخ، فهم مجرد أسلاف يجب الاعتزاز بهم وبسيرتهم، رغم علاقتهم بالإلـه، ورغم أنهم أصحــاب الــوعـد، فهم ليسـوا أنبيـاء بالمعنى المفهوم، لأن النبوة في الفهم التوراتي هي التنبؤ، والقدرة على قراءة المغيبات، هذا بالطبـع مع أمـور أخـرى تفصيليـة تضـع هؤلاء البطـاركـة الأوائـل على المستوى الأخلاقي، في صف الأفراد العاديين، الذين يمكن أن يرتكبوا أموراً يمجها الذوق المبني على الفهم الاسلامي لمعنى النبوة، فالنبي ابراهيم مثلاً يتاجر بشرف زوجته سارة في مصر، وفي جرار الفلسطينية، للحصول على الأموال، ويتم سرد ذلك دون أي تحرج (تكـوين ١٢ : ١١ ـ ٢٠) و(تكـوين ٢٠ : ١ ـ ٧، ١٤)[1]، وهـو الأمـر الذي يكرره بعد ذلك ابنه اسحق في جرار كما ورد في سفر التكوين (٢٦ : ٧ ـ ١٠).

وفي قصة هلاك سدوم وعمورة، ينجو لوط مع ابنتيه الوحيدتين، ويسكن في مدينة (صوغر)، لكنه لسبب غير مفهوم يتركها الى الصحراء وتحكي الرواية بعد ذلك:

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغـر (؟!)، فسكن في المغـارة هووابنتـاه، وقـالت البكـر للصغـيرة: أبـونـا قد شاخ وليس في الأرض رجـل ليـدخـل علينـا كعـادة كل الأرض، هلم نسقي أبـانـا خمراً ونضطجـع معـه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت

---

(١) فصلنا الحديث في هذا الأمر في كتابنا النبي ابراهيم والتاريخ المجهول.

البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولابقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولابقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه مواب، وهو أبو الموآبيين الى اليوم، والصغيرة ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي، وهو أبو بني عمون الى اليوم ـ تكوين ١٩: ٣٠ ـ ٣٨.

وعليه فلن تصيبنا الدهشة ان وجدنا (يعقوب) ابن (اسحق) الأصغر يحتال على أبيه ليسرق ميراث أخيه الأكبر (عيسو) (تكوين ٢٧)، أوحين نجد (راحيل) زوجة (يعقوب) تغادر بيت أبيها مع زوجها فتسرق الأصنام من أبيها عشقاً في عبادتها (تكوين ٣١: ١٩)، كما لن ندهش اذا وجدنا الأسباط المكرمين يلقون بأخيهم الأصغر (يوسف) في بئر للتخلص منه (تكوين ٣٧: ١٨ ـ ٣٦)، ولا أن يتزوج (عمران) من عمته يوكابد (خروج ٦: ٢٠)، ولا أن يوعز الرب لموسى بسرقة ذهب المصريات (خروج ٣: ٢١، ٢٢) و (خروج ١٢: ٣٥، ٣٦)، وربما لانسعق إذا ماعلمنا أن الرب قرر موت موسى وهارون لأنهما قاما بخيانته (التثنية ٣٢: ٣٨ ـ ٥٠)، أوأن يتم اختيار (شاؤ ول) كأول ملك لاسرائيل، لاالميزة فيه سوى طوله وجماله (صموئيل الأول ٩: ٢، ١٠: ٢٣) أواختيار (داود) لأنه كان أشقراً وحلو المنظر (صموئيل الأول ١٦: ١٢، ١٧: ٤٢)، ومن ثم فلا يجب أن ننزعج اذا أوعز لنا ذلك المقدس، بأمر علاقة شاذة تقوم بين (داود) وبين الصبي يوناثان بن شاول (صموئيل الثاني ١: ٢٦)، أوأن يبدأ (داود) حياته مطبلاً للزار لإخراج العفاريت التي ركبت (شاول) كما في (صموئيل أول ١٦: ٢٣)، وربما يجب أن نقبل المبررات التي قدمها المقدس، والتي تم فيها تبخيس (نابال) وتصويره خسيساً، حتى يسوغ لداود أخذ امرأته وهوماجاء في سفر صموئيل الأول (٢٥) ولظرافته يمكن سرد نصه القائل:

واسم الرجل نابال، واسم امرأته أبيجايل، وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة

الصـورة، وأمـا الـرجل فكان قاسياً ورديء الأعمال. . وبعد نحو عشرة أيام ضرب الـرب نابـال فمات. . وأرسل داود وتكلم مع أبيجايل ليتخذها له امرأة. . وصارت له امرأة.

ومثـل تلك القصـة نموذج آخر بطله (داود) أيضاً، وهي بدورها قصة غرامية انتهت باستيـلائـه على زوجـة أخلص ضباطه أوريا الحثي (وكان يعمل تحت قيادة يوآب) بعد أن ضاجعها في غياب زوجها للدفاع عن حدود الدولة، وهي كما وردت نصياً:

وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطـح امـرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام، امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت اليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت الى بيتهـا، وحبلت المـرأة فأرسلت وأخـبرت داود وقـالت: إني حبلى، فأرسـل داود الى يوآب يقـول: ارسـل إليّ أوريـا الحثي، فأرسـل يوآب اوريـا الى داود، فأتى أوريا اليه فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقـال داود لاوريـا انـزل الى بيت واغسـل رجليـك،فخرج اوريا من بيت الملك وخـرجت وراءه حصـة من عنـد الملك، ونـام اوريـا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل الى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل اوريا الى بيته، فقال داود لاوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل الى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التـابـوت واسـرائيـل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجـه الصحـراء، وأنا آتي لبيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحيـاة نفسـك لاأفعـل هذا الأمـر، فقـال داود لأوريـا: أقم هنـا اليوم أيضاً وغداً أطلقـك، فأقـام أوريـا في أورشليم في ذلـك اليوم وغده. . وفي الصباح كتب داود مكتوباً الى يوآب وأرسله بيد اوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحـرب الشـديـدة، وارجعـوا من وراءه، فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المـدينـة أنـه جعـل أوريـا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المـدينـة وحـاربـوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي

أيضاً . . فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابناً ـ سفر صموئيل الثاني ١١.

وأعمالاً لكل ذلك فلا يصح أن تأخذنا الدهشة عندما نجد سليمان يقتل أخاه الأكبر صاحب الحق في العرش (ملوك أول ٢ : ٢٥)، ولاعشق سليمان للنساء وعبادته لآلهة أخرى (ملوك أول ١١ : ١ ـ ٨)، ولا عندمانجد أمنون بن داود يعشق أخته ثامارا ويجامعها (صموئيل ثاني ١٣ : ١)، فهذه قصص أسلاف وملوك ومؤامرات قصور ودسائس، أما الأنبياء فلهم في العهد القديم شأن آخر.

والنبييم جمع كلمة (نابي) أو (نبي) العبرية، من (نبا) أي خرج أو ارتفع أو ظهر أو خالف القطيع، وإن كانت بقراءة التوراة العبرية تعني تماماً: الهاذي أو المخبول، وظهر منهم عدد كبير من بني اسرائيل، بعضهم كان قاسياً يقرع أسماع الاسرائيليين بالقول الغليظ، إلا أن الواضح أيضاً في كثرتهم، أنها أصبحت مهنة تدر على محترفها رزقاً طيباً، ومن هنا نلحظ في الأسفار المتأخرة تحفظ المؤلفين وحيطتهم إزاء الأنبياء، كما جاء في سفر حزقيال «فاذا ضل النبي وتكلم كلاماً، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبي، وسأمد يدي عليه وأبيده من وسط شعبي اسرائيل ـ ١٤ : ٩».

وكثرة هؤلاء الأنبياء كانت لاتتناسب مع قلة عدد السكان في البلاد، وهو مايؤخذ من قول سفر ملوك أول: «فجمع ملك اسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة ـ ٢٢ : ٦»، لكنهم على أية حال كان بإمكانهم إشعال الحروب وخلع الملوك وتنصيب من يريدون، وهؤلاء عادة ماكانوا من رجال الدين غير النظاميين، أشبه بمن نعرفهم اليوم بالدراويش، ولم يخضعوا لهيكل من الهياكل، لكنهم كانوا يزعمون تلقي الوحي من الرب بلا واسطة، وأن روح الرب قد تملكتهم فنطقت بلسانهم، وعادة مانجد بعضهم في صف الشعب يدافعون عن قضاياه، ضد المؤسسة الدينية الرسمية وكهانها المسيسين، وقد ظهر سلطانهم ونما منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يأت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحوا من أهم عناصر الجماعة

الاسـرائيليـة، وقام بعضهم بعقد اتصالات مع الدول الخارجية، لـتفويض سلطان الـداخـل المـرفـوض، ويقـول روبنسـون إنه كانت «تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميهـا نحن الـوجـد، تشبـه أعـراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع، ويزعمون أن مرجع ذلك الى أن الشخص قد حل فيه إله.. والعجيب أنها كانت حالة معدية قد تنتقـل من شخص الى آخـر، وقـد نزع الأنبيـاء والـواجـدون الى التجمع وتأليف الفـرق، وتعلمـوا كيف يبتعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير»[1].

ونمـوذجـاً لذلـك ماجـاء في اختيـار الكاهن صموئيل لشاول لمسحه بالزيت المقدس مسيحياً، كأول ملك لبني اسرائيل، فيصفه الاصحاح التاسع (٢) من سفر صمـوئيـل الأول بالصفات «شاول، شاب، وحسن، ولم يكن رجل في بني اسرائيل أحسن منـه، من كتفـه فما فوق كان أطـول من كل الشعب»، لكنه حتى يكون نبياً ملكـاً، «أخـذ صمـوئيل قنينة الدهن، وصب على رأسه، وقبله، وقال: أليس لأن الـرب قد مسحـك على ميراثه رئيساً.. إنك ستصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة، وأمامهم رباب ودف ونادي وعود، وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر ـ صموئيل أول ـ ١٠».

وهـذا (داود) بعـد تنصيبـه ملكـاً، يتمكن من استعـادة تابـوت بني اسرائيل المقدس من الفلسطينيين[2]، «فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة... وداود وكل بيت اسـرائيـل يلعبـون أمـام الرب بكل أنواع الألات من خشب السرو، بالعيدان وبالرباب والدفوف وبالجنوك وبالصنوج.. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب،

---

(١): روبنسـون (تيـودور): اسـرائيـل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص١١٥، ١١٦.

(٢): التابوت في الاعتقاد عبارة عن صندوق بصفات معينة، تم صنعه في سيناء، بأمر النبي موسى، ليرقـد فيـه رب اسـرائيـل، ويحملوه معهم لينصرهم على أعـدائهم، ويكـون دائماً في معيتهم قريباً منهم، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، عن استعادة داود له كدلالة لصحة ملكه بعد شاول، وذلك في قوله تعالى: «إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ـ ٢٤٨ ـ البقرة».

وكـان داود متمنطقـاً بإفـود من كتان، فأصعد داود وجميع بيت اسرائيل تابوت الرب بالهتـاف وبصـوت البـوق، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول (زوجـة داود) من الكـوة، ورأت الملك داود يطفـر ويـرقص أمـام الـرب، فاحتقـرتـه من قلبهـا. فخـرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت: ماكان أكـرم ملك اسـرائيـل اليـوم، حيث تكشف اليوم في أعين إماء عبيده، كما يتكشف أحـد السفهـاء، فقال داود لميكال: إنما أمام الرب الذي اختارني دون أبيك، ودون كل بيته، ليقيمني رئيساً على شعب الرب اسرائيل، فلعبت أمام الرب ـ صموئيل ثاني ـ ٦».

ومن الأنبياء من لم يكن من بني اسرائيل، إنما من أهل المنطقة الذين يدعون الى عبادة الإله البعل الزراعي، وقد ذاع صيت نبي موآب المدعو (بلعام بن بعور)، وجـاء ذكـره في العهـد القـديم كمنـاصـر لبني اسرائيل ضد شعبه، مما يشير الى أن المكافأة التي نالها من الاسرائيليين كانت أعظم.

ومن الطـرائف أن الأنبيـاء الاسـرائيليين كانوا يكذبون بعضهم بعضاً، فهذا ملك المملكـة الجنـوبيـة (يهـوذا) المعـروف باسم (يهـوشافـاط)، يذهب الى ملك المملكـة الشـماليـة (آخـاب) يطلب معـونتـه لشن الحرب على بلاد سورية (آرام)، «فجمـع ملك اسـرائيـل الأنبيـاء نحـو أربـع مئـة رجل وقال لهم: أأذهب الى رامة الجلعـاد للقتـال أم أمتنـع؟ فقـالوا اصعد فيها فيدفعها السيد ليد الملك ـ ملوك أول ٢٢ : ٦»، وتحمس الأنبياء للقتال ومنهم صدقيا «وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرني حديـد وقـال: هكـذا قال الـرب بهذه تنطـح الآراميـين حتى يفنـوا ـ ملوك أول ٢٢ : ١١»، لكن الملك آخـاب أرسـل يستـدعي نبيـاً لم يكن حاضـراً هو (ميخا بن يمله) وسألـه في هذه المشكلة وهـل يذهب لمحـاربـة الآراميـين أم لا؟ فأجـابه ميخا «وقـال: فاسمـع إذن كلام الـرب: قد رأيت الـرب جالسـاً على كرسيـه وكل جند السـماء وقـوف لديـه عن يمينـه وعن يسـاره، فقال الرب: من يغوي آخاب فيصعد ويسقـط في رامـوت الجلعـاد، فقـال: هذا: هكـذا، وقال ذاك: هكذا، ثم أخرج الـروح ووقف أمـام الـرب وقـال: أنـا أغـويه، وقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكـون روح كذب في أفـواه جميـع أنبيائه، فقال: إنك تغويه وتقدر، فاخرج وافعل

هكذا، والآن هوذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، والرب تكلم عليك بشر، فتقدم صدقيا بن كنعنة وضرب ميخا على الفك وقال: من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟ ـ ملوك أول ٢٢ : ١٩ ـ ٢٤».

الآلهة في العهد القديم

معلوم أن بني اسرائيل انتقلوا بين مرحلتين، تمت فيهما عبادة إلهين، واحد باسم إيل، وأحياناً باسم إللوهيم أي الآلهة، والآخر باسم (يهوه)، لكن الأمر في الحقيقة لم يكن مقصوداً على هذين الالهين فقط، فقد عبد بنو اسرائيل العجل المصري أبيس في سيناء، بعد خروجهم من مصر بأسابيع قليلة، أثناء غياب موسى على الجبل المقدس لإحضار لَوْحي الشريعة.

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من ارض مصر لانعلم ماذا أصابه، فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يااسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر - خروج ٣٢: ١ - ٤.

ثم أنهم بعد ذلك عبدوا الإله المدياني بعل فغور، كما في سفر العدد (٢٥ : ١ - ٣) وبدخولهم أرض كنعان حيث عبادة البعول الزراعية، عبدوا بعل وعشتروت، كما في سفر القضاة (٢ : ١١ - ٧)، والقضاة (٣ : ٥ - ٨)، بل ومارسوا طقوس الزنا الجماعي أمام هياكل تلك الآلهة، كما في القضاة (٨ : ٣٣) و(١٠ : ٦)، ثم تحول طقس الزنا الى إله اسرائيل نفسه، فكانوا يمارسون النزو الجماعي في باب خيمة الاجتماع حيث تابوت الرب، وهو ماحدثنا عنه سفر صموئيل الأول (٢ : ٢٢)، بل أن سليمان الملك عبد بدوره عدداً من الآلهة «فذهب سليمان وراء عشتوت إله الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. . بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون - ملوك أول ١١ : ١ - ٨».

أما الملك (يربعام) فقد عاد الى عبادة العجل، «وعمل عجلي ذهب وقال

لهم: هوذا آلهتك ياإسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحد في بيت إيل، وجعل الآخر في دان ـ ملوك أول ١٢ : ٢٨، ٢٩».

كما بنى المرتفعات للزنى وراء الآلهة رحبعام بن سليمان، وهو ماجاء في سفر ملوك أول (١٤ : ٢٣)، كذلك فإن الملك اخاب بن عمري عبد البعل (ملوك أول ١٦ : ٣١ ـ ٣٣)، بل إن أحاز ملك يهوذا، أعاد طقس التضحية بالأبناء لنيران الألهة، فقدم ابنه قرباناً لنيران الإله، كما جاء في سفر ملوك ثاني (١٦ : ٣، ٤)، أما الحية التي صنعها لهم موسى وهم خارجون من مصر، وكان اسمها (نحشان) أي الحنش، فقد ظلت تعبد زمناً طويلاً حتى عهد متأخر (ملوك ثاني ١٨ : ٤)، وقد عبد الملك منسي بدوره البعول وبنى لهم مرتفعات المضاجعة الجماعية، وهو مايؤخذ من (ملوك ثاني ٢١ : ٦٢) وكذلك لعبادة إله جبل توفة المعروف باسم مولك (ملوك ثاني ٢٣ : ١٠)، كما عادت قدسية مراكب الشمس المصرية وظلت قائمة الى عهد متأخر كما في سفر ملوك ثاني (٢٣ : ١١)، واستمر يهورام ملك أورشليم في عمل مرتفعات الزنى في أورشليم كما أخبرنا سفر أخبار الثاني (٢١ : ١١).

وفي الكتاب المقدس سفر كامل، لايمكن تفسيره إلا في ضوء العبادات الجنسية وطقوس الزنى الجماعي، تلك العبادات التي كانت متفشية في العبادات الزراعية بشكل وبائي، من باب حض ارض على الخصب والعطاء، وكان الملك عادة مايقوم داخل الهيكل مع الكاهنة الكبرى بإعطاء اشارة البدء في ممارسة الطقس للجماهير المحتشدة في الخارج، وذلك بقيامه بمجامعة الكاهنة، فتبدأ المعمعة الشبقية حول المعبد دون تمييز، وعادة ماكان يصاحب تلك الممارسة لوناً من الأناشيد الطقسية تسبق الممارسة، وهي أشكال شعرية جنسية تتم تلاوتها لتحفيز المقدرات الجنسية على العمل، وذلك السفر المقصود بالعهد القديم هو المعروف بسفر نشيد الإنشاد الذي لسليمان، الذي لايكن ولايحتشم، بل يقدم النشيد الطقسي دون أي تحرج، ويمكن اقتطاع نماذج من ذلك السفر في شكل حوار يدور بين العشيقين الملكيين يقول:

العاشق ـ ليقبلني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر

لرائحة أدهانك الطيبة أسمك مهراق
لذلك أحبتك العذارى
إجذبني وراءك فنجري
أدخلني الملك الى حجاله
نذكر حبك أكثر من الخمر

العشيقة ـ أنا سوداء وجميلة يابنات أورشليم
كخيام قيدار
كشقق سليمان . .
أخبرني يامن تحبه نفسي :
أين ترعى؟ أين تربض عند الظهيرة؟

العاشق ـ ان لم تعرفي أيتها لجميلة بين النساء فاخرجي على آثار الغنم
وارعي جدائك عند مساكن الرعاة
لقد شبهتك ياحبيبتي بفرس في مركبات فرعون
ماأجمل خديك بسموط . .

العشيقة ـ مادام الملك في مجلسه أفاح ناردين رائحته
صرة المر حبيبي لي
بين ثديي يبيت

العاشق ـ ها أنت جميلة ياحبيبتي ها أنت جميلة
عيناك حمامتان

العشيقة ـ ها أنت جميل ياحبيبي وحلو
وسريرنا أخضر . .
أنا نرجس شارون سوسنة الأودية . .
أدخلني الى بيت الخمر
وعلمه فوقي محبة
أسندوني بأقراص الزبيب
أنعشوني بالتفاح ، فإني مريضة حباً
شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني

أحلفكن يابنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول
ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء

. . . . . .

. . . . . .

في الليل على فراش طلبت من تحبه نفسي
طلبته فما وجدته . .
وجدني الحرس الطائف في المدينة
فقلت: أرأيتم من تحبه نفسي؟
فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي
فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي
وحجرة من حبلت بي

العاشق ـ ها أنت جميلة ياحبيبتي
ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك
شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد
أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل . .
شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو
خدك كفلقة رمانة تحت نقابك
عنقك كبرج داود المبني للأسلحة . .
ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن . .
شفتاك ياعروس تقطران شهداً
تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان

. . . . . .

قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه؟
قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما؟
حبيبي مد يده من الكوة فأنّت أحشائي عليه
قمت لأفتح لحبيبي . .
. . . الخ . . .

الباب الثاني

التاريخ

تأسيس

عادة مايلجأ الباحثون عند تناولهم شأناً من شؤون الجماعة البشرية ، التي بدأنا بالاصطلاح على تسميتها في العنوان بـ (بني اسرائيل) ، الى استخدام أحد اصطلاحات ثلاثة ، هي على الترتيب حسب شيوع الاستخدام : العبرانيين ، اليهود ، الاسرائيليين .

ولتدقيق المصطلح ودلالته ، نجد أن اصطلاح العبريين أو العبرانيين ، يقصد به تمييز تلك الجماعة ، بحيث يشير الاصطلاح اليها كشعب بعينه ، وبحيث تبدو كما لو كانت تتسم بسمات جنسية محددة وبتاريخ مترابط وواضح ، ويرتبط بأرض وموطن بعينه ، له ظروفه البيئية والجغرافية التي تتناغم في النهاية مع السمات التي طبعت ذلك الشعب ، اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، وهو قصد يذهب الى وضع الجماعة الاسرائيلية في وضع يسمح بالإيحاء بدلالات ، تتساوى مع الدلالات التي تفهم من استخدامنا مصطلحات مثل (المصريين ، البابليين ، الكنعانيين ، الحثيين . . الخ . .) .

لكن ؛ بينما نجد اصطلاحات اسمية مثل المصريين أو البابليين ، لامجال للخلط بشأنها ، ويمكن للمؤرخ وللباحث استخدامها باطمئنان ، حيث تشير الى شعب بذاته ، يسكن أرضاً بعينها ، تفاعل مع بيئته خلال مسار تطوري ، انتهى الى وسمه بسمات صريحة المعالم ، يبدو فيها أثر الجدل بين الانسان وبين تاريخه وبيئته وطبيعة أرضه ، وبحيث انتهى ذلك الجدل الى نشوء كيان سياسي له سماته

المميـزة، مما يمكن البـاحث من رسم صورة شبه متكاملة لتاريخ ذلك الشعب، من خلال وثـائق، ومـدونـات، وآثـار، وسجـلات عينيـة، ومعتقدات، وأساطير، مع قراءة ذلك كله مرتبـطاً بالظـرف البيئي والتطور الاجتماعي، الذي يكسب الشعب في النهـايـة نكهته الخاصة، وسماته المميزة، فإن استخدام مصطلح عبر ي، للدلالة على الجماعـة الاسـرائيليـة لايؤدي بحـال الى أي من تلك المعاني، بحيث يسمح بكثير من الخلط والخبط وسـوء الغـرض إن بحسن نيـة أم بقصـد، نظـراً لاتساع المصطلح عن حجم المـدلـول، فلا يطـابقـه، وتتحول معه الجماعة الاسرائيلية الى كتلة رجراجة داخل المصطلح دون ثبات، ويعود ذلك الى عيوب أساسية في تاريخ تلك الجـماعـة البشرية، يجد معها الباحث عسراً شديداً في استخدام تعبير شعب، للدلالة على تلك الجماعة، دون السقوط في خطأ علمي فادح.

كما نجـد عيـوبـاً من لون آخر في نسيج تلك المجموعة البشرية، وفي المراحل التي مرت بها وظروفها، إبان تكونها التاريخي، لاتسمح بإعطاء المدلول الذي يمكن الاطمئنان اليه، كما في حال التعامل مع مصطلح (مصريين) أو (بابليين) على سبيل المثـال، ورغم أن البـاحـث قد يجد أوجهـاً للقصـور في تاريخ أياً من تلك الشعوب، نتيجـة مبـالغـة هنـا، أو اختفـاء للمـدون ـ في حقبـة بعينها ـ هناك، فإن الاستعانة بعمليـات القيـاس والنقـد والمقـارنـة بين النصوص المتعددة، إزاء الحدث الواحد، يمكن الوصول بالمسألة الى الوجه الأقرب الى صدق ماحدث بالفعل، إضافة الى مايمكن القيـام به من مقـارنـات، إزاء الحـدث الواحد، بين نص يتحـدث عنه في مدونـات مصـر، وبـين نص آخـر يتحدث عنه في وثائق الرافدين، لكننا مع الجماعة الاسـرائيليـة لن نجد بين أيدينا مثل تلك المادة الخام الأساسية، لنعمل فيها أدوات البحث، فلا وثـائق، ولاآثـار، ولاسجلات عينية، لاشيء بالمرة سوى وثيقة واحدة هي الكتاب المقدس (العهد القديم).

وحتى نكـون أكثـر دقـة، فإن تعبير (لاشيء بالمرة) لون من المجاز الصادق، فهنـاك بالفعـل إشـارات متأخرة في وثائق متناثرة في أشلاء مبعثرة بين دول المنطقة، لكنهـا لاتصنـع تاريخـاً بحـال، ولاتؤكد في التاريخ الاسرائيلي شيئاً أو تنفيه، أما في المراحل الأقدم والتي تعود الى بداية ذلك التاريخ ولقرون طويلة بعده، حتى ظهور

تلك الاشـارات المبعثـرة، فالأمر معلق بالمقدس وحده، علما أن ذلك التاريخ الذي لاوجود له إلا بالكتاب المقدس، هو عمدة تاريخ اسرائيل، ويمثل أخطر الأحداث التي تقيم جماعة اسرائيل التاريخ كله عليها، ويشمل أهم البنى لمقدسهم وتاريخهم على الإطلاق، ومثالاً لذلك علاقة الجماعة الاسرائيلية بمصر، التي تتمثل في لحظة حاسمـة وفـاصلة وقـاطعة في تاريخهم، وتحكي عبر المقدس عن هبوطهم من كنعان (فلسطين) الى مصر، زمن النبي (يوسف) عليه السلام، وخروجهم منها بعد قرون في عهـد النبي (مـوسى) عليـه السـلام، وسـط أحـداث هائلة سواء في كيفها أو في نتائجها، وماصحب ذلك الهول من هلاك كامل لجيش مصر، أعظم امبراطوريات ذلـك الـزمـان قاطبـة، مع مالحق الـديـار المصرية نفسها من دمار وهلاك بفعل رب اسرائيل (يهوه)، وأسهبت في شرحه الرواية المقدسة، ومع ذلك فإنك لاتجد في وثائق مصر، على كثرة ماكتشف منها حتى الآن، وعلى مافي هذه الكثرة من ذكر لدقائق وتفاصيل صغيرة الشأن، كسجلات وعقود البيع والشراء، أو كأوامر ثانوية للفرعون بنقل موظف أو تابع قليل الشأن، أو جزاءات التقصير في العمل، أو الأمر بالسماح لقبيلة بدويـة بالانتجـاع على الحـدود، للعمـل في مناجم الفير وز وحفائر سيناء . . الـخ . . فإنـك لاتجـد بين كل تلك التـلال الآثارية والشواهد المدونة أية وثائق تشير الى بني اسـرائيـل، أللهم إلا إشارة وحيدة يتيمة، يقول فيها الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رعمسيس الثاني)، ضمن لوح يحكي عن انتصاراته «هلكت اسرائيل ولم يبق لها بذر»[1]، وقد جاءت تلك الإشارة عرضاً، ضمن روايته عن سحقه لعدد من الشعـوب، مثـل اللوبيـين (الليبيـين)، والكوشيين (السودانيين). وحتى لو غفلت مدونـات مصـر عن ذكـر ذلك الحدث الهائل الذي دمرت فيه البلاد، وهلك الزرع والضـرع والعبـاد، وغـرق بعده الفرعون وجيشه العرمرم في خضم أمواه البحر، فما بال مدونـات الشعـوب المعاصرة للحدث لاتذكر ماحدث للجارة الكبرى؟ سواء في بلاد الشام أو الرافدين أو تركيا بلاد الحيثيين؟

---

(١): سليم حسن: الأدب المصري القديم، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠، ج ٢، ص٢٢٢.

هذا كل ماجاء عن تاريخ اسرائيل الطويل العريض في الأثر المصري «هلكت اسرائيل ولم يبق لها بذر»!! أما بلاد الرافدين فإنها لاتعرف شيئاً البتة عن التاريخ القديم لتلك الجماعة التي ملأت المقدسات صخباً وضجيجاً، وإن وردت إشارات في الحقب المتأخرة تذكر شيئاً يسيراً في شذرات عن مملكة تدعى (مملكة عمري)، والتي يُظن أنها مملكة اسرائيل في عهد أحد ملوكها المعروف باسم (عمري)، خلال الربع الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، ثم شيئاً لايغني ولايسمن عن انتصارات الأشوريين على سكان فلسطين وسبيهم لأهلها، ومثله شيئاً آخر عن انتصارات الكلدانيين على جنوب فلسطين، أما قبل ذلك فلا شيء على الاطلاق يشير الى جماعة اسرائيل، ولا للأحداث التي مرت بها، والتي أسهب الكتاب المقدس في تدوينها كعادته، الى حد الإملال، بل أن الحفريات المحمومة، والهوس الأركيولوجي الذي يمارس الآن في دويلة الكيان الصهيوني، لم يسفر حتى تاريخه عن شيء يستحق الذكر، أوعن أمر يمكن القطع بشأن نسبته للجماعة الاسرائيلية، أو حتى تصنيفه ابتساراً ضمن مرحلة بعينها من مراحل ذلك التاريخ، الذي تضخم حتى صار ورماً ناتئاً في تاريخ البشرية، دون سبب واضح، أللهم لا بسبب مرضي في صُناع التاريخ وانحيازهم السافر، لإيجاد موطىء قدم للجماعة الاسرائيلية في تاريخ الانسانية.

وحتى لو غضضنا الطرف عن كل المراحل القديمة في ذلك التاريخ، حسبما أوردته المقدسات الاسرائيلية، بحسبانها مراحل بداوة وعدم استقرار، لم تسمح لها ظروفها بترك آثار واضحة يمكن قراءتها، وبدأنا مع زمن قيام الدولة، بحسبان التاريخ عادة مايبدأ مع الاستقرار، وقيام الكيان السياسي والتدوين، أي لو بدأنا مع المملكة التي أقامها (شاول وداود وسليمان)، رغم عدم ثبوت التدوين آنذاك (حوالي ١٠٠٠ق.م)، لما وجدنا لأي من تلك الأسماء المضخمة قدسياً وسياسياً وعسكرياً، أي ذكر في سجلات أي من دول المنطقة بكاملها ودون استثناء، ذلك رغم ماقيل عن عظمة تلك المملكة واتساعها وجبروتها وعظم شأنها ومنشآتها، مع مازعم عن الهيكل والقصور والجيش العرمرم، مهما دققت النظر وأعييت الذهن، فلن نجد أية اشارة، لالمملكة عظيمة ولا لمملكة وضيعة، ولاحتى في حفائر الدويلة

الحـاليـة، ولا أثـر معـماري واحـد بقي يتيـماً كشهادة واحدة على تلك المنشآت التي صدعت بها أسفـار المقـدس رؤ وسنـا، بينـما نجد مايقف بلا ضجيج، بدل الشاهد ألف، في آثار فراعين مصر الذين سفههم ذلك المقدس، وأظهرهم في المراتب الدنيا في تاريـخ الانسـانية، فالمملكة التي تبجح المقدس بعظمتها لاشيء عنها البتة، لافي أثر على ظهر الأرض، ولا في باطن الأرض، ولا حتى في الورق!! اللهم إلا ورق المقدس وحده، وهو في موازين التاريخ والبحث العلمي، مالم تخترع له وحدة قياس بعد.

هذا ماكان عن القصور الأول في تاريخ جماعة بني اسرائيل، والذي جعل من الصعب تدقيق الاصطلاح صادق الدلالة عليهم، فمع تاريخ كهذا لن تكون واثقاً عن أي شيء تتحـدث بالضبـط، ولايبقى لديـك سوى مأثـرتهم الـوحيـدة (العهد القـديم من الكتـاب المقـدس) لتنـاول التـاريخ الوارد فيه بالدرس، لكن الكتاب المقـدس نفسـه يضعـك في حيرة عنـدمـا تريـد تدقيق الاصطلاح، مابين العبر يين واليهـود والاسـرائيليين، لكن العجيب في الأمر، والمثير لدهشة الباحث وقلقه معاً، هو ذلـك التكـامـل المـدهش في ذلـك المأثـور، الذي يندرج ضمن التاريخ أكثر مما ينـدرج ضمن الـدين، فيظهـر بمظهـر الـدقـة الصـارمـة، ويتحـدث عن الجماعة الاسـرائيليـة من البدء، نسباً لنسب، ليرتفع بهم الى أرومتهم (النبي ابراهيم عليه السـلام)، ثم يصعـد ليصـل الى شخصيـة تراثيـة أبعـد هي (النبي نوح عليـه السـلام)، ثم يغـالي دون أن يبـالي، فيرتفـع بسلسلة الأنساب حتى يصلها مباشرة بشخصيـة تراثيـة أخـرى هي (آدم) أبو البشر، مع تفصيـل لكثـير من الـدقـائق والمنمنـمات التي يقـدمهـا كشواهد، إثباتاً للمصداقية، هذا علماً أن كل هذا المدون الـذي يضـرب في عمق الـزمن السحيق، لم يتم تدوينـه إلا في زمن متأخـر جداً بما لايقـارب، قيـاسـاً على زمن الأحـداث التي يرويهـا، حيث لم يبـدأ تدوين المقدس الاسـرائيـلي حسب أبعـد الترجيحات، وأكثرها تأولاً لصالح بني اسرائيل، إلا بعد بداية الألف قبل الميلاد.

واذا هذا التأخـير في التـدوين، مع التكـامـل الظـاهـري، والإصـرار على التـدقيق في تفـاصيـل أحـداث سحيقة في القدم، فإن أي باحث لايملك سوى أن

يرى في ذلك التاريخ المقدس صنعة وانتحالاً واضحين، وريبة مركزية تحيط بها كثير من الظنـون، مما يفقـده الكثير من المصـداقيـة لأول وهلة، وقبـل وضعـه على أي ميزان، هذا ناهيك عما تلبس بهذا التاريخ من أساطير ومبالغات لاتخلو منها صفحة من صفحات ذلك المقدس، ملتبسة بأحداث أخرى واقعية، وتتم رواية ذلك المزيج الهجين بحسبانه في مجمله أحداث تاريخية واقعية، مما يلقي مزيداً من ظلال الشكوك على الحدث نفسه، الذي يروى كواقعة تاريخية.

أمـا مايـزيـد الأمـر تعقيـداً، فهو أن تلك الجماعة، وحسب الكتاب المقدس ذاته، قد مرت بعدة أدوار، انتقلت فيها نقلات هائلة ومتغيرة كمياً وكيفياً، بحيث لايمكنـك في مرحلة بعينهـا، الـزعم أنـك تتحدث دون خلط، وهو ماألقى بظلاله على تدقيق الاصطـلاح المنـاسب الـدال على تلك الجـماعـة البشـرية، فاصطلاح العـبر يـين يرتبـط أساساً بلغة تلك الجماعة، والمعروفة باللغة العبر ية، كما يرتبط من جهـة أخـرى بتفسـير البـاحثـين للاصطلاح بحسبانه دالاً على حدث تاريخي، هو عبـور القبيلة الأولى (الابـراهيمية) للنهر، في هجرتها من وطنها الأصلي الى كنعان، ويتضـارب البـاحثـون التوراتيون ـ دون الشعور بأي خلل ـ مابين كون هذا العبور لنهـر الفـرات أولنهـر الأردن، فالأمر مقدس، ومع المقدس كل شيء جائز، وقد كانت هذه الهجرة في مدينة (أور) المزعوم بالتوراة أنها (أور الكلدانيين)، الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لبلاد الرافدين حسبما ذهب الباحثون، والتي ذهبنا نحن بها الى منطقـة (أرارات) في جبـال (أرمينيـا) حول هضبـة أرارات وغـربها، أي المنطقة الواقعة شمالي العراق وسورية الآن، وذلك في كتابنا (النبي ابراهيم والتاريخ المجهول).

ومن جانبنا فقد رأينا اصطلاح (العبر يين) غير صادق الدلالة الى حد بعيد، رغم كونه أكثر الاصطلاحات استخداماً في كتابات الباحثين، وموقفنا يتأسس على خطأ نراه أسـاسياً في مستند هؤلاء، لأن الكلمة (عبر ي) لاتعود بحال الى عبور نهر، وإعـادتهـا لعبور القبيلة الإبراهيمية للنهر، قصد بها تخريجاً يتماشى مع سيناريو كاتب هذا الجـزء بالكتـاب المقـدس، بينـما الأصل يعود الى أن القبيلة الابراهيمية المعنية بهذا الاصطـلاح، تعـود بنسبهـا الى الجد المدعو (عابر)، وذلك حسب شجرة الأنساب

التوراتية، فابراهيم هو ابن تارح (آذر في الرواية الإسلامية)، ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر، وعابر هذا هو حفيد سام بن نوح. وتعود أهمية (عابر) في هذا السلسال حسب التعليلات التوراتية، الى أنه في زمنه وزمن ولده (فالج)، قسمت الأرض حسب ألسنتها الى شعوب وأجناس، ووزعت على خريطة المنطقة، بحيث تميز العبريون في هذه القسمة عن غيرهم من الشعوب، لذلك لايني الكتاب المقدس يذكر الجد عابر بشكل متواتر، قاصداً به الدلالة على الشعب الذي تناسل عن النبي ابراهيم تحديداً.

ومكمن الخطأ في استخدام هذا الاصطلاح، هو أنه الى (عابر) ذاته، تعود مجموعة أخرى من الشعوب، حسب القسمة التوراتية، هم أبناء (يقظان) أحد أبناء عابر، وأبناء يقظان هم عرب جزيرة العرب وبخاصة جنوبها، لذلك فإن دلالة (عبري) حسب المقدس، تشمل بني اسرائيل، كما تشمل شعوب جزيرة العرب، فهي دلالة أوسع وأشمل وأعم من بني اسرائيل وحدهم، وكما تبين دلالته في الكتاب المقدس، فهي تشير الى الرعاة وأصحاب نهج البداوة بشكل عام، وحيثما استعملنا التعبير (عبري)، يتبادر الى الذهن فوراً تعبير (عربي) كمصطلح دال على الرعي والبداوى، ولنلحظ أنه بظاهرة الميتاتيز الفونيطيقي (القلب اللساني)، يمكن أن تتبادل (عبري) و(عربي)، وعلى مستوى اللسان فانه من (عبري) يكون التعبير، أو الإفصاح من (عبّر) ومن (عربي) يكون الإعراب (أعرب) وهو يحمل ذات الدلالة، ولايفوتنا الاقتراب الحميم بين اللغتين العربية والعبرية تحديداً من بين بقية فروع شجرة اللغات السامية، وفي المأثور (اسماعيل) أبو العربان، هو أخ لإسحق أرومة بني اسرائيل ، وفي التاريخ تحدثت وثائق الرافدين عن مملكة (عريبي)[1]، بينما تحدثت وثائق مصر عن البدو باسم (عبيرو)[2]، ولنلحظ أمراً

---

(١): فرتز هومل: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين.

(٢): ر. س. ماكلستر: الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، تاريخ الإنسانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت، مج ٢، ص ٩٣.

لايخفى مغزاه، وهو اعتماد المؤرخين الاسلاميين على شجرة الأنساب التوراتية، في حال تنسيبهم لشخصيات عربية تاريخية، بحيث تعود تلك الشخصيات دوماً في النهاية الى الشجرة العبرية.

وفي حال احتساب اصطلاح عبري بحسبانه منسوباً الى اللغة العبرية، فإنه من المفيد أن نعلم، أن اللغة العبرية نفسها لم تكن لغة بذاتها بهذا الاسم، بل هي «شفة كنعان ـ اشعيا ١٩ : ١٨» أي لسان الكنعانيين، حيث اكتسبتها القبيلة الابراهيمية بعد نزولها فلسطين، حيث سكنت بين سكانها الكنعانيين، وتكلمت بلسانهم اكتساباً، وعليه فإن استخدام اصطلاح عبري سيشمل القبيلة الابراهيمية الوافدة، والكنعانيين سكان فلسطين، وعرب الجزيرة، وماأبعد ذلك عن الصحة والسلامة، ومن هنا رأينا أن اصطلاح عبري، لايفي بدقة للدلالة على بني اسرائيل.

أما اصطلاح (يهود)، فهو لايشير الى جنس بعينه، أو شعب بذاته، أو مكان محدد، أو لكيان سياسي بخصوصيته ونظامه، قدر مايشير الى تصنيف طائفي، يتأسس على العقيدة والملة التي اجتمع عليها البشر، الذين شكلوا الجماعة الاسرائيلية، وتعود التسمية (يهود) الى رب هؤلاء المعبود فيما بعد العهد الموسوي باسم (يهوه)، ثم الى أحد الأسباط من أبناء يعقوب، والمدعو (يهوذا)، الذي سمي به قسم منفصل عن دولة سليمان حمل اسم (مملكة يهوذا). والاصطلاح واضح القصور، حيث لم يظهر الإله يهوه إلا مع ظهور النبي موسى عليه السلام، والنبي موسى هو أحد أحفاد سبط لاوي أو ليفي بن يعقوب المعروف بإسرائيل، حوالي عام ١٢٥٠ق.م، مع إسقاط كل المراحل السابقة في تاريخ تلك الجماعة، هذا ناهيك عن كونه لايفي إطلاقاً بدلالته الصادقة، على الشراذم المؤتلفة اليوم في الكيان الصهيوني، والتي لاتجمعها لا لغة مشتركة ولاتاريخ واحد، ولاجنس، ولاموطن، ولايجمعها شيء سوى الملّة والطائفة، والمبدأ العنصري الذي يقوم عليه ذلك الكيان، وإعمالاً لذلك فإن اصطلاح (يهود) لايحمل دلالة صادقة على الجماعة الاسرائيلية المقصودة في الكتاب المقدس.

ومن هنا، فقد ملنا الى استخدام اصطلاح (بني اسرائيل) الذي يشير الى

الجماعة القديمة، صاحبة ذلك التاريخ المقدس، رغم ماقد يلحق ذلك الاصطلاح بدوره من عيـوب، وهـو اصطـلاح يعـود في منشأه الى يعقـوب بن اسحق بن ابـراهيم، في قصـة مقـدسـة ومشهـورة، تقـول إن يعقوب التقى رباً يعرف بالاسم (إيـل)، وكـان رب ابـراهيم واسحق ويعقـوب، وظل رباً لتلك الجماعة حتى ظهور النبي موسى وربه (يهوه)، وتحكي القصة حكاية النزال الجسدي بين يعقوب وإيل، وكـادت المصـارعـة تحسم لصالح يعقوب، لولا أن كشف إيل عن شخصيته الإلهية ليعقوب، حيث أمر بتبديل اسمه من يعقوب الى اسرائيل، وهو نحت لفظي مركب من ملصقـين، يترجمـه بعض الباحثين تجملاً، وربما مجاملة لشعب الرب، بالترجمة (جندي الرب)، بينما صدق التسمية لدينا هي (صرع - إيل) أي مصارع الرب، أو الذي صرع الرب وهزمه، ولو كان صدق التسمية هو (جندي الرب) لكان الأصل العـبري هو (صبت - إيـل) وليس (اسـر = إيـل) = (صـرع = إيل) (انظر الكتاب المقدس سفر التكوين: ٣٢ : ٢٢ - ٢٩).

وقـد ملنـا الى استخـدام اصطـلاح بني اسرائيل، رغم كونه لايشمل سلف الجـماعـة قبـل يعقوب (اسحق وابراهيم)، لكنه على أية حال الأقرب إليهم زماناً، فيعقوب حفيد ابراهيم مباشرة، هذا بالاضافة لكونه تابعاً في العقيدة للإله (إيل)، بينما يرتبط يعقوب نفسه من جهة أخرى بالأسباط بني اسرائيل وهـم بنيه، الذين جاء من نسلهم موسى عليه السلام صاحب الإله الجديد (يهوه).

أدوار التاريخ الاسرائيلي

من المتفق عليه بين الباحثين المهتمين بدراسة تاريخ الجماعة الاسرائيلية، اللجوء الى تقسيم هذا التاريخ الى مراحل أو أدوار، في محاولة لتجاوز الصعاب والعقبات التي ربما تعرض لوناً من الاستحالة، في حال معالجته كتاريخ متصل، وهي الصعاب الناتجة عن العيوب الأساسية في مسيرة هذا التاريخ، والتي أشرنا إليها، وقد اختلف تقسيم تاريخ بني اسرائيل بيد المؤرخين حسب الرؤ ية، والمنهج، والمدرسة، والأيديولوجيا في أغلب الأحيان، وللإيجاز سنعمد الى الرؤ ى المطروحة والمعلومة لدى القارىء العربي، وأوسعها انتشاراً تقسيم (فيليب حتي) لهذا التاريخ دورين رئيسيين، يعتمدان خط الهجرات للجماعة الاسرائيلية الى فلسطين، والذي تم في هجرتين رئيسيتين، تفصل بينهما مرحلة زمانية، تعود الهجرة الأولى منهما الى القبيلة الاولى في التاريخ الاسرائيلي (القبيلة الإبراهيمية)، وهي الهجرة التي هبط فيها النبي ابراهيم وعائلته أرض فلسطين في استيطان أول، أما الهجرة الثانية فكانت في الزعم المقدس مجرد عودة الى فلسطين، بعد أن اضطرت المجاعة وشظف العيش النبي (يعقوب) وأسباطه وأحفاد ابراهيم عليه السلام، الى هبوط مصر طلباً للقوت، حيث لبثوا هناك زمناً عادوا بعده في هجرة ثانية الى فلسطين، لكن الهجرة هذه المرة، ضمت عدداً هائلاً من البشر، وتأسيساً على ذلك أقام (حتي) تقسيمه لتاريخ بني اسرائيل الى دورين، مثلتهما هجرتين الى فلسطين، لكنه يؤ كد أن التاريخ الحقيقي لتلك الجماعة، وظهورهم في التاريخ (كشعب)، إنما يبدأ مع الهجرة الثانية، أي مع خروجهم من مصر بقيادة النبي موسى عليه السلام، حوالي عام ١٢٣٤ ـ ١٢١٥ق.م فيما يذهب هو اليه، وأن هذا الخروج أو الهروب أو الهجرة، لم تشمل سوى قبيلة واحدة من جماعة اسرائيل، هي قبيلة (راحيل)[١]، نسبة الى

---

(١): فيليب حتي: خمسة الاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٥، مج ١، ص ١٢٦، ١٢٧.

راحيل الزوجة الثانية ليعقوب وهي أم يوسف النبي عليه السلام وأخيه بنيامين، والمقصود هنا أن القبيلة التي دخلت مصر وخرجت منها هي فقط نسل راحيل فقط دون بقية الجماعة الاسرائيلية.

وإن المؤرخ فيليب حتي وهو يضع ذلك اللغم، يتركه ويستمر في عرض تاريخ الجماعة، لكن بعد أن يشعل فتيله الذي يشير لقارىء لبيب، لديه إلمام كاف بالتاريخ المقدس، الى تفجر وتشظي الجماعة الاسرائيلية قبل دخول مصر، والى احتمال أنها لم تكن يوماً جماعة واحدة، إنما حدث لها إئتلاف بعد الخروج بقيادة قبيلة راحيل، وأن الخروج لم يشمل إلا عدداً محدداً من بني يعقوب اسرائيل، وعليه فلا مندوحة لعقل نقدي، أن يستدل من رؤية (حتي) على أن جماعة اسرائيل لم تتكون حقيقة إلا بعد الخروج، وبالتدريج لتتشكل من إئتلاف قبلي كان أصلاً متعدد العروق ومختلف المشارب، ولم يكن من بينها من هو أصيل النسب لإسرائيل سوى أبناء راحيل، وهو أمر يمكن أن يؤدي بإعمال البحث المدقق الى نتائج هائلة في محتواها، وهو مانحاول إعمال البحث فيه حالياً، في كتاب لازال مشروعاً قيد البحث بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة).

أما عالم الساميات (سبتنيو موسكاتي) فيلجأ في تقسيمه للتاريخ الاسرائيلي الى أدوار، مستنداً الى رؤية أخرى، ترتبط بمراحل الاستيطان والارتحال الاسرائيلي من مواطن مختلفة ومتباينة الى مواطن أخرى متباعدة، يبدأها بالمأثور التوراتي حول إقامة القبيلة الأولى (الإبراهيمية) في جنوب بلاد الرافدين (وهو يسلم بذلك دون مناقشة)، ثم هجرتهم من هناك الى فلسطين، ثم يثني على الدور الثاني الذي هاجر فيه يعقوب اسرائيل وأولاده الى مصر، حيث أقاموا فيها الى أن انتهى بهم الأمر الى الاضطهاد، ثم الخروج من مصر الى سيناء بقيادة موسى النبي عليه السلام، ثم ينتقل الى الدور الثالث والأخير في تقسيمه، والذي يرتبط بدخولهم أرض فلسطين في سلسلة من الحملات، التي وجهت الى جنوب فلسطين ووسطها وشمالها، حتى استيطانهم فيها، وينسب تلك الأحداث الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مشيراً الى حفائر آثارية في جنوب فلسطين، تشهد بتدمير بعض المدن حوالي ذلك الزمن، ويحتسب ذلك دليلاً كافياً على حدوث الهجوم الاسرائيلي

على فلسطين[٢]، وهو الأمر الذي يوخذ على باحث في وزن موسكاتي، فدليله واضح التحيز وبينٌ القصور، لأنك لن تحفر الأرض في أي موطن في الشرق الأوسط، إلا وتجد قرى وبلاداً عفى عليها الزمان، بعد تدميرها على يد أقوام أخرى، ومعلوم أن منطقة الشرق الأوسط كانت تموج لمدى ثلاثة آلاف عام بالحركات البشرية والهجرات، ومعلوم أيضاً أن فلسطين نالها النصيب الأكبر من اصطراع تلك الجموع البشرية الهائلة، لموقعها الجغرافي المركزي في بطن المنطقة، وعليه فإن وجود قرى مدمرة في طبقات الحفائر بفلسطين لايشير بالشرط والقطع الى بني اسرائيل تحديداً في الزمن الذي يشير اليه، وكون فلسطين كانت طوال تاريخها معبراً لجميع الشعوب المهاجرة، وساحة لمعارك الامبراطوريات الكبرى المتصارعة دوماً (مصر، آشور، بابل، الحيثيين)، كفيل وحده بجعل فلسطين تنال نصيباً أوفر من الدمار المتواصل، أكثر من مواضع أخرى كثيرة في الشرق القديم.

هذا بينما يذهب باحث آخر - لايقل اجتهاداً - هو (أحمد سوسة) الى تقسيم التاريخ الاسرائيلي الى أدوار ثلاثة، يعتمد ذات خط (موسكاتي)، أقصد نظرية المواطن التي تقاسمت حركة التبدي للجماعة الاسرائيلية، لكنه يخالفه في تزمين تلك المراحل طولاً أو قصراً، فالدور الأول يبدأ بهجرة النبي ابراهيم عليه السلام، مع قبيلته، من (اور الكلدانيين) جنوبي بلاد الرافدين، لكنه يمد هذا الدور زمنياً لينهيه باستقرار الإسرائيليين في مصر، حيث يزعم أنه بعد هبوطهم مصر، اندمجوا كلية في البيئة المصرية، بعد قضاء ست قرون كاملة هناك (وهو تقدير خاص بأحمد سوسة)، لكن مسألة الاندماج التام رأى له وجاهته، في ضوء مايعرفه التاريخ، عن قدرة مصر الفذة في امتصاص الغرباء وتمصيرهم، في أزمنة أقصر بكثير من المدة المزعومة لبقاء الاسرائيليين بمصر، ثم ينتقل (سوسة) بعد ذلك الى الدور الثاني، الذي يبدأه مع النبي موسى عليه السلام وجماعته، في نزوحهم من مصر الى فلسطين، ويذهب في ذلك الى رأي فريد، فيقول: إن رحلة الخروج التي أسهب في روايتها الكتاب

---

(٢): موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٤٩، ١٤٠.

المقـدس، وتعتـبر حجـر الـزاوية في البناء التاريخي لإسرائيل بكامله، ليست سوى «. . حملة مصـريـة، مؤلفـة من جماعـة من المصـريين، وبقايا الهكسوس، يدينون بدين التـوحيـد، الـذي ورثـوه عن إخنـاتـون فرعـون مصر، واضطروا تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم إياهم الى الهروب من مصر، والتوجه الى أرض كنعان».

بل ويـذهب (سـوسـة) الى أن هؤلاء الخارجين لاريب «. . كانوا يتكلمون باللغـة المصـريـة، وبهـا كلمهم موسى على وجـه التأكيـد، وقد نسبت التوراة هذه الحملة الى بني اسـرائيـل، بغيـة ربط هذه الجماعة، بيعقوب وبإبراهيم الخليل، كما نسبت موسى الى كهنـة بني لاوي بن يعقـوب، في حين أن الـرأي الغـالب لدى البـاحثـين في هذا العصـر، هو أن موسى كان قائداً مصرياً في بلاط إخناتون، يدين بدين التوحيد الذي دعا إليه إخناتون، ورواية التوراة نفسها، تشير الى أن موسى تربى في بلاط فرعون، واتخذته ابنة فرعون ابناً لها ـ خروج ٢ : ١٠ ـ ثم تزوج من امـرأة كوشيـة (أثيـوبيـة) ـ عدد ١٢ : ١٠ ـ فلو كان لاوي في الـوجود زمنه، لتزوج إحـدى بنـات عمـومتـه، ومن الثـابت لدى العلماء، أن اسم موسى اسم مصـري صميم، تسمى به أبـاطـرة عصـر الإمبراطورية: أحمس أو (أح موسى)، تحوتمس أو (تحوت موسى)، رعمسيس أو (رع موسى). . أما لغة هذه الشريعة فالأرجح عندنا أنهـا كانت باللغـة المصرية، وقد أخذت جماعة موسى بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها، كما أخذت بلغتها الكنعانية. . أما لغتهم التي صارت تسمى بالعبرية في وقت لاحق، فهي إحدى اللهجات التي اقتبسوها من الآرامية، وقد تكونت بمرور أكثـر من ستـمائـة عام، على دخولهم أرض فلسطين، وبها كُتبت التوراة في بابل بعد عهـد موسى بثـمانـمائة عام، وبعد عدة قرون اقتبست هذه الجماعة الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية، وصارت جزءاً من ديانتها»[1].

ولنلحـظ هنـا، أن القـول بمصرية موسى عليه السلام سبق إليها أعلام مثل (جيمس هنـري برستـد) و(سيجموند فرويد). . الخ، هذا إضافة لما يتمتع به رأي

---

(١): أحمـد سوسـة: العـرب واليهـود في التـاريـخ، دار العـربي للإعلان والطباعة والنشر، ط ٢، د.ت، دمشق، ص ١٥٥ : ١٥٧.

(سوسة) في جملته من وجاهة، تضعه في اعتبار أي باحث جاد.

ثم ينتقل (سوسة) الى الدور الثالث من أدوار التاريخ الاسرائيلي، فينتقل مع بني اسرائيل الى موطن ثالث، يبدأ بسبيهم من فلسطين الى بابل على يد (نبوخذ نصر الثاني الكلداني)، وذلك حوالي عام ٥٨٦ ـ ٥٣٩ق. م، حيث أقاموا في بابل، إقامة أدت الى تطور هائل في العقيدة اليهودية خلال القرون التالية، كما كان لتلك الإقامة أهمية أخرى، فقد دونت في بلاد الرافدين ـ أثناء الأسر ـ أهم فصول التوراة. ويذهب (سوسة) الى أنه ربما كان في حوزتهم، نسخة من وصايا موسى الأصلية، المكتوبة بالهيروغليفية، قدمت لهم المادة الأساسية والخام، لعملهم بالكتاب المقدس[1].

ثم نجد لوناً آخر من تقسيم التاريخ الاسرائيلي، لايعتمد خط الحركة المهاجرة ولايأخذ باعتباره المواطن الجغرافية للحل والترحال، إنما يربط بين أدوار التقسيم، وبين تبدل الأحداث التي مرت بالجماعة الاسرائيلية، وكانت ذات أثر جوهري في حدوث نقلات تاريخية، حولته تحولاً كبيراً، بحيث أصبح ذلك بمثابة الانتقال من دور الى آخر، مع أخذه بالحسبان، شكل الحياة، أونمطها السائد، ومدى مادخلها من تغيرات نقلتها من دور الى دور آخر في التاريخ، وهومانجد نموذجاً له عند (أنيس فريحة) حيث يقول: «مر العبران في خمسة أدوار رئيسية:

١ ـ دور البداوة.. حيث كانوا من جملة القبائل السامية المنتشرة في شمالي الجزيرة العربية».. ولم يكونوا موحدين، لكنهم كانوا في طريقهم نحو التوحيد، وأصبح أحد آلهتهم ـ يهوه ـ قائدهم في الحروب.. الإله الأول.. وكان يهوه إله قبيلة قليلة العدد ضيقة الآفاق، وكان يتميز بكثير مما تتميز به آلهة الصحراء، فقد كان إلهاً غيوراً يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، للجيل الثالث والرابع، كان صارماً شديداً، حتى أنه لم يرد أن يرسم له رسم أونحت، خوفاً من المنافسة، ولكن هذا الإله الصحراوي أصبح على يدي الأنبياء أمثال إشعيا وعاموس وميخا، إلهاً عالمياً إلهاً يأمر بالمحبة والعدل.

---

(١): نفسه: ص ١٥٨، ١٥٩.

٢ ـ دور التكوين القومي والسياسي . . وهو طور استقرارهم في كنعان، بعد أن دخلوا أسباطاً وعشائر تحت إمرة شيوخهم وقضاتهم، ولم تخضع البلاد لهم برمتها، بل ظلوا يكافحون فيها قروناً ويحاربون، حتى دانت لهم من دان الى بئر سبع، وكانت الحضارة الكنعانية أرقى من حضارتهم، وكذلك كانت لغة الكنعانيين أرقى من لغتهم، فاقتبسوا لغة البلاد واندمجوا في حضارتها، وتكونت على مر الأجيال قومية عبرية، . . وتأسست الملكية، . . ونعموا بفترة استقرار ورخاء دامت أكثر من تسعين سنة، ثم أنهم مالبثوا ان انقسموا على ذواتهم، قسم شمالي عاصمته بالقرب من نابلس الحديثة، وقسم جنوبي عاصمته أورشليم، وفي هذه الفترة، نشأ صراع عنيف بين يهوه وبين آلهة أخرى زراعية، وقام نزاع بين كهنة البعل وكهنة يهوه، واشتد الصراع بين العادات الصحراوية القبلية، وبين العادات الزراعية الحضريه.

٣ ـ دور السبي . . في سنة ٧٢١ق . م وقعت المملكة الشمالية إسرائيل في قبضة الآشوريين، فخربوا العاصمة، وأجلوا قسماً كبيراً من السكان الى العراق، وفي عام ٥٨٦ق . م، وقعت المملكة الجنوبية في قبضة البابليين، فخربوا العاصمة، ودكوا معالم الهيكل، وأجلوا السكان الى بابل.

٤ ـ دور الرجعة الى موطنهم . . كان رجوعهم الى فلسطين على يد الفرس، وقد انصب حماسهم في إعادة بناء الهيكل . . وفي هذه الفترة وضعت أكثر أسفار التوراة، كما نعدها حتى يومنا هذا . . وهذه الفترة كانت فترة نضوج اليهودية الرسمية التقليدية.

٥ ـ دور وقوعهم تحت الهلينية . . وقعت فلسطين تحت حكم الإغريق عند أواخر القرن الرابع ق . م . . فنشأت حرب فكرية عقادئية بين الإغريق واليهود . . وقد اشتد العداء واستفحل، فنشبت بينهم حروب دامية تعرف بحروب المكابيين . . وقرر أنطيوخس أبيفانس أن يمحوا اليهودية من الوجود، فجرد عليهم طيطس الروماني عام ٧٠ للميلاد حملة كبيرة، كانت القاضية، فخرب الهيكل وأحرقه، وتشتت اليهود من جميع أنحاء المعمورة»[1].

---

(١): أنيس فريحة: دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٩٠، بيروت، ١٩٨٠، ص١٤٥، ١٤٩.

احداث الدخول

في الطور الإيلي الإبراهيمي :

تبدأ الأحداث في الأصل، بنزول إسرائيل (وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) الى مصر، بصحبة بنيه من الأسباط الأحد عشر، بعد أن استدعاهم ولده الأثير، السبط الثاني عشر (يوسف عليه السلام)، والذي سبق أن بيع رقيقاً في مصر، بعد مؤامرة من أشقائه لاستبعاده، كي يخلو لهم وجه أبيهم، وفي مصر تقلبت به الأحوال، حتى انتهى وزيراً لخزانة المصريين.

وتقول التوراة: إن بني إسرائيل قد قضوا في مصر ٤٣٠ عاماً، لكنها لاتحدثنا إطلاقاً، عما جرى لبني إسرائيل هناك طوال تلك السنين، رغم ميلها المعهود الى التفصيل والتكرار الممل، فقط تبدأ التوراة عادتها، بالشرح والتفصيل والتكرار كدأبها، مع ظهور النبي موسى عليه السلام، الذي قدر له أن يقود بني إسرائيل في رحلة خروج أو هروب كبرى الى فلسطين.

ومن المشكلات العصية على أي باحث، هو محاولة القطع بشأة الزمن الذي بدأ فيه ظهور القبيلة الإسرائيلية أصلاً، على صفحات التاريخ، مع جدهم البعيد ابراهيم، وإن كان الأقرب للقبول افتراضاً، هو تواجد النبي إبراهيم عليه السلام خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك وفق مقاربات افتراضية، تستند الى رواية توراتية، تتحدث عن مهاجمة فرعون مصري لمملكة اسرائيل بعد موت ملكها سليمان مباشرة، وقد ذكرته التوراة باسم (شيشنق)، ولأن تاريخ مصر المدون في آثارها، حدثنا عن فرعون باسم (شيشنق)، وأنه كان صاحب حملات على بلاد الشام وفلسطين، فقد تم لأول مرة محاولة ضبط التاريخ الاسرائيلي متوافقاً مع التاريخ المصري، وثم التزمين الافتراضي لزمن سليمان، بمطابقته مع زمن شيشنق الذي عاش حوالي ١٠٠٠ق.م. وعليه فقد وضعت خطة ترتب الأزمنة

والأحـداث والشخصيـات التـاريخيـة الهـامـة، ارتجـاعيـاً، بدءاً من زمن شيشنق وسليهان، وفق سياق افتراضي يصل في النهاية الى زمن النبي ابراهيم عليه السلام.

وإن الأحداث التي تتعلق بحـدثي الـدخول والخروج، يمكن تقسيمها بين مرحلتين أو طورين، هما الطور الإيلي الابراهيمي، وخلاله ثم حدث الدخول، ثم الطور اليهوي أو الموسوي وخلاله ثم حدث الخروج، وعليه فإن أحداث الدخول، هي تلك التي تبـدأ بزمن النبي ابـراهيم، وتنتهي بظهـور النبي موسى على صفحة الأحداث، حيث يبدأ بعد ذلك حدث الخروج.

ويتضح من رواية التوراة (الكتاب المقدس)، أن تلك الجماعة قد عاشت هذا الطـور في حالـة من التبـدي والارتحـال الـدائمين، وكان إبراهيم عليه السلام راعياً للمواشي، كذلك كان أبناؤه هبوطاً من إسحق الى يعقوب، وهومايتضح في قول يوسف عندما استقبل إخوته بمصر «.. ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: أصعد وأخبر الفـرعـون وأقـول له: إخـوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليّ، والـرجـال رعـاة غنم، فإنهم كانـوا أهـل مواشي، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم، فيكون اذا دعاكم فرعون وقال ماصناعتكم، أن تقولوا: عبيدك أهل مواشي منـذ صبـانـا الى الآن، نحن وآبـاؤنـا جميعاً، لكي تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين تكوين ٤٦ : ٣١ - ٣٤».

لكن ثمة إشارات غامضة في مصر مابين يوسف وموسى، غلب عليها حكاية الاضطهاد، لكن عملهم قبل ذلك أيام فرعون يوسف كان رعاية مواشي الفرعون، أو كما جاء بالكتاب المقدس «فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصـر، قدامـك في أفضـل أرض أسكن أبـاك وإخـوتـك، ليسكنوا في أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة، فاجعلهم رؤساء مواش على التي لي - تكوين ٤٧ : ٥، ٦».

هذا إضـافـة الى مايظهـره السـرد التـوراتي لحيـاة إبـراهيم ونسله في أرض كنعـان، وأنها كانت ارتحالاً دائماً وراء الكلأ، حيث تجد النغمة السائدة «ثم ارتحل ابـراهيم ارتحـالاً متـواليـاً - تكـوين ١٢ : ١٩»، دونـها استقـرار، فلم يعرفوا سكن

البيـوت، بل سكنـوا في خيام متنقلة، وعادة ماكان الرب يظهر لإبراهيم وهو يقضي القيلولة أمام خيمته «وظهر له الرب عند بلوطات ممراً، وهو جالس في باب الخيمة، وقت حر النهار ـ تكوين ١٨ : ١٥».

ومن الطبيعي أن يستتبـع العمـل بالـرعي حجـرات متعددة وراء العشب، وحسـب حال الطبيعـة من جود أو شح، لذلـك كان نزولهم مصـر في عهـد إبراهيم، وفي عهـد يوسف بن يعقـوب، وعادة ماكان يسبق تلك الحركة المهاجرة الإشارة الى نزول جوع بالأرض (وحـدث جوع في الأرض، فانحـدر إبـرام الى مصـر ليتغرب هنـاك ـ تكـوين ١٢ : ١٠»، «وكـان الجـوع على وجـه كل الأرض» . . فلما رأى يعقـوب أنـه يوجـد قمـح في مصـر، قال يعقـوب لبنيـه : لماذا تنظرون بعضكم الى بعض؟ وقال: إني قد سمعت أنه يوجد قمـح في مصـر، انزلوا الى هناك ـ تكوين ـ ٤١ : ٥٦، ٤٢ : ١، ٢».

ويبدو من عدة شواهد أخرى، أن أهم مظاهر ثروتهم التي تمثلت في الأنعام، كانت ثروات عائليـة لافـرديـة، ولاقبلية، إنما كانت ملكية عائلية أسرية، فنجد أن لوطـاً ابن أخي ابـراهيم، له ولأسـرتـه أملاكها من المواشي، ولإبراهيم وأسرته أملاكاً أخرى تخصهم، كذلك الأمر مع أبنائه، بينما كانت أراضي المراعي وآبار المياه ملكية جماعية مشاعية، لكن دون ثبات أو دوام، فكانت المراعي تتعرض للجفاف، والآبار للنضوب، فتنتقل القبيلة مع مواشيها، كما حدث في حال نزولهم الى مصر، أو في حال استيـلائهم على أرض فلسطـين، ولم تكن الفـروق كبـيرة في ذلـك العهد بين ثروات أسـر تلك القبيلة، ولا بين ثروات الأفـراد، إلا في حالات طارئـة تزيـد فيها الثـروة لأسبـاب أخـرى، وهـو مثيـل ماروتـه التوراة حول نزول النبي إبراهيم الى مصر، وماحدث عندما أخذ الفرعون سارة زوجته، «فصنع الى إبرام خيراً بسببها، وصـار له غنم وبقـر وحمـير وعبيـد وإمـاء وإتن وجمال، . . فصعد إبرام من مصر. . وكـان إبـرام غنيـاً جداً في المـواشي والفضـة والـذهب ـ تكـوين ١٢ : ١٦، ١٣ : ١، ٢». وهـو زعم سبق لكثـير من الكتاب تناوله وتفنيده، ولا يعنينا منه سوى دلالة غنى أصاب بعض رهط إسرائيل في مصر، أما النبي إبراهيم فلا شك يراودنا في كونه نبياً جليلاً، يترفع ويتنزه عن مثل تلك المزاعم.

وطوال تلك السطور، نجد التوراة تؤكد وتقرر أن «إيل إله إسرائيل - تكوين ٢٣ : ٢٠»، وقد ظل (إيل) هو الإله الذي يتردد ذكره طوال الحقبة الممتدة مابين إبراهيم وموسى، أي بطول سفر التكوين كاملاً، عدا حالات يذكر فيها الإله الموسوي (يهوه) قبل ظهور موسى، بديلاً عن إيل، بداخل سفر التكوين، ومعلوم لدى الدارسين أن ذلك لايعني معرفة العهد الإبراهيمي للإله (يهوه)، إنما نعرف أن ذلك كان ناتج إدماج روايتين داخل سفر التكوين، رواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب الإيلي، وروايته هي الغالبة في سفر التكوين، ورواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب اليهوي، لكن مالايجب أن يفوت القارىء هنا، أن الكلمة (إيل) كانت تأتي في حالات كثيرة في صيغة الجمع (إللوهيم) أي الآلهة.

والإله (إيل) في رواية التوراة، هو الإله الذي يرتبط بمشروع البطاركة للاستيلاء على أرض كنعان، بعد هجرتهم من موطنهم الأصلي - وللأبد - الى فلسطين. وهنا لانستطيع مجاملة الأحداث أو التاريخ، فقصة المشروع الابراهيمي للاستيلاء على فلسطين قصة مقدسة، ولاعبرة بتاريخ إنساني لم يدونها أو يعرف شيئاً عنها، وقد اعتمدت علاقة الإله (إيل) بالمشروع الاستيطاني على قصة توراتية مقدسة، تؤكد أنه الإله الذي أخرجه من مدينة (أور الكلدانيين) موطنه الأصلي البعيد، وهو الإله الذي اختار له أرض كنعان ومنحه إياها ولنسله من بعده والى أبد آبدين، وتتكرر صيغة هذا الميثاق في أكثر من موضع بسفر التكوين، وقد جاءت على الترتيب في عهد النبي ابراهيم كالآتي :

وقال الرب لإبرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، الى **الأرض التي أريك**، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه - تكوين ١٢ : ١ - ٣.

وبعد هبوطه أرض كنعان :

ظهر الرب لإبرام وقال : **لنسلك أعطي هذه الأرض** - تكوين ١٢ : ٧.
إرفع عينيك وانظر من هذا الموضع الذي أنت فيه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك **أعطيها لنسلك للأبد**، واجعل نسلك

كتراب الأرض ـ تكوين ١٣ : ١٤ ـ ١٦ .

في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين ـ تكوين ١٥ : ١٨ ـ ٢١ .

وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم ـ تكوين ١٧ : ٧ ـ ٨

والمتابع للقصة التوراتية عن الإله (إيل) والنبي (ابراهيم)، يجد نفسه إزاء أسرة صغيرة متواضعة، تتكون من أفراد يعدون على أصابع اليد (إبراهيم وسارة وولديه إسماعيل ثم إسحق، وأسرة ابن أخيه لوط التي تتكون فقط من زوجة وبنتين)، وللتدقيق، نجد الوعد قد اقتصر فقط على إبراهيم وولده اسحق، رجل وزوجته، جاءوا أغراباً لينزلوا أرضاً غريبة (أرض غربتهم بتعبير التوراة)، فيمنحهم (إيل) كل الأرض، ليس قطعة فيها، ولاقرية، ولاحتى مدينة، إنما كل البلاد والممالك الواقعة مابين نهر مصر وبين نهر الفرات، رغم سكانها الذين عمروها من ألوف السنين، وتم تعدادهم في نص الوعد (القينيين، والقنزيين، والقدمونيين، والحيثيين، والفرزيين، والرفائيين، والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين)، والواضح في رواية سفر التكوين، أن تلك الشعوب قد قطعت شوطاً عظيماً في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكونت عدداً من الممالك المستقرة، وجاء ذكر بعضها في الاصحاح الرابع عشر وغيره، مثل مملكة جرار، ومملكة سدوم، ومملكة عمورة، ومملكة أدمة، ومملكة صبويم، ومملكة بالع، ومملكة عمون، ومملكة موآب، ومملكة شاليم، وقد ورد ذكر تلك المملكة الأخيرة مع اسم ملكها بصيغة (ملكي صادق) أو الملك صادق، كما جاء مع مملكة جرار اسم ملكها الفلسطيني (أبيمالك)، كل هذا تعج به الأرض، بينما كان إبراهيم مجرد راع غريب بسيط، صاحب مواشي، وعليه فلا مندوحة في افتراض أن كاتب هذا الجزء من

التوراة، الذي كتب بعد زمن النبي ابراهيم بقرون طويلة، قد كتبه بعد أن وصل الاسرائيليون لدرجة من الاقتدار تسمح لهم بهذا الطموح، فتمت ترجمة ذلك الطموح الى اللغة القدسية، بعادة القرار بالاستيلاء على فلسطين، الى علاقة قدسية بالرب (إيل)، والمسألة بذلك تصبح قدراً مقدساً وإلهياً، لامجال للاعتراض عليه، بحيث تم منح الارض بأثر رجعي للسلف البعيد إبراهيم، بينما لم يكن قد أنجب أصلاً، مع وعد آخر بأن ذلك النسل سيكون أعظم الأمم، ومن هنا تم تزمين الرواية بزمن النبي ابراهيم لتكتسب قدسية التقادم، وإعمالاً للمبدأ القانوني القائل بوضع اليد المدة الطويلة المكسبة للملكية، والذي يبدو أنه اليوم ليس سوى توارثاً عن قواعد تلك الأزمان.

وكان المقابل الذي طالبه (إيل) مقابل هذه العطية العظيمة، التي يتم فيها سلب الأرض من أصحابها لصالح القبيلة المغتربة، هو أن يتم الاعتراف به إلهاً للقبيلة، دون الآلهة الأخرى، وكان لابد من توثيق العهد وإشهاره، ليكون التوثيق شاهداً على مر السنين أمام جميع الشعوب منعاً للنزاع، وكان التوثيق هو أن يضع إبراهيم ونسله علامة الميثاق الشاهدة لتذكر الأحفاد، في علاقة مميزة هي (الختان)، وذلك نصاً «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن كل ذكر منكم، فتختتنون من لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم - تكوين ١٧ : ٩ - ١١».

أما الغريب في كل تلك الحكاية، أن الإله (إيل)، الذي منح الغرباء أرض فلسطين، كان إلهاً كنعانياً فلسطينياً أصيلاً في المنطقة، وفي النصوص يمكنك أن ترى مايشير الى أن (إيل) كان غير معروف لإبراهيم عند هبوطه البلاد، وذلك من قبيل القول: «وظهر الرب لإبرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للإله الذي ظهر له - تكوين ١٢ : ٧»، فالرب هنا غفلاً من التعريف أو المعرفة، فهو رب بين أرباب، لكنه يتميز عنهم بأنه هو (الذي ظهر له)، لذلك قام ذلك الرب يقدم نفسه بالتعريف الى إبراهيم قائلاً: «أنا إله بيت إيل - تكوين - ٣١: ١٣»، ومعلوم أن (بيت ايل) مدينة كنعانية مقدسة منذ القدم، وقد دلت الكشوف الأركيولوجية الحديثة على انتشار عبادة (إيل) على نطاق واسع بحسبانه

كبير الآلهة، في مناطق الشعوب السامية، في بلاد كنعان والشام جميعاً، والرافدين وجزيرة العرب وبخاصة جنوبها، بل أنك تلحظ ملحوظة على جانب عظيم من الأهمية سبقت الإشارة إليها، وهو أنه عند هبوط إبراهيم وعائلته أرض كنعان، يهجر لغته الأصلية الأرامية، الى لغة الكنعانيين أهل البلاد، أو شفة كنعان بتعبير التوراة.

وقد ظل (إيل) مصاحباً للنسل الإبراهيمي، فإليه ينسب (سمع إيل) أو (إسماعيل) ابن ابراهيم الأكبر، والذي تم استبعاده من التركة لأنه ابن جارية مصرية (؟!) وكان (إيل) هو الذي بشر سارة بابنها اسحق، الذي أنجب ولدين هما (عيسو) و(يعقوب)، وتم استبعاد عيسو بدوره من الميراث لتبقى التركة خالصة ليعقوب، الذي كان على علاقة متميزة بالإله إيل، فقد ظهر له عدة مرات كان أهمها وأشدها حسماً، اللقاء الذي تم فيه اختبار قوة يعقوب بمصارعته جسدياً، وتبديل اسمه من يعقوب الى (اسرائيل)، ومن ثم أعاد (إيل) تأكيد الوعد الموثق بقوله ليعقوب: «أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق، والأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ـ تكوين ـ ٢٨ : ١٣، ١٤»، وبهذا استمر الوعد لإسرائيل (يعقوب) وبنيه الأسباط الإثني عشر (رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، نفتالي، جاد، أشير، يساكر، زبولون، بنيامين، يوسف)، الذين هبطوا مصر، وعاشوا هناك زمناً كان كفيلاً بنسيان (إيل)، وربما عبدوا هناك آلهة المصريين، ولما جاءهم موسى عليه السلام بعبادة الإله الجديد (يهوه) من بلاد (مديان)، وأخبرهم أنه إله أجدادهم الذي كان يعبد في كنعان، لم يجدوا غضاضة في قبوله على الفور، دون تمحيص أو تشكك أو حتى محاولة للتأكد.

وبعد ذلك، تنقلنا التوراة نقلة أخرى، الى أحداث أخرى، تبدأ بقصة تفضيل يعقوب لولده يوسف، مما أثار حقدهم وموجدتهم، وبحيث لجأوا الى مؤامرة للتخلص منه، وهنا محاولة تصفية أخرى تقوم بها التوراة لصالح قبيلة (راحيل) أي قبيلة يوسف، عن قبائل الأسباط الأخرى، لكنها هنا يبدو قد اصطدمت بواقع تحالف مجموعة القبائل التي شكلت مايسمى بالجماعة الإسرائيلية، ولم يكن هناك

مناص من قبولهم واستبقائهم، خاصة أن النبي الآتي (موسى) لن يكون من سبط يوسف، إنما من سبط لاوي.

وهكذا، بدأ الدخول بيوسف ابن اسرائيل الجميل، صاحب الأحلام، تلك الأحلام التي أزعجت إخوته بشدة، ورأى فيها يوسف إخوته (رمزا) مع والديه يسجدون له، حتى قالوا له: «ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً ـ تكوين ـ ٣٧: ٨»، لكن سير أحداث القصة بعد ذلك، يشير الى أن احلام الصبي قد تحققت بحذافيرها، وأن يوسف سيصير في عليين، وأن أهله سيسجدون له فعلاً، لكن في بلاد النيل، حيث تتابع الرواية سردها للأحداث فتقول:

> وأما يوسف، فأنزل الى مصر، واشتراه فوطيفار، خصي فرعون رئيس الشرطة، رجل مصري، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه هناك، وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً، وكان في بيت سيده المصري.. فوجد يوسف نعمة في عينه، وخدمه، فوكله على بيته، ودفع الى يده كل ماكان له،.. والرب بارك بيت المصري بسبب يوسف..

ثم فجأة، وبلا مناسبة، تقول الرواية المقدسة: «وكان يوسف حسن الصورة، وحسن المنظر»، توطئة للتعريف بنساء المصريين، فإن «امرأة سيده رفعت عينيها الى يوسف، وقالت اضطجع معي، فأبى»، واستمر يوسف يتأبى على سيدة القصر، حتى كان يوم «أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي، فترك ثوبه في يدها وهرب»، فما كان من المرأة التي شبقت بالاشتهاء إلا أن «نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا، قد أتى إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إليّ ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج ـ التكوين ـ ٣٩».

وبغض النظر عن الثغرات في إخراج الدراما والتي ملأتها الرواية القرآنية بأنه بدوره قد (همّ بها)، والتناقض مابين خلو البيت تماماً «لم يكن إنسان من أهل البيت هناك»، وبين صرخة واحدة فإذا أهل الدار كلهم الى غرفتها محضرين، فإن

مآل يوسف الحتمي كان السجن ، وهـو حكم لاشـك يهون مقـارنـاً بمـواقف بني اسـرائيـل من قضـايـا مشـابهة كان القضاء المبرم فيها هو الإعدام ، دون تثبيت من صحة الواقعة إن بالبراءة أو ثبوت التهمة ، فكان قرار سيد الدار المصري مقابل مثيله لدى بني اسـرائيـل قراراً يتسم بالحيطة مشفوعة بالرحمة مغلفة برغبة في التغطية على فضيحة ، كان يمكن أن تفشو ـ وقد فشت ـ لو تحدث عنها (يوسف) مع رفاق سجنه .

واستمر يوسف في علاقته الحميمة بالأحلام وهو رهين حبسه ، لكنه هذه المرة لم يكن حالماً ، إنما مفسـراً للأحـلام ، وصـدق تفسيره لأحلام رفاق السجن ، وتنبأ لأحـدهم ـ وهـو ساقي الفرعون ـ أنه سيبرأ ، ويتبوأ مكانه مرة أخرى بعد ثلاثة أيام من رؤيـاه ، فبينـما تنبأ لآخـرين بمصـير سيء بالإعـدام ، وهو مايشير الى لون من المحاكمات القضائية المقننة ، فتبرىء وتجازي وفق قواعد محددة ، وكان ماقاله يوسف محققاً في الواقع .

ثم تأتي الـروايـة المشهورة عن حلم فرعون بالبقرات السبع العجاف ، تأكل لسبع السمان ، والسنابل الملفوحة بالريح الشرقية ، تلتهم السنابل السمينة الممتلئة ، وعندما يطلب الفرعون المفسرين ، يتذكر الساقي (يوسف) كأعظم مفسر للأحلام ، فيخبر الفرعون ، فيحضرون الى البلاط ، ويتقدم يوسف بتفسيره لسيد مصر :

فقـال يوسف لفـرعـون : حلم فرعـون واحـد ، **قد أخبر الله فرعـون بما هو** صانع ، البقـرات السبـع هي سبـع سنـين ، والسنـابـل السبـع الحسنـة هي سبع سنين ، . . هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في أرض مصر ، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً .

ثم يوجه يوسف النصيحة للفرعون :

فالآن لينظـر فرعـون رجـلاً بصـيراً ، وحكيماً يجعله على أرض مصر في سبع سنـين الشبـع . . ويأخـذ خمس غلة الأرض . . فيجمعـون جميع طعام هذه السنين الجيـدة القـادمـة ، ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون . . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع .

وكـانت نتيجـة موهبة يوسف الفريدة في تفسير الأحلام، أن قدرت له تحقيق احلامه هو بعد ذلك، وهو ماسجلته رواية المقدس في قولها:

فحسن الكـلام في عيني فرعـون، وفي عيـون جميـع عبيـده، فقـال فرعـون لعبيـده: هل نجـد مثـل هذا رجـلاً فيـه روح الله؟ ثم قال فرعون ليوسف: بعدما أعلمـك الله كل هذا، ليس بصـير وحكيم مثلك، أنت تكـون على بيتي، وعلى فمـك يقبـل جميـع شعبي، إلا أن الكـرسي أكون فيه أعظم منك، ثم قال فرعون ليـوسف: انظـر، قد جعلتـك على كل أرض مصـر، وخلع فرعـون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف، . . وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا أمامه: اركعوا. .

وقـال فرعـون ليـوسف. . بدونـك لايرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر، ودعا فرعون يوسف صفنات فعنيح، وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون زوجة. . ـ تكوين ٤١.

وكـان تـولي يوسف أمـر خزانـة مصـر وشؤونهـا الاقتصـادية، مدعاة لدخول تغييرات جوهرية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المعمول بها في البلاد، فبعد أن كان الناس أحراراً، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة، وبعد أن كانـوا يملكـون أراضيهم وغـلالهم أحـراراً فيهـا، «اشـترى يوسف كل أرض مصر لفـرعـون إذ باع المصـريـون كل واحـد حـقله، لأن الجـوع اشتد عليهـم، فصارت الأرض لفـرعـون، أمـا الشعب فنقلهـم الى المدن من أقصى مصر الى أقصاه، . . فقـال يوسف للشعب: إني اشـتريتكم اليـوم وأرضكم لفـرعـون، هوذا لكم بذار فتـزرعـون الأرض، ويكـون عنـد الغلة أنكم تعطـون خمسـاً لفـرعـون. . فقالوا: أحييتنـا، ليتنـا نجد نعمة في عيني سيدي، فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر الى هذا اليوم ـ تكوين ٤٨: ٢٠ ـ ٢٦». وكان من المفهوم كيف تحول بعـد ذلـك فرعون مصر أو الفراعين عموماً، وبعدما كان الفرعون يشهد لله، وبأن الإلـه هذا هو الـذي يمنـح العبـد علمـه (بعـدما أعلمك الله كل هذا)، فامتلك الفرعون الناس والأرض، وتغيرت الأحوال، من سلطان محكوم بالقواعد، الى سلطـان مطلـق النفوذ، يدعي الالـوهيـة فيـها بعد، وهو أمر يترتب على رواية التوراة، وإن كان التوراة لاينبني على حقائق التاريخ.

أما كيف تحققت أحلام الصبي بعد اليفوع، وكيف سجد له الأحد عشر كوكباً، فهو ماتخبرنا به رواية المقدس، التي تؤكد أن الجوع لم يكن في مصر وحدها، والتي أمنت على نفسها بالحكمة اليوسفية، إنما كان الجوع شاملاً، فقد حل القحط بيعقوب وبنيه في بداوتهم، وحل بهم الشظف في سني المجاعة السبعة «فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه - إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر، انزلوا هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولانموت، فأتى بنو اسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا، لأن الجوع كان في أرض كنعان - التكوين ٤٢».

وبنزولهم مصر كان اللقاء مع سيد الخزانة، ثم التعارف، ثم إعلان يوسف لإخوته الذين بغوا عليه صغيراً «أنا يوسف، أخي أبي بعد؟ . . أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه الى مصر . . فالآن ليس أنتم أرسلتموني الى هنا، بل الله، وهو جعلني أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر، أسرعوا واصعدوا الى أبي، وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: قد جعلني الله سيداً لكل مصر، انزل إليّ فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني . . وقال فرعون ليوسف قل لإخوتك . . خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، وتأكلوا دسم الأرض . . ولاتحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم - تكوين ٤٥»، «وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت الى مصر سبعون»، «فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً في أرض مصر، في أفضل الأرض، في أرض رعمسيس، كما أمر فرعون - تكوين ٤٧».

وفي مصر، أنجب يوسف من زوجته المصرية (أسنات) ولديه «منسي وإفرايم - تكوين ٤١، وبعد زمن مات يعقوب «وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل، وكمل له أربعون يوماً، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً - تكوين ٥٠».

وعاش يوسف مئة وعشر سنين «وقال يوسف لإخوته: أنا أموت، لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض الى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً: الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، فحنطوه ووضعوه في

تابوت في مصر - تكوين ٥٠». وبموت يوسف ينتهي الطور الإبراهيمي المرتبط بالإله الأكبر (إيل).

وهنا ملحوظات سبق أن نبهنا إليها، لأنها أثارت بعد ذلك عدداً من الإشكاليات، ففي قصة التوراة نجد ذكراً لأسماء مصرية مثل (فوطي فا رع)، وهو اسم مركب يدخل فيه اسم إله الشمس المصري الأكبر (رع)، كذلك نعلم من الرواية أن (فوطي فا رع) كان كاهناً لمدينة (أون) كذلك يرد اسم مدينة (رعمسيس)، ومثل تلك الإشارات أضفى على رواية التوراة بعض المصداقية، ويشير الى معرفة واضحة للنص التوراتي لمصر في عهدها القديم، أو على الأقل معرفة كاتب ذلك الجزء من التوراة بمصر في عصرها الذهبي، وهي الإشارات التي أدت بنا في بحث بين أيدينا الآن (النبي موسى . . .) مع إشارات أخرى كثيرة، الى تاكدنا اليقين من دخول بني إسرائيل الى مصر وخروجهم منها، دون أي شك في ارتكابنا خطأ علمي بهذا اليقين.

والمسألة بالطبع، ولاتخاذ ذلك الموقف، لم تكن بالبساطة التي في عجالتنا هنا، حيث كانت الإشكاليات شديدة التعقيد، وكثيفة الروافد والمتشابكات، وربما كان أبرزها وأشدها إثارة للتضارب بين المدارس البحثية، هو أن التوراة رغم استخدامها اصطلاحات وأسماء مصرية قديمة، وعادات مصرية لم نكن على علم بها قبل كشف رموز اللغة القديمة، كطقوس الدفن، وعدد أيام التحنيط، وعدد أيام ندب الميت. . الخ، فإن التوراة جاءت عند أمور هامة وخطيرة وتجاوزتها، وبشكل يفصح عن جهل تام ومطبق بها، رغم أنها أكثر المسائل حدية وفصلاً وقطعاً في أهم نقاط ذلك التاريخ الفاصلة، وذلك مثل عدم ذكرها لاسم فرعون الدخول (فرعون يوسف)، ولا اسم فرعون الخروج (فرعون موسى)، ولا سنة الدخول، ولا الخروج، ولا أي علامات يمكن تزمينها وفك دلالاتها، رغم اهتمامها بذكر ماهو أقل أهمية بالمقارنة، مثل اسم وزير الشرطة أو كاهن أون وابنته، والأمر كله الآن مرهون بما يمكن أن نصل فيه الى رأي يمكن الإفصاح عنه عند الانتهاء من البحث في كتابنا المشار إليه، أو بما يمكن أن ينتهي إليه باحث مجتهد قبلنا.

احداث الخروج

(في الطور اليهوي الموسوي) :

ينقلنا المقدس التوراتي هنا نقلة أخرى فاصلة ومتميزة تماماً في مضامينها ودلالاتها وتحولاتها التاريخية والعقدية ، بادئاً بالإشارة الهامة «بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا كثيراً وامتلأت الأرض منهم ، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ، فقال لشعبه : هوذا إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لهم لئلا ينموا ، فيكون اذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى أعدائنا ، ويحاربوننا ، ويصعدون من الأرض ، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس ـ خروج ١ : ١ ـ ١١» .

وهكذا نعلم أن فرعون يوسف قد مات ، أو انتهى أمره بشكل ما ، ليخلفه على العرش فرعون آخر ، تحول بنو إسرائيل في عهده من التكريم والسيادة ، وأكل دسم الأرض ، الى التسخير في طين الأرض ، لأن الفرعون الجديد لم يكن يعرف يوسف!! ، واستعبدهم في بناء مدينتين للمخازن هما (فيثوم) و(رعمسيس) ، وكان واضحاً أنه يحمل روحاً عدائية شديدة ، وشكاً في علاقات الاسرائيليين بأعداء البلاد ، مع رغبة واضحة في الانتقام منهم ، لأمر غير واضح بالكتاب المقدس ، حتى أنه أمر بقتل كل ذكر يولد من بينهم «إن كان ابناً فاقتلاه ، وإن كان بنتاً فتحيا . . كل ابن يولد تطرحونه في النهر ، لكن كل بنت تستحيونها ـ خروج ١ : ١٦ ، ٢٢» .

وفي ظل هذه الأزمة ولد (موسى) أشهر رجل في تاريخ بني اسرائيل ، وهو (موسى بن عمران بن قهات بن لاوي) ، ولاوي هو أحد الأسباط أبناء يعقوب ، إسرائيل ، وذلك يعني أن موسى هو النسل الرابع ليعقوب ، وقد أنجبه عمران بزواجه من عمته (يوكابد) ، وأنجب منها أيضاً هارون أخيه الأكبر ، وشقيقتهما مريم ـ خروج ٦ : ١٤ ـ ٢٠ ، ورغم أن التوراة تؤكد لنا مسألة قتل ذكور الاسرائيليين

من أطفال، فإنها لم توضح لنا كيف نجى هارون من هذا المصير، وإن فصلت أمر نجاة موسى، حيث وضعته أمه في سفط من البردي على حافة النهر، خوفاً عليه من القتل، وعثرت عليه ابنة فرعون، فرقت له رغم علمها أنه طفل إسرائيلي وتبنته، وأرسلته مع أمه كمرضعة له بالأجر، «ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون، فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت إني انتشلته من الماء ـ خروج ٢ : ١٠».

وقد تعامل (سيجموند فرويد) مع اسم (موسى) كما تعامل (جيمس هنري برستد)، وأكد أنه اسم مصري، وانه بالترجمة الدقيقة يجب نطقه صحيحاً (مُس)، ومن ثم افترضوا أنه كان يسبقه اسم إله مصري، باعتبار (مُس) في المصرية القديمة تعني (يلد) أو (أنجب) غراراً على أسماء مثل (تحوت مُس) أي الإله تحوت أنجب ولداً، و(رع مُس) أي إله الشمس أنجب ولداً، و(أح مُس) أي إله القمر أنجب ولداً، لكن من جانبنا نرى ترجمة (موسى) بهذا الشكل متسرعة وغير دقيقة، ولو دققنا النظر في رواية التوراة، سنجد القول «ودعت اسمه موسى قائلة: إني انتشلته من الماء» لايحتاج الى تخريجات، لأن (الماء) باللسان المصري القديم (مو)[1]، وبذات اللسان نجد (سا) تعني (ابن)[2]، والإسم هنا ملصق من مقطعين ويفيد معناه (ابن الماء)، وهو اسم يتناسب مع الموقف حيث وجدته ابنة الفرعون في سفطه على سطح الماء، ولم تجد اسماً يناسبه ـ وهي لاتعلم له نسباً ـ سوى تلك التسمية البليغة، وهي بدورها تسمية مصرية قحة.

ونتابع الأحداث مع رواية التوراة فتقول:

وحدث في تلك الأيام، لما كبر موسى، أنه خرج الى إخوته لينظر في أثقالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت الى هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل، ثم خرج في اليوم

---

(١): أنطون ذكرى: مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خطوطها وأهم إشاراتها، د.ت، د.ن، ص ٨٣؛ (الكتاب تعليمي للهير وغليفية، ولا علاقة له بقصة النبي موسى).

(٢): نفسه: ص ٨٢.

الثـاني، وإذا رجـلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقـال: من جعلك رئيسـاً وقـاضيـاً علينـا؟ أمفتكـر أنت بقتلي كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وقال: حقاً قد عُرف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى، فهـرب موسى من وجـه فرعـون، وسكن في أرض مديان، وجلـس عنـد البئر، وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهـن، فأتى الـرعـاة وطـردوهـن، فنهض مـوسى وأنجـدهـن وسقى غنمهن، فلما أتـين الى رعـوئيـل ابيهن قال: مابـالكن أسـرعتن في المجيء اليـوم؟ فقلن رجـل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وأنه استقى لنا أيضاً، وسقى الغنم، فقال لبناته: وأين هو؟ لماذا تركتن الـرجـل؟ ادعونه ليأكل طعاماً، فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته ـ خروج ٢: ١٦ ـ ٢١.

وفي مديـان، يأتي الحـدث الاهم والجديد، في شؤون العقيدة الاسرائيلية، حيث يظهر لبني إسرائيل إله جديد، يلتقي بموسى في مديان، وهويرعى غنم حميه (رعوئيل) أو (يثرون)، ودلك في رواية المقدس:

وأمـا موسى فكـان يرعى غنم يثـرون حميـه كاهن مديـان، فساق الغنم الى ماوراء الـبريـة، وجـاء الى جبـل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، فنظروا واذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق.. ناداه الله من وسـط العليقـة وقـال:.. اخلع حذائك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليـه أرض مقـدسـة، ثم قال: أنـا إلـه أبيك، إله ابراهيم وإله إسحق وإله يعقـوب.. إني قد رأيت مذلـة شعبي الـذي في مصر.. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصـريـين، وأصعـدهم من تلك الأرض الى أرض جيـدة وواسعـة، الى أرض تفيض لبناً وعسلاً، الى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبـوسيـين.. فالآن هلم فأرسلك الى فرعـون وتخـرج شعبي بني اسـرائيـل من مصـر،.. فقـال موسى لله: هاأنـا آتي الى بني اسـرائيل، وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي ماأسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: إهيه الذي إهيه، وقال هكذا تقول لبني اسرائيل: إهيه أرسلني إليكم وقال الله أيضاً لموسى: هكـذا تقـول لبني اسـرائيل: يهوه إله آبائكم، إله ابراهيم وإله إسحق وإله يعقوب

أرسلني إليكم، هذا اسمي الى الأبد ـ خروج ٣ : ١ ـ ١٥ .

قل لبني اسرائيل أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، وأتخذكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً ـ خروج ٦ : ٦، ٧ .

وهكذا التقى موسى الإله (إهيه) أو (يهوه)، وفي موضع آخر بالمقدس (ياه مزامير ـ ٤٨)، ويلاحظ أن كاتب هذا الجزء، يصر على أن هذا الإله كان إلهاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب، إصرارا لايبرّره إلامحاولة تثبيت أمر جديد بالقائه في القديم، ولايلتقي مع عدم معرفة بني اسرائيل بمصر لهذا الإله او اسمه، مع استعدادهم بحكم تعاملهم في مصر مع آلهة عديدة لقبول الإله الجديد، فقط سيكون التساؤ ل عن اسمه (؟!)، ناهيك عن كونه لايلتقي إطلاقاً ولاحتى فونيطيقياً بالإله (إيل)، لذلك نجد موسى يتشكك في إمكان قبول بني اسرائيل لذلك الإله في قوله ليهوه: «ولكن، هاهم لايصدقونني ولايسمعون لقولي ـ خروج ٤ : ١»، فيعطيه يهوه دلائل إقناع إعجازية لم تظهر من قبل مع (إيل)، «فقال له الرب، ماهذه في يدك؟ فقال عصا، فقال اطرحها للأرض، فطرحها الى الأرض فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى: مد يدك وامسك بذنبها، فمد يده وأمسك به فصارت عصا في يده. . ثم قال الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك، فأدخل يده في عبه ثم أخرجها، واذا يده برصاء مثل الثلج، ثم قال له: رد يدك الى عبك فرد يده الى عبه ثم أخرجها من عبه وادا هي عادت مثل جسده ـ خروج ٤ : ٢ ـ ٧»، أما الفاصل في شأن يهوه كإله جديد، فيأتي في عبارة ملتوية للكاتب التوراتي تفصح بجلاء في قول يهوه لموسى: «أنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم ـ خروج ٦ : ٢، ٣».

ويخبر يهوه كليمه أن الخطر في مصر قد زال عنه «لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك ـ خروج ٤ : ١٩»، ولما احتج موسى لربه أنه لن يستطيع مجادلة الفرعون الجديد، في أمر خروج بني اسرائيل من مصر، لأنه «يقتل

الفم واللسان - خروج ٤ : ١٠»، و«أغلف الشفتين - خروج ٦ : ١٢»، فإنه يدعمه بأخيه هارون، ويتجه الأخوان للقاء الفرعون الذي لاتحدد الرواية اسمه.

> وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله اسرائيل: أطلق شعبي ليُعّيد لي في البرية، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل؟ لاأعرف الرب، واسرائيل لاأطلقه، فقالا له: إله العبرانيين فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية، ونذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف، فقال لهما ملك مصر: لماذا ياموسى وهارون تبطلان الشعب من أعمالهما؟ إذهبا الى أثقالكما - خروج ٥: ١ - ٤

وكان رد رب موسى:

> الآن تنظر ماأنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه. . أنا أعطيهم أرض كنعان، أرض غربتهم التي تغربوا منها - خروج ٦ : ١ - ٤.

والواضح هنا محاولة ربط التوراة بين الوعد القديم لإبراهيم من الإله إيل، وبين قبيلة راحيل أو بني اسرائيل المقيمين بمصر والإله الجديد يهوه، ولاتخفى على لبيب إشارة التوراة التأكيدية المتكررة، أن أرض فلسطين بالنسبة لبني اسرائيل هي أرض غربة لاأرضاً أصيلة لهم.

ثم تتتالى الأحداث متمثلة في معجزات متتالية، تفسرها حالة الانتقال البشري من التعامل مع الطبيعة كآلهة الى آلهة مفارقة ومنفصلة عن الظواهر، ومن صيغة الأسطورة الى صيغة الدين، وحيث كان السحر هو منهج الفكر الأسطوري وأداته الفعالة للتعامل مع الظواهر، وحيث أنه ماكان ممكناً للدين أن يبدأ من لاشيء، فقد دخل السحر في متن أدوات الدين والمنهج الجديد، وذلك قبل أن يتجاوز فيما بعد، ويحاول التخلص منه ويدينه ويستنكره، ومن ثم استخدم الدين الطالع ذات الأدوات وذات المناهج، فأمر يهوه موسى أن يطرح عصاه أمام فرعون، لإثبات أن يهوه أشد سحراً وأقوى أثراً من سحرة الأساطير ومن الطبيعة، فتتحول العصا الى ثعبان، فيستدعي فرعون مصر حكماء بلاده وسحرتهم فيفعلون الأمر

ذاته، لكن السحر الجديد، يتسم بقدرة سترفع الأمر من مجال السحر والأسطورة، الى مجال السحر والدين، كمرحلة انتقالية بشعائر وطقوس تضع المطلوب كله بيد الرب المفارق المتجرد، لكن تثبيت البدايات الجديدة، تمت بذات الأسلوب القديم، فابتلعت عصا المصريين (خروج ٧: ٩ ـ ١٢).

ثم يلي ذلك مجموعة من الممارسات السحرية في ثوب إعجازي، يبدو صراعاً بين أسلوبين من الحياة، أو بين أدلوجتين مختلفتين، بل ومتنافرتين، وتتحول العصا (عصا الراعي) الى أداة فعالة في يد النهج الرعوي، لرأب صدع نفسي إزاء أهل الخصب، تلك الحالة النفسية التي كثيراً ماغذتها حاجة البدو الدائمة للانتجاع على حدود البلاد المستقرة حول الأنهار، طلباً للقوت، والإغارة في أحيان كثيرة على تلك الحدود، لسلب المحصول بعد جمعه، بشكل دوري سجله لنا التاريخ، ومن هنا يقوم يهوه بتدمير كل مظاهر الخصب والنماء، في الضربة الأولى للمصريين:

> قال الرب لموسى: قل لهارون: خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين، وعلى سواقيهم، وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً، فيكون دم من كل أرض مصر. فتحول كل الماء الذي في النهر دماً، ومات السمك الذي في النهر، وأنتن النهر، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر، وكان الدم في كل أرض مصر. وحفر جميع المصريين حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر ـ خروج ٧: ١٩ ـ ٢٤.

وهكذا ينتقل الصراع الى تدمير عصب الخصب ممثلاً في النهر، وتتحول عن كونها محاولة للخروج والتمرد يقودها موسى أمام فرعون، الى عقاب جماعي يصيب كل شعب مصر، النقمة هنا تتحول لكيان المجتمع كله، فتأتي الضربة الثانية من يهوه لمصر:

> ثم قال الرب لموسى: قل لهارون: مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام، واصعد الضفادع على أرض مصر. فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر ـ خروج ٨: ٥، ٦.

ويتبعها مباشرة بالضربة الثالثة :

ثم قال الرب لموسى قل لهارون : مد عصاك واضرب تراب مصر ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر ـ خروج ٨ : ١٦ .

كذلك تأتي الضربة الرابعة ضربة حشرية بدورها :

قال الرب لموسى : بكر في الصباح وقف أمام فرعون ، إنه يخرج الى الماء ، وقل له : هكذا يقول الرب : أطلق الشعب ليعبدوني ، فإنه إن كنت لاتطلق شعبي ، هاأنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان ، فتمتلىء بيوت المصريين ذباباً . . ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم ، حتى لايكون هناك ذبان ، لكي تعلم أني أنا الرب في ارض ، وأجعل فرقاً بين شعبي وشعبك ـ خروج ٨ : ٢٠ ـ ٢٤ .

ثم ينقل يهوه ضرباته من الحرب الحشرية الى الحرب الجرثومية ، بدءاً من الضربة الخامسة :

فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل ، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم ، وباء ثقيلاً جداً ، ويميز الرب بين مواشي اسرائيل ومواشي المصريين . . فماتت جميع مواشي المصريين ، وأما مواشي بني اسرائيل فلم يمت منها واحد ـ خروج ٩ : ٣ ـ ٦ .

كذلك جاءت الضربة السادسة جرثومية بيولوجية بدورها :

ثم قال الرب لموسى وهارون : خذا ملء أيديكما من رماد الأتون ، وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون ، ليصير غباراً على كل أرض مصر ، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر ـ خروج ٩ : ٨ ـ ١٠ .

وبضربته السابعة ، يتحول يهوه نحو الطبيعة مرة أخرى ، ليجعل خيرها نقمة :

ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء ليكون برداً في كل أرض مصر . .

فاعطى الرب رعوداً وبرداً، وجرت نار على الأرض، وامطر الرب برداً على أرض مصر،فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد، شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر، منذ صارت أمة فضرب كل أرض مصر، جميع مافي الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان حيث كان بنو اسرائيل، فلم يكن فيها برد ـ خروج ٩: ٢٢ ـ ٢٦.

ورغم كل ذلك الدمار والهلاك، يظل الفرعون مصراً على عدم إطلاق بني اسرائيل، ويعود يهوه الى الحرب الحشرية، ليقضي تماماً على بقايا أي أثر للخصب في أرض مصر، فبعد البرد الذي قضى على الشجر ونبات الحقل، تأتي الضربة الثامنة في أمره لموسى:

مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد على أرض مصر، ويأكل عشب الأرض، كل ماتركه البرد، فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض مصر، وحل في جميع تخوم مصر، شيء ثقيل جداً، لم يكن قبله جراد هكذا مثله، ولايكون بعده كذلك، وغطى وجه الأرض حتى أظلمت الأرض، وأكل جميع عشب الأرض، وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد، حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل، ، في كل أرض مصر ـ خروج ١٠: ١٢ ـ ١٥.

ولم يكتف يهوه بذلك مع إصرار الفرعون على موقفه، فعاد يُقَلِّب ظواهر الطبيعة بضربته التاسعة:

ثم قال الرب لموسى: مد يدك نحو السماء، ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يلمس الظلام، فمد يده نحو السماء، فكان ظلام دامس في كل أرض مصر، ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بني اسرائيل كان لهم نور في مساكنهم ـ خروج ١٠: ٢١ ـ ٢٣.

وتبقى الضربة العاشرة، والقاضية، التي ستجبر فرعون على إطلاق شعب

الرب، وقبلها يقول لموسى :

> ضربة واحدة أيضاً . بعد ذلك يطلقكم من هنا، وعندما يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام، تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة من صاحبتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين ـ خروج ١١ : ١ ـ ٣.

هنا نعلم أن الاسرائيليين كانوا يقيمون وسط المصريين، ولانعلم كيف أصابت كل تلك الضربات المصريين دون الاسرائيليين، لكن الأهم هنا هو إيعاز الرب لموسى بأن الفرعون ـ مع الضربة القادمة ـ سيطلق بني اسرائيل، لذلك كان عليهم رجالاً ونساء أن يطلبوا من أصدقائهم (أصحابهم) المصريين، ذهبهم وفضتهم، مما يشير في جانب آخر الى مودّة من المصريين للغرباء المقيمين بينهم، مما يجعل التساؤ ل عن ضرب شعب مصر بكل تلك الضربات ومبر راتها سؤ الاً مشروعاً، أما أن يأمن المصريون للغربان، ويعطونهم ذهبهم وفضتهم إعارة، فذلك يضع أمامنا موقفهم موقفاً نبيلاً، ويدعو للتشكك في قصة تلك الضربات جميعاً من أصلها.

وتأتي الضربة العاشرة، ويهبط يهوه بنفسه ليقتل بيده كل بكر من أبناء مصر:

> وقال موسى : هكذا يقول الرب : إني نحو منتصف الليل، أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، الى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر ـ خروج ١١ : ٤ ـ ٦.

ويأمر يهوه شعبه أن يلطخ كل منهم عتبة بيته بدم الخراف، ليميزوها عن بيوت المصريين، قبل وقوع ضربة قتل الأبكار، أما السبب فهو كي :

> يكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب كل أرض مصر ـ خروج ١٢ : ١٣.

وهنـا تأكيـد آخـر للتفشي في السكنى للاسرائيليين بين المصريين، أما الأهـم، فهو أن يهوه يعلم هنا أنه سيصاب بلوثة القتل، وأنه لن يميز في تلك الحال بين بيوت جماعته وبين بيوت المصريين، إلا اذا رأى دماً على البيوت، تلك الدماء التي ستوعز له أنه قد انتهى من أمر سكانه وقتل أبكاره، فيعبر عن تلك البيوت ولا يصيبها، وهو في حالـة التخبـط في دمـاء المصريين، وفي تلك الليلة، حيث «كان صراخ عظيم في مصـر، لأنـه لم يكـن بيـت ليس فيـه ميت - خروج ١٢ : ٣٠» تقـرر خروج بني اسـرائيـل، دون عزاء لأصحـابهم من مصـريـين، لكنهم قبـل تلك الضربة، التي مارس فيها يهوه نزوته الدموية:

فعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبـاً، وثيـابـاً، وأعطى الـرب نعمـة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس - خروج ١٢ : ٣٥ - ٣٧.

وتأتي الضـربـة الحـاديـة عشـر الأخيرة، عندما قام ملك مصر وجيشه يطارد الهاربين، حتى أدركوهم عند بحر سوق، وهنا كانت المعجزة الكبرى:

ومـد موسى يده على البحـر، فأجـرى الـرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليـل، وجعـل البحر يابسة، وانشق الماء، فدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليـابسـة، والمـاء سور لهم عن يمينهم وعن يسـارهم، وتبعهم المصـريـون ودخلوا وراءهم. . فمـد موسى يده على البحـر، فرجع البحر عند إقبال الصبح الى حاله الـدائمـة. . فدفـع الـرب المصـريـين في وسـط البحر - خروج ١٤ : ٢٧. (وبعد الخروج) كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا ليلاً ونهاراً - خروج ١٣ : ١١.

وعلى قصة الخروج تلك، بكل تفاصيلها، أقام الباحث الصهيوني إيمانويل فليكـوفسكي عمله الهـائـل، الـذي انتهى فيـه الى تأكيد كل الأحداث التي روتها التـوراة، بكـل تفـاصيل ضربـات يهوه ومعجزاته التي صاحبت الخروج، وهو الأمر الـذي يرضي الجـانب الإيـماني ليس فقط عند أصحاب يهوه إنما لدى المسيحيين، بل

والمسلمين بدورهم، فهو يشرح لهم عملية إنشقاق البحر وتاريخيته، ومارافقه من قبل ومن بعد، من أحداث كسرت قوانين الطبيعة وقواعد الكون الثابتة، لكنه يأخذ الجميع في سلة واحدة، بعد تأسيس المقدمات العلمية للقواعد الإيمانية، الى نتائج لابد من التسليم بها اذا كانوا متسقين مع إيمانهم ومع أنفسهم، وهي نتائج أبعد ماتكون عن أمانينا الوطنية والقومية، واذا كان ثمة شرخ أصيل في الذات، مابين بعض المقررات الإيمانية التي تتناول بني اسرائيل، ومابين الأماني الوطنية والقومية، فإن فليكوفسكي لايفعل شيئاً سوى وضع القواعد الإيمانية على محك العلمية، يثبت صدقها الكامل، ولايبقى لدى قارىء طيب النوايا: سوى الأخذ بالكفة الراجحة إيمانياً، وهو تسليم رسم له فليكوفسكي خطته ببراعة الى محطة الوصول، بحيث يصادق الجميع من خلال عقائدهم على حق اسرائيل التاريخي، في التاريخ، وفي الأرض، بل وفي صفتهم كشعب فضله الله على العالمين.

أما نحن، فلا بأس عندنا في البحث عن أسس تلك الأحداث التي روتها التوراة والتي اكتست بثوب الإبهار الإعجازي في التاريخ الاسرائيلي، ولابأس لدينا، ولاعلينا، إن وجدنا لها تبريراً لايصادم العقائد الثابتة، لكن دون افتتان على حقائق التاريخ وعلمية المنهج، وبغرض وضع ذلك التاريخ وتلك الأحداث في حجمها الصحيح، ومقامها الفعلي من التاريخ، وهو مانسعى وراءه الآن في بحث بين أيدينا، لانعتقد أن الانتهاء منه يسير أوحتى قريب، وهو كما أشرنا بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولانستطيع هنا الإدلاء بشهادات حول الأجزاء التي انتهينا منها، لوضع فرضيات وقرائن نناطح بها فليكوفسكي، فالعمل لازال مشروعاً قابلاً للتعديل كل لحظة، فقط أردنا هنا القول: إنه بالإمكان حل إشكاليات التاريخ الاسرائيلي، ليس بنزوع عنصري، إنما بغرض علمي تماماً، لايستطيع أحد أن يصادر عليه، وذلك بالتعامل مع الأحداث الإعجازية في ذلك التاريخ، باعتبارها مواداً قابلة للفحص، والإمساك بها، بحيث يمكن ضبطها ضبطاً دقيقاً، يضعها في حجمها، دون إهمال بعضها لصالح بعض، أو تضخيمها لتتحول الى كتلة ضاغطة على ضميرنا الوطني وحسنا القومي، الذي ربما كان يبحث بعصبية وتوتر، عن مفاضلة ما تجرح بعد المقررات الإيمانية التي لايصح

جرحهـا ، أو تصـادم في جانب آخـر تطلعات وطنية وقومية مشروعة بدورها ولا يصح التنـازل عنهـا ، كالمفـاضلة بين شعب مصـر القـديم وتاريخه العريق وفراعنته ، وبين جماعة اسرائيل التي اتسمت بالقداسة وامتلكت أنبياء ومعجزات ثابتة أقرتها الأديان التـاليـة لهم كما حظيت بعـلاقـة خاصـة بالإلـه ، سمحت بمنحهم تلك المنح والأعطيـات ، أو المفـاضلة بين ملوك اسـرائيل وجماعتها ، وبين ملوك كنعان وشعبها الفلسطيني ، وهي المفـاضلة التي يمكن أن تؤرق الضمـير الـوطني ، أو تجرح الحس العقـائـدي ، في حال لزوم الاختيـار مابـين فرعـون ومـوسى ، أو المصـريـين والاسـرائيليـين ، وكـذلـك مابين جالوت وداود ، أو الفلسطينيين والاسرائيليين ، ومن ثم نسـير بهدوء في بحثنـا المشـار إليه ، دون استعجال قبل تحقق واستبانة ، لنقرأ حقائق الأحـداث التي جرت على أرض مصـر ، وتحـولت من أحـداث مجتمعية وسياسية ، وصراعات طبقية وقومية ، ورافقتها ـ ربما ـ ظواهر طبيعية ، الى ورم هائل يجثم على صدر تاريـخ العـالم وضمـيره ، لكن ذلـك كله شيء ، وتأجيـل التعـامـل مع كتاب فليكوفسكي شيء آخـر ، لايقبـل الإرجـاء ، وما على قارئنا إلا أن يشمر عن همته ، لنتابع معاً تنظيرة بني اسرائيل التاريخية ، وممكناتنا في التعامل معها ، في بابنا الثالث (التضليل) .

البـاب الثالث

التضـليـل

التأسيس

تأسيس - ١ -

ربما سمحت لي علاقة امتدت زمناً بالتراث القديم للمنطقة، أن أجازف بالزعم: أنه اذا كان النبي (موسى) - حسب المأثور التوراتي - هو المؤسس الحقيقي للديانة اليهودية، والعقدة الرابطة للقبائل التي ائتلفت في كيان كونفودرالي عرف بعد ذلك بشعب اسرائيل، وأنه اذا كان (شاول) و(داود) و(سليمان) هم أصحاب الفضل في إقامة أول كيان سياسي مركزي لذلك الشعب، فإن (إيمانويل سيمون فليكوفسكي) هو صاحب أهم وأخطر وأثرى تنظير تاريخي لما يسميه هو (القومية الاسرائيلية)، في كتابه الذي اكتسب شهرة عالمية في الأوساط العلمية كافة، والموسوم بعنوان (عصور في فوضى)، والذي انتهى من كتابته في شهر فبراير من عام ١٩٥٢م[1].

وقبل قراءتي لذلك الكتاب، والتي جاءت متأخرة، بل ومتأخرة جداً فيما يبدو، قضيت وقتاً أحاول فيه البحث لفهم سر الادعاء الاسرائيلي، بأن أسلافهم الغوابر هم بناة أهرام مصر، ومعظم أعلامها الآثارية، وأنهم أصحاب الأصل

---

١ - إيمانويل فليكوفسكي: عصور في فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد.

الرفيع لثقافات المنطقة الشامية منذ فجر التاريخ، ولما لم يهدني البحث الى تفسير أي من تلك المعاني، لم أجد سوى أن القوم قد استمرأوا زهواً تاريخياً زائفاً، وأن الأمر لايزيد عن كونه مثل كثير من السذاجات والأساطير والمبالغات المسطورة بكتابهم المقدس، الذي هو كتاب لتاريخهم في المقام الأول، حيث اكتست فيه أحداث التاريخ وتلبست بألوان عديدة من المبالغات المغرقة في الأسطرة، واحتسبت ذلك الادعاء كلون من مغامرات يشوع وشمشون وداود وسليمان، لكني عندما طالعت (عصور في فوضى)، اكتشفت أن الأمر جد خطير، وأخطر بكثير من كتابات أسطورية قديمة كانت تلائم بنية التفكير في عصرها، وأن احتساب دعواهم كبناة وكعماد أساسي لحضارة المنطقة في عصرها القديم مجرد سذاجة، لهو موقف في منتهى السذاجة، لأن في الأمر أمراً، وللادعاء حيثيات وقرائن وشواهد ودلائل وبراهين، قام على جمعها وتصنيفها بأسلوب عصرنا، وصياغتها بالمنهج العلمي الصارم، رجل من نوع نادر، وباحث من طراز فذ، هو الروسي (فليكوفسكي).

ورغم الواضح للوهلة الأولى، أن (عصور في فوضى) كتاب يخدم غرضاً سياسياً وعنصرياً من ألفه الى يائه، فإن الأوضح كان قدرة المؤلف على البحث الدؤوب الذي لايكل، وامتلاكه جَلداً على التقصي المضني لايبارى، وسعياً لايفتر - من أول كلمة خطها الى الختام - وراء القرائن والبراهين التي تدعم فروضه وطروحاته لتحولها الى بناء راسخ القواعد، مع لهاثه خلال حقبة زمنية طويلة مكتظة بالأحداث والمتغيرات، وفي مساحة شاسعة من أثرى مساحات العالم القديم بالراسب الثقافي الذي لم يزل فاعلاً الى اليوم، وبين متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تلاحقت في كافة الاتجاهات، وتركت بصماتها على نقوش ورسوم ودلالات حفرية، وكتابات ذات طرائق مختلفة باختلاف الأصول اللغوية لمواطن متباينة، مما كان كفيلاً بجعل أي باحث يقبع وسط شرك من خيوط عنكبوتية متشابكة وكثيفة، يحتاج فكها وفحصها - وإعادة نظمها مُرتبة - الى صبر ودقة ووعي نقّاذ، وربما كان البحث مع البدء عن طرف الخيط فيها، كان لايزيدها إلا تشابكاً واضطراباً، وهنا سر عظمة الرجل، الكامن في القدر العجيب من الصبر، الذي لازمه طوال رحلته مع ذلك الرتل المختل بالأصول، في سياق قصصي لين سهل،

صيغ بلون روايات التحري المباحثية، مما جعله - في رأينا - بحق، صاحب أخطر تنظير معاصر لما يسمى القومية الاسرائيلية، بحيث لايتخلف درجة عن موسى أو سليمان، وذلك بعينه ماجعله (النوتة) الأصلية لكل المعزوفات الصهيونية، التي لم تفعل أكثر من إعادة توزيع المعزوفة حسب المقامات المطلوبة، وهذا - أيضا - ماجعله صاحب أخطر فكر يشكل قدراً هائلاً من الإقناع، حتى لدى الخصوم السياسيين، بل ولدى الخصوم المصيريين، وهذا - أيضاً - ماجعله - يعقد المقارنات - يزيد في تقزيم مؤسساتنا الفكرية، التي لم تقدم على عراقتها وممكناتها عملاً على ذات المستوى، وربما جاز لتلك المؤسسات مراجعة مناهجها وطرائقها وأدواتها، التي أثبت هذا العمل مدى هشاشتها وهزالها رغم منتجها الكمي الضخم.

ولايجوز أن يفهم من كلامنا هنا، دعوة الى رد من النوع ذاته، رد عنصري أو قومي، فهذا أبعد مايكون عما نريد، لكن ربما طلبنا عملاً على ذات الدرجة من الأصولية العلمية، وعلى ذات القدر من التمكن من أدوات العلم، والتي تمكن بها (فليكوفسكي) من تطويع مادته التاريخية، لخدمة أغراض أبعد ماتكون عن العلمية، مع رغبتنا في تسجيل ملحوظة لابد منها في حال المقارنة بين عمل مثل (عصور في فوضى) وبين أعمال أخرى تزحم أرفف مكتباتنا، ولاحول لها ولاقوة إلا بالله طبعاً، وتكاد تأخذنا الريب والظنون بشأن ذلك الرتل من الزحام في المكتبة العربية، والذي يفصح - بتناوله - عن عمد للطرق السهلة، والابتعاد عن مكامن الإشكاليات الحقيقية في التاريخ القديم، لما يحتاجه تناولها من جلد وصبر ودأب مخلص وجدية علمية متناهية، وهو - في عرفنا - أعظم أنواع النضال إطلاقاً. نقول ذلك في الوقت الذي نؤكد فيه أن (عصور في فوضى) لايمكن احتسابه نتاج باحث فرد هو (فليكوفسكي)، فلا ريب يراودنا أنه كان (المايسترو) الذي خطط وقاد ووجه فريقاً من المتخصصين بالمراكز الأكاديمية العالمية، والتي بدون معونتها ودعمها ماكان ممكناً إخراج مثل ذلك العمل.

ولاريب لدينا أن تلك المؤسسات قد عملت لحساب ذلك العمل، وجمعت له المادة العلمية النادرة من الوثائق القديمة، وبحثت له بين قوالب الآجر وقطع

الفخار ونقوش المعابد، وباللغات المسمارية سومرية أوسامية، أكادية أوكنعانية أو حثية أو آرامية أو عبرية، أوخطوط هيروغليفية متناثرة، تجد نصف البردية منها في نيويورك، والنصف الآخر في لينينجراد، وقامت على ترجمة كل تلك الوثائق للباحث الفذ، مع إيضاح إمكانات الاحتمال فيها، مابين صدق نسبتها لعصرها أولغيره، عبر مقارنات للنص بالعصور من حيث شكل الأسلوب والكتابة والبلاغيات ومايحكيه من أحداث، وهل يوافق ذلك العصر الفلاني أم ذاك، مع بيان مواضع الثغرات التي يمكن للرجل أن يتسلل من خلالها لدعم توجهاته، وباختصار قدمت له جهداً كان يحتاج أي باحث آخر لإتمامه، أن يعيش قرنين من الزمان على أدنى تقدير، مما أهله في النهاية للخروج بسفره هذا، الذي يصح لأصحابه أن يضعوه بفخر في مقدمة أسفارهم، ليقف منتصباً بين التوراة والتلمود والهجادا والمشنا والمدراش.

وحكمنا هذا، الذي نزعم فيه دعم مؤسسات أكاديمية عالمية لصاحب هذا العمل، يتأسس على معرفتنا، وبحكم درايتنا، بتلك المادة الوثائقية القديمة، وعلمنا اليقيني بالحدود القصوى التي يمكن أن تصل إليها قدرات باحث فرد، لإنتاج مثل ذلك العمل، وعلى حكمنا هذا نراهن بسمعتنا العلمية، والعمل مطروح على السادة المتخصصين، بل وكان موجوداً لديهم من زمن، بينما نحن الذين تأخرنا في إعطائه أهمية تجعله جديراً بالقراءة، ولاشك أن بعضهم قد طالعه ـ مع شهرته العالمية ـ خلال الفترة مابين عام ١٩٥٢ وحتى اليوم، ولاشك أيضاً أن هؤلاء البعض قد آثروا السلامة، لأنه اذا كان الكلام من فضة، فإن مع فليكوفسكي سيكون السكوت من ذهب.

تأسيس ـ ٢ ـ

ولأن الباحث كثيراً مايقابل مدهشات لايجد لها تفسيراً، فمن الطبيعي أن تقابلنا مثل تلك المدهشات، لكن أشد ماأثار عجبي من بينها، هو دأب الباحثين العرب، في تنظيراتهم التاريخية للقومية العربية، الإشارة، والإشادة بمملكة عربية

قديمة عظمى، بلغت سمت الإمبراطوريات[٢]، وأن هذه المملكة شملت شرقي المتوسط كاملاً (بلاد الشام والرافدين وجزيرة العرب ومصر وبعض جزر المتوسط الشرقية)، وأن عرب تلك الإمبراطورية هم من جاء ذكرهم عن المؤرخ المصري (مانيتون Manithon) الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، باسم (الهكسوس)، وهو الاسم الذي ترجمه لنا المؤرخ (يوسفيوس Josphus) بمعنى الملوك الرعاة، بحسبان الكلمة (هكسوس) ملصقة من مقطعين: الأول (هك) بمعنى (ملك) في اللغة المصرية المقدسة (الهيراطيقية) والثاني (سوس) وهي في المصرية الدارجة - فيما زعم - تعني (راعي).

وكان مصدر دهشتنا من باحثينا القوميين آنذاك، هو إطلاقهم ذلك الزعم مرسلاً، دون شواهد أو بينات أو دلائل أركيولوجية، أو حتى مستخلصات من قراءة للنصوص القديمة، أو من عمليات تحليل وتركيب لنصوص بعينها مقارنة بأخرى، مما دفعنا لهاجس أن رجالنا قد أقاموا الأمر برمته على كون (الهكسوس) بدوا رعاة، وأن العرب بدو رعاة، وكفانا بذلك دليلاً. لكن المأساة الحقيقية تكشفت لنا بعد قراءة (عصور في فوضى)، حيث اكتشفت أن ذلك الكتاب الذي يضع النظرية التاريخية للقومية الاسرائيلية، كان هو المدد الأول لأصحاب فكرة إمبراطورية الهكسوس العربية، وبذلك قدم باحثونا رداً على ذات الدرجة من العنصرية، وإن لم يكن على ذات الدرجة من الكفاءة، وهو الأمر الذي لايتضح إلا بقراءة الكتاب، أو القسم الأول منه على الأقل، وهو الدعامة الأساسية للعمل بكامله.

ومن هنا تجدنا بحاجة الى تقديم عجالة موجزة لذلك القسم الضخم من الكتاب، ولاشك أن أي عملية إيجاز له لن تؤدي مايمكن أن تؤديه قراءة العمل ذاته، لأن كل كلمة فيه وضعت في موضعها بمقاييس دقيقة، وكل عبارة فيه، وكل

---

٢ - انظر على سبيل المثال فقط: د. أحمد شلبي: مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤٤، ٥١، ومابعدها. انظر أيضاً محمد حسين الفرح، أعداد مجلة المنابر من ٣٢ الى ٤٠ (هذا ماوصلنا حتى كتابة هذه السطور)، بيروت، والموضوع بكامله بعنوان: الحضارات العربية الكبرى في العصور القديمة.

فقرة، كان عليها دور يجب أن تؤديه كما هو محسوب ومخطط له تماماً، وبدونها يفقد لعمل بعض تأثيره وقدرته، لكننا هنا مضطرون لذلك، حتى يمكننا أن نقدم التحليل اللازم لذلك القسم من الكتاب، والذي قامت على أعمدته بقية فصول الكتاب، التي جاءت فقط لدعم ومساندة القسم الأول منه.

تأسيس - ٣ -

من المستحسن هنا أن نبدأ بالإهداء الذي صدر به (فليكوفسكي) كتابه، والذي يستحق التسجيل كاملاً دون تدخل، لأنه يفصح بجلاء عن الرجل وهويته وأهدافه، والروح التي كتب بها كتابه. يقول:

«هذا العمل مهدى الى أبي، وأحب أن أوضح في بضعة أسطر، من هو سيمون إيمانويل فليكوفسكي؟ منذ ذلك اليوم، وهو في الثالثة عشرة من عمره، حين غادر منزل والديه، وذهب سيراً على الأقدام، الى واحد من تلك المراكز المتخصصة في تدريس التلمود بروسيا، وحتى يوم وافته المنية في ديسمبر ١٩٣٧ على أرض اسرائيل، كل ذلك العمر، مع ثروته وراحة باله وكل مايملك، كرّسه لتحقيق ماكان يوماً مجرد فكرة، ألا وهي إعادة بناء نهضة الشعب اليهودي على أرضه القديمة، لقد أنجز الكثير لإحياء لغة الكتاب المقدس، وتطوير العبرية الحديثة، بإنجازه مع الدكتورج كلوشنر كمحرر للأعمال العبرية القديمة المجمعة، كما ساهم في إحياء الفكر العلمي اليهودي، بنشر كتابه المخطوطة العالمية، من خلال المؤسسة التي سبق له إنشاؤها، وكانت تلك الأعمال بمثابة البنية التحتية، التي قامت عليها أعمدة الجامعة العبرية بالقدس بعد ذلك، كما كان من أوائل من استعادوا الأرض في النقب، أرض الأحبار، وأنشأ هناك أول مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم: ردحاما، وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة شمالي النقب، ولاأعرف لمن أتوجه بالعرفان في إنجاز هذا العمل الفكري، في إعادة بناء التاريخ القديم، إن لم أتوجه به الى أبي سيمون».

الأمر واضح من البداية، لكنه رغم وضوحه، وإمكان اتخاذ مواقف مناسبة

من جانب القارىء إزاء ماسيطالع ، بعد الصدمة النفسية لذلك الإهداء ، فإن الرجل غامر وصدّر به الكتاب وهو واثق تماماً من قدراته ، ويعلم سلفاً الى أي حد يمكن أن يؤثر في قارئه ويزحزحه عن موقفه ، إن لم يجعله يتبنى في النهاية كل اطروحات الكتاب عن قناعة ، وهنا قمة خطورة الرجل والكتاب.

ولعل الغرض الأساسي للكتاب قد وضح في الإهداء ، في قوله : «هذا العمل الفكري في إعادة بناء التاريخ القديم» ، وفي الفصل الأول يشرح دوافع ذلك الغرض بقوله : «لقد تبنى الكثير من الدارسين رأياً خلاصته ، أن إقامة الاسرائيليين بمصر واستعبادهم وخروجهم ورحيلهم ، مجرد تصورات دينية بحتة ، وقد لقي هذا الرأي تعضيداً قوياً ، في غياب أي دليل مباشر على وقوع تلك الأحداث في الآثار المصرية القديمة ، أو في المدونات البردية ، وعلى العكس من ذلك تبنى آخرون وجهة نظر مضادة ، فحواها أنه من العسير أن يخترع شعب أساطير عن العبودية ، والتي لم يكن في الحسبان وقتها ، أنها ستحفز وتخلق كرامة قومية ، وعليه فلابد من وجود أسس تاريخية للقصة» . وإن (فليكوفسكي) من أصحاب وجهة النظر الثانية ، فقد كرر الحديث عن دوافع الكرامة القومية لشعب اسرائيل ، كما في قوله : «إن الرجوع الدائم بالذكرى اليهودية لتجربة البحر ، يوحي بأن القصة كلها لم تكن من نسج الخيال . . . والغريب حقاً هو مثابرة الشعب اليهودي على التعلق بهذه القصة ، جاعلاً منها بدايته الحقيقية ، وجاعلاً منها في الوقت ذاته ، الحدث الأكبر في حياته وتاريخه كأمة» .

ومن ثم تصبح الكارثة التي صحبت الخروج ، وانشقاق البحر ، الركن الأساسي في عمل (فليكوفسكي) ، حتى أنه يذهب الى أن «الخروج اليهودي من مصر ـ لابد ـ قد حدث في قمة فوران الأحداث ، وأن الكارثة بالذات ، ربما يمكنها البرهنة على كونها كانت الحلقة الرابطة للتاريخ الاسرائيلي بالتاريخ المصري ، القديم» ، ومن هنا يبدأ بتأسيس موطىء قدم لقبائل بني اسرائيل في التاريخ ، ذلك التاريخ الذي لايعرف شيئاً عنهم في وثائقه ، وذلك بدءاً من أحداث الخروج ، تلك الأحداث الأكثر أسطورية في الميثولوجيات القديمة ، والتي ينجو فيها شعب اسرائيل ويغرق المصريون وفرعونهم ، لكن ليجعل تلك الأحداث بعد عدة فصول ـ وسط

إثـارة رائعـة حقـاً وأسلوب متميـز وقـرائن منتقـاة ـ من أشد الأمور قبولاً واعتيادية، بحيث لايجـد القـارىء بعـدهـا مانعـاً في قبـول ميثـولوجيات أقل إدهاشاً بالكتاب المقـدس، والتي سيعـالجهـا في بقيـة أقسام الكتاب، والتي لاترقى الى مستوى شق البحـر إغـراقـاً في الأسطـرة، معتمـداً على إثـارة الـدهشة وبأسلوب المباغتة، التي يتحول فيها الواقع إلى منظومة أسطورية، بينما تتحول أحداث الأسطورة الى وقائع حية وفاعلة.

من تلك الحـادثـة (حـادثـة البحر) ينطلق (فليكوفسكي) ليؤ سس فروضه، تلك الفـروض التي تقف بدورهـا كأمـر نافـر عسـير القبـول، لكنـه مدهش ومثـير وجـديـد، ومـع مخالفتـه لكـل ماتم التعـارف عليه حتى الآن، والفرضية الأساس عنده تبـدأ من كون مدونـات التـاريـخ القديـم سواء في مصر أو الشام أو الرافدين أوحتى فلسطـين ذاتهـا، لاتعـرف شخصـاً باسم (مـوسى) رغم أهميته القصوى في التاريخ اليهـودي وفي تاريـخ الأديـان الكـبر ى في الشـرق الأوسـط عمومـاً، ولاتعرف ملكاً أسس مملكة لشعب اسرائيل باسم (شاول)، ولاعظيماً باسم (داود)، ولاحكيماً حاز شهـرة فلكيـة في التـاريخ الديني باسـم (سليمان)، كما لايعلم علم التاريخ شيئاً البتة عن دخول قبائل بني اسرائيل الى مصر، ولا عن خروجها ولا عن بحر ينشق ويبتلع جيـوش دولـة عظمى آنـذاك، وهـو الحدث الذي كان جديراً بالتسجيل في مدونات مصـر والشـام والـرافـدين لأهميته وخطورته، بينما على الجانب الآخر نجد الكتاب المقـدس في الأسفـار من الخروج الى القضاة لايذكر مصر إطلاقاً، ولايحكي أحداثاً عنها كعادته، وهو زمن امتد زهاء أربعة قرون، رغم المفترض تاريخياً أن الخروج قد حدث زمن الأسـرة الثامنة عشرة الفرعونية، أولى أسرات الدولة الحديثة المعروفة بدولة الإمـبراطـوريـة، وهـو زمن كانت مصـر تسيطـر فيـه على بلدان المتوسط الشرقية، وبضمنها فلسطين.

ومن هنـا يتأسس العمـل كله على فرضيـة تذهب الى أن ثمـة خطأ وقـع في تأريـخ التـاريـخ المصري القديم، حيث ـ وهذا رأي (فليكوفسكي) ـ توقف تاريخ مصر عند لحظة محددة مع نهـاية الأسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى، مع دخول الهكسـوس الى مصـر، ولأن هؤ لاء الغـزاة كانـوا بدواً برابـرة لايحترمون الحضارة،

ولايعرفون حتى الكتابة، فقد حطموا حضارة مصر، ولم يحاولوا أن يتعلموا شيئاً من المصريين، لذلك لم يتم تدوين شيء ذي بال طوال فترة الاحتلال، هذا بينما كان بنو اسرائيل وقت دخول الهكسوس الى مصر، في طريق الخروج لشبه جزيرة سيناء، ووقت فوران أحداث جسام لم تسمح بتدوين واضح كامل لتلك الأحداث، أما كون بني اسرائيل كانوا في مصر قبل دخول الهكسوس، وفي زمن أسبق سمح لهم بالتكاثر مدة طويلة في أرض النيل، فإن ذلك سيعود بنا الى عهد بناة الأهرام في الدول القديمة. ومكمن الخطأ، يكمن في أن المؤرخين قد قاموا بوصل نهاية الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة الوسطى (١٧٨٨ ق.م) ببداية الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة بعد التحرر من الهكسوس (١٥٨٠ ق.م)، ولم يتركوا للأسر من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة سوى مئتي عام تزيد قليلاً، يتم تقسيمها على مجموعة الأسر المصرية والهكسوسية خلال خمس أسر كاملة، بينما يرى (فليكوفسكي) أنه قد سقط من ذلك التاريخ - بالإضافة الى المئتي عام المفترضة - مالايقل عن أربعمائة عام كاملة، هي زمن قضاة اسرائيل، وزمن احتلال الهكسوس لمصر، وعليه فيجب أن تكون بداية الأسرة الثامنة عشرة، التي أسسها (أحمس) الذي قضى على الهكسوس، واقعة في تاريخ يبعد عما حدده المؤرخون بأربعة قرون إضافية، أي يجب أن تكون بدايتها بين ١١٨٠ و١١٠٠ ق.م على وجه التحديد.

والخطورة عند (فليكوفسكي) في ذلك الخطأ، لاتكمن في اختلال تاريخ مصر، أو في سقوط ذكر بني اسرائيل من التاريخ، إنما ينسحب الخطأ على عمليات التأريخ لحضارات المنطقة بكاملها، حيث كان التاريخ المصري هو المعيار الذي قيست بالنسبة إليه عهود الحضارات الأخرى وتم تزمينها وفقه، ومن هنا جاز له القول: «إن تاريخ الآشوريين والباليين والفرس قد تم تشويهه وتخريبه، وتاريخ الإمبراطورية الحثية قد اخترع بأكمله، وكذلك التاريخ اليوناني في عصره البرونزي لم يوضع في موضعه الحقيقي من السياق الزمني، كما تم تشويه التاريخ السابق للاسكندر الأكبر..: ومن ثم يتضح أن هناك ملوكاً قد وضعوا في موضع أحفاد أحفادهم، ووصفت إمبراطوريات وهمية، بينما كانت قطع الآثار نتاج قرون أخرى، وعصور تخالف مانسبت إليه، وكان هذا هو الحال بالنسبة للإمبراطورية

الحثية وفنونها، وكانت كـذلك أيضاً بالنسبة للشعوب الحورية ولغاتها، لأنها ببساطة لم توجد أصلاً»، ومن هنا كانت فوضى العصور في حاجة الى (فليكوفسكي).

تأسيس - ٤ -

وحتى لايبـدو الـرجـل كمن يلقي القول جزافاً، كان عليه أن يقوم بأمرين: الأمـر الأول هوعرض ماانتهت إليـه النظـريـات التاريخية التقليدية بشأن الخروج، ومنـاقشـة مدى مصـداقيتهـا، بحيث إذا ثبت بطـلانها انتقل الى الأمر الثاني، وهو تقـديم الادلـة الكـافيـة لتأكيـد فروضـه، تلك الأدلـة التي استغرقت كتابه حتى آخر صفحـة فيـه، ومن هنـا يبدأ مناقشة التاريخ ونظريات المؤرخين، ومحاكمتها محاكمة عادلـة تمامـاً، وربـما ساعده على تلك المحاكمات أن حيثيات إدانة أي نظرية منها، سبق وقدمتها نظرية أخرى بديلة.

ويبـدأ بأقـدم نظـريـة قدمت عن حدث الخـروج، وقـد وردت عنـد المؤرخ المصـري (مانيتون)، وتقـرن تلـك النظـريـة بين ظهـور الهكسـوس وبـين ظهـور الاسـرائيليـين، كما تقـرن الهكسوس بخروج الاسرائيليين، حيث سجل (مانيتون) أن الهكسوس بعد طردهم من مصر اتجهوا الى فلسطين، حيث أنشأوا هناك مملكة (أورشليم)، وقـد أخـذ المؤرخ اليهـودي (يـوسفيـوس) بكـلام (مانيتون)، وذهب المـذهب نفسـه - من القـدمـاء - الأب (يـوليوس الأفريقي)، الذي روى أن اليهود تمردوا في مصـر بقيـادة (مـوسى)، على ملك باسم (أحمس)، وحتى الآن، وبعـد مضي أكثر من تسعة عشر قرناً على تلك النظرية، لم يزل هناك من يأخذ بها الى اليوم.

لكن على الجـانب الآخـر نجـد من يرفض تلك النظرية تأسيساً على مقدمة منطقيـة تمامـاً، وهي كيف يقـع اليهود تحت نير العبودية في مصر اذا كانوا هم الذين حكمـوهـا باسم الهكسـوس، اضـافـة الى المقـدمة الثانية في ذلك القياس وهي أن حكـام مصـر بعـد (أحمس) قائـد التحـرير، كانوا من الحكام الأقوياء الذين فرضوا هيمنتهم على شرقي المتوسط بما فيه فلسطين، مما يستحيل معه أن يخرج بنو اسرائيل

رغـماً عن إرادة مصـر، بل ويقـومـون بغـزو فلسطـين المفترض أنها خاضعة للحكم المصري آنذاك، بل ويتمكن الاسرائيليون من إنشاء دولة في فلسطين!! لذلك لجأ آخرون الى البحث عن فترات ضعف إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة، يمكن أن تسمح بالخروج وبقيام الدولة، ومن ثم ذهبوا الى احتمال حدوث ذلك بعد انتكاسة (إخناتون) فرعون التوحيد، لكن مايدحض ذلك المذهب بدوره، أسانيد وثائقية تم العثـور عليهـا بين وثـائق مدينـة (إخنـاتـون) في تل العمارنة، في شكل رسـائل من حاكم أورشليم، يحذر فيها الفرعون من مهاجمة قبائل بربرية لحدوده من عبر الأردن باسم (الخـابـير و)، والتي تنطق أيضاً (عابيرو)، ويمكن أن تكون مسمى للعبر يين اليهود، لذلك لابد أن يكون الخروج قد حدث قبل إخناتون بفترة كافية، وتسقط بذلك تلك النظرية بدورها.

ومن هنـا ذهبت نظـريـة ثالثـة الى أن بني اسـرائيـل قد غادروا مصـر زمن (أحمس)، إبـان طرده للعنـاصـر الأجنبيـة مع الهكسـوس، ووصلوا فلسطـين زمن (إخنـاتـون) باسم (الخـابـيرو)، لكن العقبة في قبول تلك النظرية، أنها تهمل مئتي عام بين زمن أحمس وزمن إخناتون، وتعني أمراً غير مقبول، هو أن يكون زمن التيه قد استغـرق مئتي عام بدلاً من أربعـين قررتهـا التوراة، وتعد بذاتها زمناً طويلاً جداً استغرقه الخارجون من مصر الى فلسطين، بينما كانت الأربعون عاماً أصلاً تحتسب مدة طويلة جداً لذلك الزمن.

لذلـك طرحت النظـريـة الـرابعـة رأياً مخالفاً تماماً، وهو أن يكون الخروج قد حدث ـ لابـد ـ زمن الفـرعـون (مـرنبتـاح) بن الفـرعـون (رمسيس الثـاني) حوالي ١٢٢٠ ق.م في الأسـرة التـاسعـة عشـرة، بعد العثور على غطاء تابوته الذي يعدد عليـه البـلاد التي أخضعهـا، وبينها عبارة تقول: «أبيدت اسرائيل ولم يبق لها بذر»، وهـو أول ذكـر لاسرائيل في أي وثيقة مصرية على الإطلاق، مما يؤكد أن (مرنبتاح) هو فرعـون الخـروج، بينـما كان أبـوه (رمسيس الثـاني) هو فرعون الاضطهاد، لكن تلك النظـريـة بدورهـا تبـدو غير كاملة الإقنـاع، لأن نص مرنبتاح يشير لاسرائيل ضمن إشارته لدول خارج مصر، وليس لقوم داخل مصر، بما يعني حديثه عن دولة كانت قائمـة بالفعـل قبـل أن يشن هجـومـه عليهـا، إضـافة لعدم ذكر فرعون دمر

اسرائيل باسم (مرنبتاح) ضمن الأسماء الواردة في المأثور التوراتي لأعداء اسرائيل، كما لايتفق ذلك مع أي محاولة لتزمينه مع أحداث التوراة وزمنها، حيث لابد أن يكون الاسرائيليون قد دخلوا فلسطين بعد خروجهم من مصر، وليكن بمئة عام أي حوالي ١١٩٠ ق. م، وبذلك لايتبقى لعصر القضاة سوى قرن واحد، وهومايخالف بشدة الزمن المفترض، والذي يحتسب ثلاثة قرون كاملة على الأقل لذلك العصر، وربما أربعة، لذلك اعتبر عصر (مرنبتاح) كموعد للخروج موعداً متأخراً جداً وأكثر مما ينبغي، ورغم ذلك تعد هذه النظرية من أشيع النظريات حتى اليوم.

وبين النظريات التي حازت ذيوعاً أيضاً، تلك التي اعتبرت حدثي الدخول والخروج مسألة اعتيادية في تاريخ مصر، باعتبار دخول البدو الى مصر وخروجهم منها في عصور متباينة، كان أمراً دورياً ومعتاداً، لذلك كان دخول بني اسرائيل وخروجهم أمراً هامشياً في اهتمامات المصريين، الى الحد الذي لم يجدوا معه أي داع للاهتمام بتسجيله، لكن ذلك لايتفق مع إصرار التوراة على تفصيل الأحداث وهولها وشدتها، ومن هنا لجأ أصحاب نظرية مشابهة الى الاعتراف بما قالت التوراة، لكن مع النزوع الى تأويل النصوص التوراتية لتبدومقبولة، وذلك بإلباس الأساطير التي سبقت الخروج وصحبته ثوباً يظهرها كأمر اعتيادي، ومن هنا قامت تفسر الضربات التي أنزلها رب موسى بالمصريين من قمل وضفادع وبعوض وذباب، باعتبارها أموراً اعتيادية تماماً عند المصريين، بالنظر الى أرض مصر الشديدة الخصب، والتي تسمح بكافة أنواع الحياة، بينما بدا ذلك غريباً على بدورعاة، كذلك رياح الخماسين التي تهب من الصحراء الليبية محملة بالرمال والأتربة، مع ماتجلبه معها أحياناً من أسراب الجراد، يمكن أن تفسر ضربة الإله اليهودي (يهوه) لمصر بالظلام والجراد، أما مسألة انشقاق البحر فهي أسطورة متكررة في الميثولوجيات القديمة عند مختلف الشعوب، واذا كان لابد من الاعتراف بانشقاق البحر وانطباقه، فلن يكون له تفسير سوى موجة مد عالية ضاعفها إعصار مفاجىء، ثم تستكمل النظرية مسوغاتها بالميل الاسرائيلي المعهود، والواضح في كتابهم المقدس، للصياغات الإعجازية والميل الشديد للخوارق، حتى أن شعلة بيد قائد الخروج، تتحول في نص التوراة الى إله يسير أمامهم في عمود دخان ونار.

وقد ذهب أحد هؤلاء، وهو (تشالزبيك) الى أن جبل سيناء الذي عبوا إليه كان بركاناً، والبركان هو الظاهرة الوحيدة التي تعطى صورة عمود دخان بالنهار ونار بالليل، ولأنه عادة ماتصحب ثورات البراكين النشطة ضربات زلزالية، فإن زلزالاً قد سحب الماء ليلة الخروج بعيداً عن الشاطىء، ثم ارتدت المياه لتحطم كل ماجاور البحر وتبتلعه، وهو مايفسر معجزة البحر الموسوية، لكن المشكلة الكبرى التي واجهت هذا التفسير. . رغم براعته. . أن منطقة سيناء لم تكن منطقة بركانية، إضافة الى أن المنطقة الواقعة مابين البحر المتوسط وخليجي السويس والعقبة، تفتقد تماماً ظاهرة المد الإعصاري، ناهيك على كون (بيك) اضطر في النهاية، وفي نهاية حياته، الى الاعتراف بخطئه، وسحب نظريته

الوثائق والأدلة

وهكذا أصبح الميدان خالياً من نظرية تامة الصدق تفسر حدث الخروج وزمانه، ومرة أخرى تبيت الحاجة ماسة الى (فليكوفسكي)؟!، ولايبقى سوى أن ندخل مع الرجل الى عالمه، بادئين بقول: «سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار باعتراف مباشر وصريح، أن الكلمات (يقصد كلمات الكتاب المقدس) تعني ماتقوله تماماً، وأن مدى الكارثة كان يفوق بدرجة كبيرة أية نتائج أخرى يمكن أن تنجم عن ثورة بركان. . لقد ساهمت الأرض والبحر والسماء في الثورة المفاجئة، البحر غمر الأرض، والحمم الساخنة تدفقت من أرض ممزقة، وقد وصفت النصوص المقدسة فوضى العناصر التي انطلقت من عقالها:

ارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال. . تحركت واهتزت
. . دخان ونار. . ظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة.
هو المزحزح الجبال، ولاتعلم الذي يقلبها في غضبه. . هو
المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها».

لكن قبل تلك الأحداث الهائلة، وقبل حدث انفلاق البحر، فإن «النص التوراتي يصر على حدوث البلاء بمصر قبل رحيل الاسرائيليين عنها، وكانت نذيراً سابقاً للدمار الذي سببته عناصر الطبيعة التي أفلتت من عقالها. . إن الأسئلة المنطقية التي تفرض نفسها في هذا الموضع هي: هل هذه الشهادة مزيفة

بأكملها؟ . . هل من الممكن ألا يكون المصريون قد لاحظوا شيئاً من تلك الأحداث؟ . . هل هناك أي زلزال على الإطلاق تم ذكره في السجلات المصرية القديمة؟ إن التسجيلات المصرية التقليدية لاتحتوي على أي ذكر لهزة أرضية، ولاتحتوي على أي أثر لكوارث، ولكننا نصر . . فقد نحصل على مفتاح هام لمشكلة مستعصية، اختلف الكثيرون بشأنها واختصموا، وظلت حتى الآن مايقرب من الفي عام دون إجابة قاطعة»، وبالفعل، ولأول مرة في التاريخ، يقدم لنا (فليكوفسكي) ماعثر عليه من وثائق وأدلة.

الوثيقة الأولى:

بردية ليدن:

تحت عنوان «شاهد عيان مصري يشهد بحدوث البلاء»، وبأسلوبه المتميز، يقدم لنا (فليكوفسكي) فيما يبدو أنه كشف خاص وخطير، بردية (إيبور) المعروفة ببردية ليدن، في قالب لايخلو من ملابسات الغموض، وضبابية الماضي السحيق، ، ودخان ماقبل الكشف عن اللغز وغموض الأمر، بحيث يبدو كما لو كان يقلب البردية بين يديه، ويصفها وصفاً دقيقاً، بادئاً القول: «ليس من المعروف تحت أية ظروف، تم العثور على البردية التي تحتوي كلمات (أبيور)، وطبقاً لرواية (أنستاسي) مالكها الأول، فقد عثر عليها في منف، وهومايشير للمنطقة المحيطة بهرم سقارة، ثم انتقلت ملكيتها في عام ١٨٢٨م الى متحف ليدن بهولندا، وأدرجت بقائمة محتويات المتحف تحت رقم ٣٤٤ ليدن . . إلخ»، وفي عجالات سريعة يشير الى ماقدمه المتخصصون من تفسيرات بشأنها، فهناك من اعتبرها عملاً فلسفياً، وآخر لم يجد فيها سوى مجموعة أحاجي وألغاز، وذهب ثالث الى أنها نبوءة بأوقات شدة كانت مقبلة على مصر، لكن الوثيقة ـ فيما يرى (فليكوفسكي) ـ تنطق بلسان مبين لشاهد عيان مصري عاصر الأحداث التي سبقت الخروج بأيام أو بأسابيع، وبتطابق مبهر مع نصوص التوراة بذات الخصوص، ويبدأ بأخطر النصوص دلالة، والتي تشير بوضوح الى كارثة أصابت الأرض، مصحوبة

بأصوات الطبيعة الهادرة:

٢ : ٨ أنظروا الأرض تدور حول نفسها كما تدور عجلة صانع الفخار.

٢ : ١١ المدن دمرت . . وصعيد مصر أصبح يباباً.

٣ : ١١ الكل خراب.

٤ : ٧ انقلب المسكن في لحظة.

٢ : ٤ سنوات من الضجيج ولانهاية للضجيج.

٦ : ١ آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج وتنقطع الجلبة.

ويعقب على مدلول (الضجيج) في البردية، بأنه «الأصوات التي تصم الآذان وعادة ماتصاحب الزلازل، ويبدو أن الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد الى حطام وانهار نظام الدولة فجأة، وأصبحت الحياة لايمكن احتمالها».

ثم يدلف مباشرة الى المقارنة بين مقاطع من البردية، وبين مقطاع من سفر الخروج التوراتي، وهي تفصح بوضوح عن ضربات (يهوه) رب التوراة لأرض مصر قبل الخروج مباشرة:

بلاء تحويل ماء النهر الى دماء:

الخروج ٧ : ٢٠ فتحول كل الماء الذي في النهر دماً.

البردية ٢ : ٦٥ النهر دم.

الخروج ٧ : ٢١ وكان الدم في كل أرض مصر.

البردية ٢ : ٦٥ البلاء انتشر في كل أنحاء البلاد . . الدماء في كل مكان.

الخروج ٧ : ٢٤ وحفر جميع المصريين حول النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر.

البردية ٢ : ١٠ عاف الناس شرب الماء.

الخروج ٧ : ٢١ مات السمك الذي في النهر وأنتن النهر.

البردية ٣ : ١٠ ـ ١٣ هذه مياهنا، وهذه سعادتنا،

فماذا سنفعل بعد الآن؟ . . الكل حطام.

بلاء البرد والنار:

الخروج ٩: ٢٥ فضرب البرد في كل أرض مصر، جميع مافي الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل.

البردية ٦: ١ لافاكهة ولامحاصيل موجودة.

الخروج ٩: ٢٣، ٢٤ وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد.

البردية ٢: ١٠ التهمت النار البوابات والأعمدة والحوائط. والنار التي أهلكت الأرض لم تنشرها أيد بشرية، لكنها سقطت من السماء.

الخروج ١٠: ١٥ لم يبق شيء أخضر في الشجر، ولافي عشب الحقل في كل أرض مصر.

البردية ٦: ٣ أحقا اختفت الحبوب في كل مكان؟

البردية ٥: ١٢ أحقا. . اختفى ماكان بالأمس مرئياً؟

فليكوفسكي: يعقب هنا بأن حصر زمن تدمير المحاصيل بيوم واحد، يستبعد الجفاف كسبب تقليدي لقلة المحاصيل، فقط النار والصقيع والجراد هي التي كان بإمكانها ذلك.

بلاء وباء الطاعون:

الخروج ٩: ٣، ١٩ يد الرب تكون على مواشيهم التي في الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم. . سيفتك بها طاعون. . جميع الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل. . ينزل عليهم البرد فيموتون.

البردية ٥: ٥ كل الحيوانات قلوبها تنتحب. . والماشية تئن.

البردية ٩: ٢ ـ ٣ انظروا تركت الماشية شاردة ولايوجد من يجمعها، كل إنسان انشغل بنفسه.

بلاء الظلام:

الخروج ١٠ : ٢٢ فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام.
البردية ٩: ١١ لم تكن الأرض نوراً.

بلاء ضربة البكر:

الخروج ١٢ : ٣٠ فقام فرعون ليلاً هووكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت فيه ميت.
الخروج: ١٢ : ٢٧ الرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل في مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا.
الخروج ١٢ : ٢٩ فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر، وبكر فرعون الجالس على كرسيه، الى بكر الأسير الذي في السجن، وكل بهيمة.
البردية انهار المسكن في لحظة.
البردية ٤ :٣ أحقاً كل أبناء الأمراء سحقت أجسادهم في الحوائط؟
البردية ٦: ١٢ أحقاً تشرد أبناء الأمراء في الطرقات؟
البردية ٣: ١٤ النواح في كل أنحاء البلاد يختلط بالنحيب.
(فليكوفسكي) يعقب: إن موت كل هذا العدد في ليلة واحدة، وفي ذات الساعة من منتصف الليل لايمكن تفسيره بوباء كالطاعون، إنها بكارثة أرضية ضربت كل أرض مصر.

تكسير آلهة المصريين:

الخروج ١٢: ١٢ وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا الرب.
البردية ٣: ١٤ وسقطت تماثيل الآلهة مهشمة الى أجزاء.

خروج كفن يوسف من قبره :

النص من الهجادا عندما سحقت الأرض في مصر في آخر ليلة، وجد الاسرائيليون كفن يوسف على سطح الأرض فحملوه معهم.

(فليكوفسكي) يعقب: ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى في قبورهم، فالمقابر لفظت موتاها وتمزقت الأكفان.

البردية ٤ : ٤ أحقاً أولئك الذين كانوا محنطين في أكفانهم، صاروا ملفوظين على سطح الأرض؟

ويشرح (فليكوفسكي) أن البردية قد تضمنت «تمرد السكان وفرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك في ظروف غامضة.. والحقيقة الثابتة هنا، هي أن زلازل متتابعة صاحبتها ظواهر طبيعية أخرى، قد اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء، سبب هلاك الانسان والحيوان والنبات، وأتلف كل مصادر الحياة،.. ونظر المصريون الى ذلك كله على أنه من فعل رب العبيد.. وأسرع العبيد الفارون باتجاه حدود الدولة، يسبقهم نهاراً عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار.

الخروج ١٣ : ١١ وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمضوا نهاراً وليلاً.

البردية ٧: ١١ ياويلاه، النار ارتفعت الى الأعالي وامتد لهيبها أمام أعداء البلاد.

.. مع ماسجلته البردية ٧: ١ ـ ٢ أن الفرعون قد فقد في ظروف غير عادية، وأن ذلك لم يحدث من قبل قط لأي فرعون آخر».

ثم يبرز (فليكوفسكي) حدث دخول الهكسوس البلاد «البردية ٣: ١ أحقاً صارت الدولة خراباً كالصحراء، وأصبحت الأقاليم يباباً، واقتحمت البلاد قبائل غريبة من وراء الحدود؟ إن الكارثة التي حولت مصر الى دمار شامل بلا قوة متماسكة تدافع عن أرضها، أغرت الغرباء، وكانت حافزاً لقبائل الصحراء العربية لينقضوا عليها. البردية ١٥ : ١ ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد».

الوثيقة الثانية :

حجر العريش :

وحجـر العـريش كتلة جرانيت سوداء، حفرت عليها نصوص هير وغليفية، ورغـم أهميتـه فإنـه لم يحظ باهتـمام كاف، ولم يعـد يذكره أحد إلا لماماً، رغـم احتوائه على أسـماء ملوك ومـدن وأمـاكن جغرافية، وغزو غرباء للبلاد في عصر ملك يدعى (تـوم)، ونص الكتـابـة في رأي (فليكـوفسكي) يتطـابق كلية مع نص التوراة بشأن الأحـداث التي صحبت الخـروج من البحـر، ومـا اقتبسـه (فليكوفسكي) من تلك النصـوص: «لقـد مرت بالبـلاد بلوى عظيمـة، سقـط الشـر على أرضها، وثارت الأرض ثورة عنيفـة شملت عاصمـة البـلاد، ولم يغادر أحد القصر الملكي لمدة تسعة أيـام كاملة، وأثنـاء هذه الأيـام التسعـة من جيشـان الأرض، كانت هنـاك عاصفة بلغت قوتها حداً لايستطيع معه الإنسان ولا الإله أن يرى وجوه الآخرين».

وحجـر العريش ليس ـ عند (فليكوفسكي) ـ سوى تسجيل للقصة الكاملة للبلاء العاشر، الذي أنزله الرب الاسرائيلي في شكل ظلام وعـواصف برية، فالحجر يتابع «وفي خضم المحنـة، وتقلبـات الطبيعـة الوحشية، جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه الى مناطق، وعدهم أنهم سيرون فيها النور من جديد (سنرى أبانا رع حر أختي في منطقة باخيت المضيئة). . وفي هدأة الليل، وتحت ستـار الظلام، اقتربت جحافل الغـربـاء من حدود مصـر ثم اجتـازتهـا (وذهب صاحب الجـلالـة لمحـاربـة أبـوبي وزمـرتـه. . وحين قاتل جلالة الملك رع حرماكيس، حين قاتل إله الشر بالقرب من البحـر في مكـان الـدوامـة، فإن إلـه الشـر لم يتغلب على جلالته، ولكن جلالته هو الذي اندفع الى دوامات البحر).

وبعـد شروح يعـود الكـاتب الى المكـان الذي انتهت إليه مسيرة الملك قبل غرقه في البحر، وأنها محددة بالاسم في النص «ووصل جلالته الى مكان يسمى بي خاروتي»، ثم يأتي بنص التـوراة «فسعى المصريون وراءهم، وأدركهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسان جيشه، وهم نازلون عند البحر، عند فم الحير وث ـ خروج ١٤ : ٩»، ثم يوضح «وبي خاروتي في المصدر المصـري هي (بي حير وث) أو(فم

الحيروث) في المصدر العبري، إنه المكان نفسه والمطاردة نفسها. . . وبعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون (صاحب السموجب) باحثاً عن أبيه (وقد أخبره شهود العيان بكل ماحدث لرع في يات نيبيس، والصراع الذي خاضه الملك توم)، ويحكي النقش أن كل من رافقوا الأمير في رحلته للبحث عن أبيه قد ماتوا حرقاً، أما الأمير نفسه صاحب السموجب، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث وهويائس من العثور على أبيه الذي لقي حتفه، ومن غبرة الصحراء في طريق يات نيبيس وصل الغزاة واحتلوا مصر (أتى أبناء أبوبي المتمردون الذين كانوا يعيشون في أوشير و. . وساروا على طريق يات نيبيس، وحلوا على مصر مع حلول الظلام، لقد غزوا البلاد ليحطموها ويدمروها). . وبمرور الوقت برد الجو في مصر وجفت الأرض، ولم يعرف ماذا حدث بعد ذلك للأمير التعس، ولكن نهايته كانت بائسة بالتأكيد (لقد دمرت مصر بالإعصار فأكلتها النيران، أما العاصمة فقد احتلها الآمو). . إن النقش الموجود على حجر العريش يحدد اسم الفرعون الذي هلك في دوامة البحر، كان توم أوتووم، ومن المثير أن اسم (بي توم) تعني مسكن أو مقرتوم، و(بي توم) كانت إحدى المدينتين اللتين شيدهما العبيد الاسرائيليون للفرعون الطاغية وبأمر منه، وطبقاً لمانيتون فإن الفرعون الذي حل غضب السماء على مصر في عهده قبل غزو الهكسوس، كان يدعى توتيماوس أو تيمايوس».

الوثيقة الثالثة:

بردية الارميتاج:

وهي بردية الحكيم (نفررحو) المحفوظة بمتحف الأرميتاج بلييننجراد بروسيا، ويرى فيها (فليكوفسكي) ترديداً لذات نص بردية ليدن، وإن اختلفت في كونها نبوءة ألقاها صاحبها أمام أحد الفراعين، وأهم مايريده (فليكوفسكي) منها قولها في مقطاع:

ملء قلبي رثاء لهذه الأرض التي نبع منها الفن. .

ستهلك هذه البلاد وماعليها ولن يبقى سوى الشر. .
فانية هذه البلاد. .
ستحتجب الشمس ولن يرى إنسان النور. .
لن يبقى أحد حيا. .
النهر جاف. .
ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية،
وتكابد الأرض بؤساً لم تعرفه.
ويحتل البلاد البدو حين يأتون من الشرق،
سينزل الآسيويون أرض مصر،
ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر. .
أرى هناك الأرض مقلوبة رأساً على عقب. .

ويردف (فليكوفسكي): «إن الرائي نفررحو يتنبأ بعد ذلك بتحرير مصر على أيدي ملك مصري، يولد من أم نوبية، ويسمى (أميني)، وهو الذي سيقتل الآمو (البدو) بسيفه، وبعدها سوف يبني سور الحاكم حتى لاتتكرر عودة الآمو الى مصر. . واسم (أمني) يشير الى (آمن حوتب) الأول، وهو واحد من الملوك الذين حكموا مصر بعد أن تم تحريرها من الهكسوس، وكان وقت بداية حروب التحرير مازال أميراً، وكانت صوره على الجدران بالمعابد تشير الى لون بشرته الأسود، وهو مايتفق مع مقولة أنه سيولد لأم نوبية، وقد تم تبجيله فيها تلا ذلك من عصور» .

الوثيقة الرابعة:

نبوءة الخزاف:

وهي أثر أدبي مماثل في مضمونه للوثائق السالفة، لخزاف عاش في عهد (أمينحوتب) يقول: «إن نهر النيل سيمتلىء بالمياه، ويعود موسم الشتاء الى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعي»، مما يشير الى خلل قد أصاب النظام الطبيعي الكوني.

الوثيقة الخامسة :

مقياس سمنة :

«لاحظ (ليبيسيوس) أن مقياس النيل عند (سمنة) الموجود منذ عصر الدولة الوسطى ، يظهر ارتفاعاً عظيماً لمستوى الماء في ذلك المكان ، حيث يجري النهر فوق أرض صخرية ، ومقدار الارتفاع يزيد عن أعلى ارتفاع للمياه مسجل في العصر الحديث بمقدار ٢٢ قدماً ، ونظرياً فإن هبوط مستوى الماء في ذلك المكان بعد ذلك بمقدار اثنين وعشرين قدماً وقد يُعزى الى واحد من احتمالين : فإما الى تغير كمية المياه المتدفقة من نهر النيل ، أو الى تغير في التركيب الصخري والطبقي للأرض ، ولو كان النهر يحمل هذا القدر العظيم من الماء قبل الكارثة ، فإن العديد من المعابد والمساكن كان من المفترض أن تغطى تماماً بالمياه بانتظام كل عام مع الفيضان ، لكن الواضح أن التغيير المرصود عند مقياس سمنة ، يدل على حدوث تغيرات ضخمة في التكوين الصخري وفي طبقات الأرض بمصر، في أواخر الدولة الوسطى أو بعدها» .

الوثيقة السادسة :

نقش حتشبسوت :

وهو نقش حجري من عهد الملكة (حتشبسوت) التي حكمت بعد جيلين أو ثلاثة من طرد الهكسوس ، وتقول فيه الملكة : «إن مقربة كيس قد تحول الى أنقاض ، وابتلعت الأرض حرمها المقدس ، ولعب الأطفال فوق معبدها ، وقد أزالت عنه ماتراكم ، وأعادت بناءه . . . فقد كان هناك آمو في وسط الدلتا ، وفي حاوار (حواريس عاصمة الهكسوس) ، وكانوا هم من دمروا كل المباني القديمة ، وحكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع» ، ويعقب (فليكوفسكي) : «إن السطور السابقة تحمل الدليل على أن تلك المعابد قد ابتلعتها الأرض . . وصحيح أن الهكسوس قد دمروا المباني ، لكنهم لم يدفنوها في الأرض» ، وهو بذلك إنما يشير الى كارثة طبيعية ليست

في رأيه شيئاً آخر سوى كارثة الخروج .

وينهي البـاب الأول من القسم الأول بعبـارة تلخص نظـريته تماماً ، وتقول : «لـو كانت كل المقـارنـات السـابقة ، والنتائج المترتبة عليها ، صحيحة ، فإن خروج الاسرائيليين يكون قد سبق غزو الهكسوس لمصر بأسابيع أو بأيام قليلة» .

امبراطورية الهكسوس العربية

وربما الأمر هنا لايشبه مجموعة الوثائق التي جمعها (فليكوفسكي) للتدليل على صدق أحداث الخروج كما وردت بالكتاب المقدس، إنما هو مجموعة شهادات عربية على القسم الثاني من نظريته، والذي يذهب الى أن الهكسوس كانوا من عرب شبه الجزيرة العربية، وليسوا كما ذهب المؤرخون الى احتسابهم من منطقة أرمينيا، فهو يلتقط طرف الخيط من (مانيتون) في شذرة تقول: «البعض قالوا أنهم كانوا عرباً»، وهم من أطلق عليهم المصريون اسم (آمو)، وكان الهكسوس من الشعوب التي تشربت حتى النخاع بروح التدمير والتحطيم، وعلى قدر ماهو معروف، لم يترك الهكسوس أثراً أو نصباً تذكارياً ذا قيمة تاريخية أو فنية طوال فترة حكمهم، وأن هؤلاء الهكسوس ليسوا سوى التسمية المصرية لمن ذكرهم سفر الخروج باسم العمالقة، حيث «أتى عماليق وقاتلوا اسرائيل عند رفيديم» في طريق الخروج بسيناء، لذلك قال الرب لموسى: «اكتب هذا تذكاراً في الكتاب وضعه في مسامع يشوع، فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ـ ١٧ : ١٤».

وإن هؤلاء العماليق في هجرتهم انقسموا خطين عظيمين، الأول احتل كل منطقة شرقي المتوسط، بينما احتل الثاني مصر، وعند خروج بني اسرائيل من مصر وقت انهمار سيول العمالقة على المنطقة، «وبسبب وجود العماليق في جنوب فلسطين، اضطر الاسرائيليون للبقاء في الصحراء على مدى جيل كامل»، وبذلك يفسر (فليكوفسكي) مسألة التيه أربعين عاماً في سيناء.

ولتأكيد فروضه حول كون الهكسوس هم ذاتهم العمالقة، وأنهم كانوا من غرب شبه الجزيرة، فإنه يؤكد أن ماحدث للطبيعة من هياج مفاجىء في مصر، قد حدث أيضاً على الضفة الأخرى من البحر الأحمر في جزيرة العرب.

وبصبر غريب ينقب الرجل عن كل مايدعمه في كتب التراث الإسلامية، وماجاء فيها عن تاريخ جزيرة العرب في عصورها الأولى، ومعلوم أن حديث العماليق من الأحاديث المتواترة في كتبنا الإخبارية بحسبان العماليق من أشهر قبائل

العـرب البـائـدة، وأنهم بادوا كما جاء في مستنـدات (فليكـوفسكي) بنصـوص من (المسعـودي) وصف فيهـا الغضب الإلهي الذي حاق بهم، وكيف أرسل عليهم الله سيلاً هربوا على إثره من البلاد متتبعين سحباً قادتهم الى أماكن دمارها أشد هولاً، ويقول المسعودي: «ودمرت مكة في ليلة واحدة بضجيج يصم الآذان، وتحولت كل المنطقة الى صحراء بلقع، وأصبحت كل الأرض من الحجون الى الصفار صحراء قفـرا. . . ووصـل العـماليق الى سوريـة ومصر وامتلكوا البلاد، وكان طغاة سورية وفـراعنـة مصر من أولئك العماليق. . . وقدم ملك العماليق الوليد بن دوما من سوريا وغـزا مصـر وقهـرهـا واستـولى على العـرش. . . وغزا العماليق مصر بعد أن عبروا حدودهـا ويـدأوا في نهب البـلاد، وحطمـوا أعمالها الفنية وخربوا كل آثارها (ويلفت فليكـوفسكي نظـرنـا الى تشـابه تعبيرات المسعودي مع نص حتشبسوت)، كذلك طعّم مستنداته بأسانيد من شهادة الطبري «ثم مات ملك مصر، وارتقى ملك آخر عرش البلاد وكان من العماليق، وكان يدعى قابوس بن مصعب بن مويا بن نمير بن سلواز بن عمرو بن عماليق»، ومن شهادة أبي الفدا «كان هناك فراعنة مصريون من أصل عماليقي»، ومن شهادة أبي الفرج الأصبهاني «إن العماليق انتهكوا حدود الحرم فحلت عليهم نقمة الله، فتركوا مكة. . وساقهم الله الى منشئهم حيث أغرقهم بالطوفان».

وحسب (مـانيتـون)، فقـد أنشأ الهكسـوس لهم عاصمـة شرقي الدلتا باسم (حـواريس)، وكـان أول ستـة ملوك منهم يشكلون الأسـرة الأولى من الفـراعنـة الهكسـوس، وأشهـرهم الملك الـرابـع في هذه الأسـرة (أبـوفيس)، وهنـا يصـدر فليكـوفسكي بعض الأحكـام من قبيـل «وكـان حكم الهكسـوس قاسيـاً، ولم تدرك قلوبهم شفقـة ولارحمـة»، ثم يضيف «ولم تقتصـر هيمنـة الآمو الهكسوس على مصر وحـدهـا، فقـد وجـدت جعـارين وأختام رسمية في العديد من البلدان تحمل اسم الملك المصري (أبوب = أبو فيس) والملك (خيان)، كما وجد اسم خيان أيضاً على تمثـال لأبي الهـول اكتشف في (بغـداد)، وعلى غطـاء آنيـة في (نـوسـوس) بجزيرة (كريت)، كما وجد نقش يعود للملك (أبوب) ذكر فيه «أن أبوب الملك، ست رب حواريس، قد أخضـع كل البـلاد تحت قدميـه. . . ووجد بعض المؤرخين أنفسهم

مجبرين على قبول حقيقة أن الهكسوس كانوا أصحاب إمبراطورية كبرى، ولو لفترة محددة من الزمن. . وطبقاً لمانيتون. . كان آخر ملوك الفراعنة الهكسوس ملكاً قوياً يدعى أبوب الثاني».

ولأن الاسرائيليين غادروا مصر وقت دخول الهكسوس، ولأنهم لقوهم في سيناء، ولأن تلك النظرية لاتجد نصاً توراتياً واضحاً بشأنها، فإن (فليكوفسكي) يعثر على ذلك النص، ويكتشف أن الاسرائيليين قد عرفوا بالفعل الكارثة الحادية عشرة التي حلت بمصر ممثلة في غزو الهكسوس، والنص في سفر المزامير، ويقول: «أرسل الله عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة أشرار ـ ٧٨: ٤٩»، ويكتشف أن تعبير (ملائكة أشرار) خطأ في القراءة والترجمة، حيث (ملائكة) و(ملوك) تتشابهان في العبرية، ثم تأتي زيادة حرف (ألف) الى كلمة (رعاة) فتحولها الى كلمة (أشرار)، ومن ثم فقد كان الأصل: أرسل الله عليهم جيش ملوك رعاة، وهو الاصطلاح المأخوذ من كلمة (هكسوس)».

وتأسيساً على كل تلك القرائن، وإعمالاً لتلك الشواهد الغزيرة، ينتهي (فليكوفسكي) الى إعادة التزامن الصحيح للتاريخ، ويعيد إليه أربعمائة سنة مفقودة بين نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، إضافة للمئتي عام المفترضة من قبل المؤرخين لتلك الفترة الزمنية وهو الفرض غير المقبول منطقاً، ليصبح الزمن مابين سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة القديمة، وبين الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة، ستة قرون كاملة، ومن ثم يكون زمن التية، ويشوع، والقضاة، الذي استغرق في تاريخ اسرائيل أربعة قرون، يقع في توقيت واحد مع حكم الهكسوس العماليق لمصر، وتبقى المئتي سنة الأولى لأسر مصر متهالكة فيها يعرف بالعصر المتوسط الثاني.

ومن هنا يستمر (فليكوفسكى) في دعم فرضيته ليسوق المزيد من الأدلة على صدقها، ويقف مع نص العراف (بلعام) بالتوراة، والذي يمتدح فيه اسرائيل ويقول: «يجري ماء من دلائه، ويكون زرعه على مياه كثيرة، ويتسامى في ملكه على أجاج وترتفع مملكته. . ثم رأى عماليق فنطق بمثله وقال: عماليق أول الشعوب وأما آخرته فإلى هلاك ـ عدد ٢٤: ٧، ٢٠»، ويستنطق (فليكوفسكي) ذلك النص

مالم يخطر ببال أحد حتى اليوم، فعماليق أول الشعوب تشير أن العمالقة كانوا أصحاب إمبراطورية عظمى، لكن آخرته ستكون الهلاك على يد بني اسرائيل، و(أجاج) الملك بالنص ليس سوى (أبوب الثاني) آخر ملوك تلك الامبراطورية، حيث كانت العبرية القديمة تحمل تشابها يؤدي الى اللبس بين حرفي (ج) و(ب).

ومن بردية ساليه يخرج (فليكوفسكي) بمدى الازدراء والاحتقار الذي كان يعامل به الهكسوس أمراء الولايات المصرية، وكيف حكت تلك البردية عن رسالة مهينة من (أبوب الثاني) الى (سقننرع) أمير طيبة، وكيف «ظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل، ولم يدر بم يجيب على رسالة الملك أبوفيس» ومن ثم «قبض على الأمير المصري، وساقه رسول الملك أبوب الثاني الى حواريس، ونهاية البردية مفقود».

لكن الأمير (كاموس) ابن الملك الطيبي (سقننرع) قاد أولى عمليات المقاومة ضد الهكسوس العرب، بمعاونة قوات أجنبية، كما هو مسجل بلوح كارنارفون، كما أن قصة طرد الهكسوس محفورة على جدران مقبرة الضابط (أحمس)، وكان ضابطاً في جيش الملك (أحمس) الذي حمل الاسم ذاته، أخي الملك (كاموس)، وقد قاد الكفاح ضد الهكسوس بعد أخيه، وهنا يقول (فليكوفسكي): «إن الأمراء المصريين المتمردين على حكم الهكسوس، لم يكونوا هم من حرر مصر، لكن مقاتلين أجانب من خارج مصرهم المحررون الحقيقيون لها، فالنقش بمقبرة الضابط أحمس يقول: تابعت الملك سيراً على أقدامي في حين ركب عجلته الحربية، في طريقه الى خارج الولاية.. كانوا هم يحاصرون مدينة حواريس، أظهرت بسالة في القتال مترجلاً أمام سموه.. كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه في حواريس، ثم نشب قتال جديد في ذلك المكان.. وشاركت في القتال مرة أخرى.. حاربوا هم في مصر هذه جنوب تلك المدينة.. ثم استطعت اقتياد أسير حي.. استولوا هم على حواريس. وهم حاصروا شاروهين لأربعة أعوام، ثم أخذها جلالته».

ويتوقف (فليكوفسكي) مع أولئك الأجانب المشار اليهم بإشارة الغائب (كانوا هم) في النص، ليشير الى أنهم أصحاب الفضل الحقيقي في تحرير مصر من العرب العمالقة الهكسوس، ليقرنه مباشرة بنص الكتاب المقدس، حيث يقول

(صمـوئيـل) آخر قضاة اسرائيل، (الشاول) أول ملوك اسرائيل: «هكذا يقول رب الجنوب: إني قد افتقدت ماعمل عماليق باسرائيـل، حيث وقف له في الطريق عند صعـوده من مصـر، فالآن اذهب واضـرب عماليق، واحـرمـوا كل مالـه (احـرمـوا اصطـلاح توراتي بمعنى أبيـدوا، والإشـارة من عنـدنا)، ولاتعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً. . . ثم جاء شاول الى مدينة عماليق وكمن في الـوادي. . وضـرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك الى شور التي مقابل مصر، وأمسك أجاج ملك عماليق حيا ـ صموئيل أول: ١٥ : ٢ ـ ٨»، ويعقب «كـانت عبـارة مدينـة عماليق عقبـة دائمـة أمام دارسي التوراة. . فقد كانوا يفترضون أن العماليق ليسوا سوى قبيلة صغيرة. . والأدلة الوحيدة على موقع تلك المـدينـة هي العـلامـات الطبوغرافية لموقعها، فالمدينة حوصرت من جهة مجرى قناة للمياه، أو نهر ـ ناخال ـ. . ولا يوجد في كل تلك المنطقة سوى نهر وادي العريش. . حيث تجري مياهه غزيرة بالشتاء، ويجف مجراه صيفاً».

وتـكتشف أن مدينـة العـماليق ليست سوى (حـواريس)، وأن أجـاج هو (أبـوب)، وأن (هـم) ليسـوا سوى بني اسـرائيل بقيادة الملك (شاول)، ومن ثم وجد (فليكـوفسكي) أن من واجبـه إعـلان «أن هناك ديناً تاريخياً يدين بن الشرق الأدنى لنيله حريتـه، وتخليصـه من نير عبـوديـة الهكسـوس على يد شاول، لكن أعمـالـه العظيمـة لم تقـدر، بل حتى لم يعترف بها، لقد كان سقوط حواريس وتدمير جيوش العـماليق، تغييـراً حاسـماً لمسـار التـاريخ، ومن جديـد نهضت مصر لتبنى قوتها مرة أخـرى، وتستعيـد إشـراقهـا بعد أن تحررت من العبودية التي دامت مئات السنين، وكان محررها واحد من بين أحفاد اليهود الذين كانوا عبيداً بمصر».

بل إن حصـار شاروهـين بعـد ذلـك حيث انسحب الهكسـوس، والذي دام ثلاث سنوات، لم ينته على يد المصريين كما يظن علم التاريخ التقليدي، لكن على يد أحـد قادة جنـد الملك (داود) خليفـة (شـاول) والمعروف باسم (يؤاب)، والذي تتـواتـر عنـه أسطـورة تقـول أنـه اخـترق بمفرده أسوار عاصمة العماليق، وقد كتب الضابط (أحمس): «لقد حاصر هو شاروهين لمدة ثلاثة أعوام ثم أخذها جلالته».

وقبـل أن يصـل (فليكـوفسكي) الى إغلاق القسم الأول والأساس الصلب

لنظريته، لايفوته القول: «لم يستطع الاسرائيليون أبداً أن ينسوا معاناتهم في مصر، ولكنهم لم يحملوا أبداً أية كراهية للمصريين، أو للشعوب الأخرى في تلك المنطقة القديمة، لكن العماليق وحدهم هم الذين أصبحوا رمز الشر في نظرهم، ومن ثم هدفاً لكراهيتهم.. إن الشر الهائل في ذلك الشعب ظل يتكرر حتى الملل في آداب الفكر القديم، وكيف كانوا يمتصون دماء الشعب المرهق في تيه الصحراء (يقصد بذلك الشعب المرهق اليهود)، وكيف كانوا ينصبون الكمائن بكل خسة وجبن، ويستولون على الأقوات القليلة، وكيف كانت حقارتهم ووضاعتهم ووحشيتهم تظهر في مهاجمتهم للضعفاء في مؤخرة القافلة، وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم ويهرطقون ويجدفون بكفر صارخ، بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء، ويسخرون من الرب.. لقد خلف الهكسوس ذات الكراهية في نفوس المصريين، فقسوتهم البالغة، ووحشيتهم التي لاتعرف رحمة، تركت آثاراً من المستحيل محوها من ذاكره الشعوب.. لقد كان قدر شاول أن يحمل مهمة تحرير اسرائيل ومصر على عاتقه، ولم يذكر المصريون اسرائيل بالتقدير المناسب، وأشار إليهم المصريون بـ (هو) و(هم) وكان ذلك بعض الظلم، وكانت مكافأتهم للاسرائيليين ماقام به المؤرخون المصريون بجمعهم الاسرائيليين مع المخربين الهكسوس في سلة واحدة، مع أن الاسرائيليين هم من طردوا الهكسوس من مصر ومن حواريس.. وفي عالم الإغريق وإمبارطوريتهم لم توجد إشارة واحدة الى كراهية عنصرية لليهود، حتى بدأت قصص المصري (مانيتون) في الانتشار والذيوع.. وحين عرف اليهود كسلالة منحدرة من العماليق الغزاة المتوحشين.. وكانت هناك كراهية موازية لاتقل عنها ومتأججة على الدوام من نفوس اليهود وذاكرتهم نحو العماليق.. إن الكراهية من الممكن أن تدوم وتمتد عبر الزمن حتى ولو لم يعد المستهدف بالكره موجوداً على ظهر الأرض، وكم كان يصبح عليه مقدار هذا الكره، إن لم يكن المكرهون قد ذابوا بشخصيتهم القومية من آلاف السنين في شعوب شبه الجزيرة العربية.. لقد رأى المؤرخ المصري مانيتون أن اليهود هم البذرة الخسيسة للطغاة المتوحشين.. وتسللت تلك الكراهية الى كل الأجيال.. إن اللعنة التي وجهت الى العماليق تحولت لتنصب على بني اسرائيل.. ومحيت

ذكـرى العـماليق حتى لم يعـد هنـاك من يعـرف أن العـماليق كانـوا هـم الهكسوس ، واستمر الاسرائيليون يعانون أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ ، وحملوا آلام إدراجهم في سلالة العماليق ، وبدأ ذلك العقاب التاريخي حين أطلق مانيتو أحكامه الخاطئة ، مانيتو المصري الذي تحررت أمته من الهكسوس على يد اليهود؟» .

ومن هنا يبدأ (فليكوفسكي) مشواره الطويل لإعادة كتابة تاريخ العالم وترتيب فوضى العصور، مع الإصرار على معالجة ذلك التشويه الظالم الذي لحق بني جلدته ، والى هنا نوقفه ، لنبدأ رحلتنا معه مرة أخرى من البداية ، ورغم اعترافنا بقدرته العظيمة على البحث ، واحترامنا لجهده الهائل ، ووصفنا له بأنه رجل من نوع نادر وفذ ، فإن ذلـك لايمنعنـا من مصفـه الآن بأنه أبـرع رجل علـم ، تمكن من استخدام أدوات البحث العلمي لإجـراء أروع بل وأمتـع عمليـة تزييف وتلفيق وتـزويـر ، في تاريخ العلم والعالم .

وعود على بدء، ومع مقدمة (عصور في فوضى)، تلك المقدمة الهادئة المغلقة داخل طرح علمي لأهم الإشكاليات التي سيتناولها ذلك التنظير التاريخي للقومية الإسرائيلية، دون أن تبدو أية ملامح لتلك النقمة الشديدة على التاريخ الذي أهمل شأن شعب إسرائيل، ورماهم بكل مافي قاموسة من اصطلاحات عدائية في كتاباته المتأخرة من بعد الميلاد، ـ لذلك استحق أن يعاد النظر فيه، لأنه بخطيئته كان خاطئاً ـ يوحي كاتبنا بمدى ما أصيب به من عسر ومشقة وهو يبحث في مدونات العالم القديم، وهو لاشك محق في ذلك تماماً، لكن الإيحاء يتوسع في دلالاته، حيث يصف الكاتب نفسه بأنه سيكون كرجل المباحث، الذي لايهمل في بحثه وراء الجريمة شيئاً منها بدا تافهاً «حتى لو كان شعرة على عتبة نافذة»، لكن ما وضح لنا بعد أن أتممنا قراءة العمل، وسعينا وراء مصادره، وفي ضوء معرفتنا بالتراث، أن الرجل فعلاً لم يهمل شعرة على عتبة نافذة، ولاخطاً عفوياً على حائط، ولا كومة قمامة ملقاة في ركن غرفة، لكنه أهمل عن قصد مبيت وعن رغبة، عوارض خشبية تسد الطريق، وألواحاً من حديد لايمكن النفاذ من خلالها، وهنا مكمن خطورة الكتاب على قارىء ذي اهتمام عام بشؤون التراث، لايمتلك أدوات كافية للتعامل مع الكتاب ومؤسساته، وامكانيات اللعب بنصوص ذلك التراث لعبة تلفيقية، ذات أغراض سياسية عنصرية، مغلفة بأردية شديدة الكثافة، ومخاطة بقدر عظيم من الذكاء، مادتها عقلانية ساطعة وعلم باهر، لذلك كان الرجل فخوراً بعمله إلي حد وصفه في مقدمته بأنه «إنجازه الأعظم على الإطلاق»، ثم لايلبث أن يقدم تحديه للجميع سافراً: «وأنا أقدم هنا معركة كبرى للتاريخيين والمؤرخين» ورغم أن الرجل يطلب عراكاً، ويقفز على الحلبة طول الوقت دون أن يستقر ودون أن يلهث، مستنفراً مستفزاً الجميع داعياً إياهم للنزال، فإننا فيما نعلم، وفي حدود بلادنا على الأقل، لم نجد مَنْ قَبل النزال، إنما مابدا حتى الآن هو القبول بقفازه المرمى على الوجوه، ثم يقول عن عمله «إعادة بناء التاريخ القديم للعالم من

جذوره» إنه عمل «غير مسبوق بمحاولات مثيلة» بل «إنه ليست هناك أية فرضيات قوية، ولا أدلة ولا براهين، يمكنها أن تواجه أو تدحض إعادة صياغة التاريخ التي أوردناها».

لكن؛ وفق أي معيار يقوم بإعادة كتابة التاريخ وإعادة تزمينه، مادام الأصل المصري فاقداً السلامة؟ إنه كما عرضنا سار بنا مع وثائق وبرديات وحفائر وأحداث وكوارث، لكن كان يلقي بنا كل مرة في قبضة التاريخ الإسرائيلي، حيث ينتهي إلى قياس كل شيء بمعيار التاريخ اليهودي وحده، والكتاب الذي دون ذلك التاريخ، الكتاب اليهودي المقدس وحده، والعقل الذي صاغه، العقل اليهودي وحده، لكنك لاتلمس بطول كتابه نزوعاً إيمانياً حقيقياً، ولا يبدو الرجل كحبر من الأحبار، ولا حتى ذا ميول دينية، بل إنك تلمس رغبة الرجل في ألا يبدو رجل دين تقليدي، بل يكاد يفصح أحياناً بإلحاده، لكن لأن قيام الدولة الإسرائيلية حالياً، لايجد أي دعامات من مقومات الكيانات السياسية، ولا يجمع عقدها المتنافرة سوى الدين وتلك الذكريات التاريخية، كأسس للقومية الإسرائيلية، فإن (فليكوفسكي) بكتابه هذا، سجل أعظم نقطة في رصيد القوميات العنصرية، بقراءة موثقة، وتنظير قل أن يوجد مثيله، لتاريخ إسرائيل المقدس، وبحيث تطابق ماكنا نظنه خرافة وميثولوجيا، مع وثائق أخرى رصدت مابدا أنه حدث موضوعي واقعي، سحبت مصداقيتها على النصوص التوراتية في أدق تفاصيله، وفي منمنات تلك التفاصيل وفسيفسائها، حتى بدا كتاباً لايدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وربما من باب التحدي لمن يفكر في النزال، قام الرجل يروعنا بمغامراته التي صاحبت نشر كتابه الأسبق (عوالم في تصادم)، ويقول: «إن مجموعة العلماء التي هاجمت عوالم في تصادم وأدانت مؤلفه، ولعدم قدرتهم على إثبات أن الكتاب أو حتى جزءاً منه قد جانبه الصواب، أو أن إحدى الوثائق الواردة به مزيفة، فإن تلك المجموعة من العلماء انزلقت إلى موجة من التعصب الأعمى، بلا أدنى أسس علمية، وحاولوا وأد الكتاب في مهده، وهو بين يدي أول ناشر، بالتهديد بمقاطعة كل ماتنتجه تلك الدار من كتب ومراجع.. وبلغ الأمر حدته حيث أجبروا عالماً وكاتباً صحفياً على الاستقالة من عملهما، لكونهما اتخذا موقفاً موضوعياً علنياً من الكتاب، مما حدا

بكثير من المفكرين الأكاديميين بالجامعات، إلى السعي لقراءة كتاب عوالم في تصادم سراً، والاتصال بكاتبه في الخفاء».

نحن إذن بإزاء كاتب ألجأ علماء الدنيا للتخلي عن موضوعيتهم وحيادهم ووقارهم العلمي، والتحول إلى استخدام أساليب قمعية إزاءه، عندما لم يجدوا لديه تزييفاً في الوثائق، أما نحن، فنعقب «كاد المريب يقول خذوني» لأننا رغم كوننا غير محسوبين على علماء العرب، ناهيك عن علماء الدنيا، قد كشفنا في كتابه (عوالم في فوضى) تزييفاً، لكن من نوع جديد وخطير.

أما لماذا كل ذلك الهجوم الذي تعرض له كاتبنا؟ فيرجع - فيما يوعز به للقارىء - إلى أن كتابه احتسب مروقاً على الدين، وتجديفاً على الملة اليهودية، وهو مايتضح بقوله في المقدمة: «لقد كان حراس العقيدة، ومازالوا، متحفزين دوماً لمهاجمة أي جديد وإدانته بأساليب رجعية، بعيدة عن الحجة الموضوعية وعن النقاش، فضلاً عن تحقير صاحب كل فكر جديد في أعين الرأي العام.. وفي مسرح من يريدون إظهار كم هي خطأ تلك الأفكار المتمردة والمنشقة عن الدين»، وهكذا فالكاتب يطمئن القارىء على أمرين: الأول: أن الذين يهاجمونه رجال دين تقليديون متعفنون يترصدون لكل جديد بعقلية متخلفة، وبذلك يكسب أشد القوى استنارة، لأن معنى ذلك اتخاذه موقفاً علمياً موضوعياً لاينحاز لرأي أو عقيدة، أما الثاني، فهو أنه سيقول مايعتبر تجديفاً في عرف بني ملته، وأنه قد قبل بذلك الموقف التزاماً من جانبه لوجه الحق بغض النظر عمن سيغضب ومن سيرضى.

وبين المقدمة والتمهيد، يعمد إلى فصل يبدو كنتوء مقصود تحت عنوان (اعتراف بالفضل)، وهو مااعتدنا كباحثين إدراجه بالمقدمات لتقديم التقدير لمن ساهم في إنجاز البحث وقدم العون للباحث، لكن (فليكوفسكي) قصد ماهو أكثر من تقديم الامتنان، حيث أورد مجموعة أسماء لعلماء ومتخصصين في صيغة الشكر على المعاونة، لكنها ملتبسة بما يشير إلى موافقتهم على عمله واقتناعهم بفروضه ونتائجه، وبشكل لحظنا فيه مالا يبدو واضحاً من التواء يعسر مؤاخذته عليه، وخرجنا بنتيجة مفادها أنه لا العلماء المذكورون وافقوا وأيدوا... ولاهم - في ضوء

الأسلوب الملتوي ـ بقادرين على الاحتجاج، ولا القارىء سيلتفت إلى الخدعة المبيتة، ونضرب لذلك أمثلة لأهميتها كنموذج لأسلوبه الذي احتذاه بطول كتابه:

يقول: «أشعر بامتنان أيضاً للدكتور (والتر فيديون) بمعهد دراسات آسيا بنيويورك، الذي لم يتوان عن مد يد العون بمعلوماته الغزيرة عن الأدب القديم، ويزيد من إحساسي بالعرفان أنه لم يحاول أبداً أن يقحم نفسه بأي شكل على فرضياتي الخاصة بالكتاب، ولقد اقتضى الأمر مايزيد على ستة أعوام، حتى اقتنع وأقر بأن التاريخ التقليدي كما نعرفه، غير مبني على أسس ثابتة.»، ولا أخفي القارىء سراً، أني رغم اهتمامي الواسع بالتراث القديم، فلم يصادفني إطلاقاً عالم باسم (والتر فيديون)، واحتسبت ذلك للوهلة الأولى تقصيراً ينبغي تلافيه، أما كلام فليكوفسكي فيشير إلى اقتناع (د. فيديون) أخيراً برأي (فليكوفسكي) وموافقته على إعادة صياغة التاريخ المبني على أسس غير ثابتة، ومع قراءة متأنية نكتشف أن (فيديون) كان لديه تحفظات وآراء ترفع بها عن الإقحام في عمل (فليكوفسكي)، لكن الأهم هو أن فيديون احتاج ست سنوات ليقتنع أن التاريخ القديم يقوم على (أسس غير ثابتة)، أما التعبير الأصدق (غير يقينية أوقاطعة)، وهو أمر معلوم لدى جميع العارفين بذلك التاريخ، ويعلمون أيضاً أن ذلك ليس لعيب فيه أوخلل ينتظر (فليكوفسكي) ليصلحه، إنما هو ناتج حلقات مفقودة لم تقدمها لنا الحفائر الأركيولوجية حتى الآن، والتي تقدم كل يوم جديداً يملأ مثل تلك الثغرات، والقول باحتياج (فيديون) لست سنوات للاقتناع بفرضية الكتاب، أسلوب فيه التواء يسمح بتسرب المعنى الآخر للذهن، لكن إن كان حقاً، قد احتاج (فيديون) ست سنوات ليقتنع بأمر معلوم، فربما فسر لنا ذلك أننا لم نسمع به من قبل بين العلماء المتخصصين.

ثم يقول: «كما أدين أيضاً للدكتور روبرت هـ. فايفر المرجع الفذ لدراسات الكتاب المقدس، ومدير بعثة التاريخ القديم بجامعة بوسطن، ومحرر جريدة الكتاب المقدس، ومؤلف العمل المميز عن العهد القديم (لاحظ الألقاب التي يعددها فليكوفسكي للمرجع الفذ، محذراً فيما يبدو أي متواضع مثلي لايحمل مثلها من محاولة التعرض له)، وهو من الشخصيات التي يركن إلى آرائها)، . . إن فايفر

اقترح عليّ أن أحاول إثبات فرضياتي على أسس من الوثائق الآثارية، وهو ماأخذت به»، وهنا واضح من رؤية فايفر مايشير إلى خلل تلك الفرضيات، عدم قناعته بما قدم كاتبنا، مع رفضه التورط بالتأييد لفليكوفسكي.

وللاختصار نصل مباشرة إلى قوله: «كما قرأ أيضاً البر وفيسورج. جارستانج المنقب في آثار جيركو، النسخة الأولية للقسم الأول (الذي نحن بصدده)، وأقر بأن وصف الوثائق المصرية القديمة للكارثة التي صاحبت الخروج، يتطابق تماماً مع وصف الكتاب المقدس، مما يثبت أنهما وصفان لحدث واحد»، وهنا أرى من واجبي الإشارة إلى أن (جارستانج) هذا هو صاحب كشف لجعران في (جيركو) المزعوم أنها (أريحا)، وأن هذا الجعران المصري عليه كتابة تشير بالقطع وباليقين إلى أن النبي موسى هو ابن الفرعونة (حتشبسوت)، بينما نرى نحن من جانبنا أن تلك كانت أكبر تلفيقة في تاريخ علم الآثار، وكارثة علمية حقيقية، ولايمكن أن تتفق بأية حال مع بقية الشواهد والقرائن التي جمعناها لكتابنا (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولأن عملنا هذا مازال قيد البحث، فمن الأفضل تأجيل نشر الفضائح الآن، ومؤقتاً، لأننا مع (فليكوفسكي) مع ماهو أكثر من فضيحة، وعليه يبدو أننا قد غامرنا بنزول الساحة أمام (فليكوفسكي)، وقبلنا التحدي، الذي لانقدم فيه الآن بديلاً لفروض وطروحات فليكوفسكي، قدر ماسنثبت أن تلك الفروض والطروحات قامت على تلفيق وتزوير، احتاج كشفها صبراً وجلداً، ربما لايصل إلى صبر (فليكوفسكي) وجلده على البحث بطول كتابه، لكنه كان كافياً لتقويض كل ماقدمه لتأسيس خرسانته المسلحة، بحيث إذا نجحنا في مهمتنا تلك فإن ذلك سيكون كفيلاً بسقوط كامل للتنظيرة التاريخية للقومية الإسرائيلية، في كتابها (عصور في فوضى)، التي تم وضعها أصلاً لشعب إسرائيل ودولته الحديثة، وللجميع لاشك، لكن في المقام الثاني بعد إسرائيل فهي موجهة بشكل خاص للمصريين، الذين يجب عليهم أن يلحظوا في ضوء ماقدمه، أن انهيارهم، وتحولهم من دولة عظمى وحضارة كبرى قديمة، إلى دولة من دول العالم الثالث الآن، يجب أن يقارن فيه الحالي بالماضي، وإن صورة اليوم طبق أصل ماضٍ، وأن ذلك السقوط لم يكن إلا ناتج سيطرة بدوية عربية متخلفة، تلقي بمرآتها في مرآة القرون الخوالي،

أيام احتلال أسلافهم الهكسوس لمصر، وأنه كما تحالف (شاول) أو ملوك إسرائيل مع الفرعون (أحمس) للقضاء عليهم، فلا خلاص إلا بتحالف مماثل للقضاء على هكسوس العصر، بما يعيد للمملكتين: الإسرائيلية والمصرية ماضيهما التليد، وكان هذا قمة أهداف العمل غير المعلنة، لكنا قبل البدء في التعامل مع (فليكوفسكي)، نؤكد مرة أخرى أنه عقل من نوع نادر، ولايصح بحال مقارنته بالمضحكات المبكيات فيما قدمه باحثونا بذات السبيل عن تاريخ بني إسرائيل وعقائدهم، وهي أعمال تنضح بالعنصرية وتدعي العلمية، لكنها بجوار عمل كهذا تصبح لوناً من خطب أيام الجمعة، وصفحات الإنشاء القلقشندي، الذي لا يؤثر إلا منفراً، ناهيك عن سطحيته وسذاجته، ومايتركه من انطباعات أن تلك الأعمال كانت لديهم اهتماماً جانبياً، لأنه لايصح - إيمانياً - إلا الصحيح، وأن عقائد بني إسرائيل وتاريخهم لايحتاج لأكثر من جرة قلم وينتهي الأمر[1]، هذا بينما كرس (فليكوفسكي) عمره كله من أجل عمله هذا، فأين نحن من ذاك؟ استفسار - لاشك - أشد سذاجة من أعمال باحثينا.

ولقد بدأ (فليكوفسكي) من حدث الخروج، والأحداث التي صاحبت ذلك الحدث، وبنى كل عمله على التأريخ لزمن الخروج، الذي استدعى بدوره إعادة النظر في تاريخ المنطقة برمتها، بعد كشفه لخطأ هائل، سببه ذهاب التاريخ التقليدي إلى كون ذلك الخروج قد حدث في عصر الدولة الحديثة (الإمبراطورية)، بينما هو حسب إعادة الصياغة والتزمين، ينبغي الرجوع به إلى العصر المتوسط الثاني، مع نهاية الأسرة الثامنة عشرة في الدولة الوسطى، مما يشير إلى أن دخول بني إسرائيل إلى مصر يجب أن يكون قد سبق ذلك الزمن بفترة مناسبة، معتمداً خلال ذلك كله على قياس تلك الفترة الزمنية مقارنة بالكتاب المقدس، الذي أثبت صدقاً مذهلاً، وتطابقاً يفوق الوصف مع الوثائق التي اكتشف (فليكوفسكي) أنها تشهد بأحداث الخروج.

---

(١) انظر مثلاً: د. صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام (في مجلدين فاخرين ومُذهبين)، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.

لكن ماذا عن الدخول؟

إن (فليكوفسكي) لايتعرض لهذا الأمر بالمرة ولا مرة؟! وهو الأمر الذي يضع عدداً من علامات الاستفهام، ودونه لايمكن البدء في التعامل مع حدث الخروج وباقي عمل (فليكوفسكي) المثير، وحدث الدخول يبدأ مع أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وأبيهم (يعقوب) الملقب بإسرائيل، ومع بداية الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين، حيث يلقي الأسباط المكرمين بأخيهم المميز (يوسف) في بئر، حيث تلتقطه قافلة تجار (إسماعيليين) أو (مديانيين) ـ يتضارب الكتاب المقدس هنا ـ ويبيعونه لفوطيفار رئيس شرطة مصر، إلى أن يعلم الفرعون بقدرات يوسف على التبصير وقراءة الطالع في الأحلام فيقربه منه، وبمهارة يوسفية يتمكن ابن إسرائيل ذو الجمال الأخاذ من الوصول إلى كرسي وزارة خزانة مصر، ويرسل في طلب أبيه وإخوته ليقيموا معه في بلاد النيل، ويستقر الرعاة في مصر، وكانت «جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون ٤٦ ـ ٣٧»، و«سكن إسرائيل في مصر في أرض جاسان ٤٧ : ٢٧»، «ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر ٥٠ : ٢٦».

ثم يستكمل سفر الخروج قصة الدخول، فيقول «وأما بنوإسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً، وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا بنوإسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس ١ : ٧ ـ ١١»، ثم يلي ذلك سرد الأحداث المعروفة مع ظهور (موسى) من نسل يعقوب (إسرائيل) حتى الخروج الإعجازي، وحسب النص التوراتي اليوناني المعروف بالسبتواجت (السبعيني)، فإن مدة بقاء بني إسرائيل في مصر كانت ٢١٥ سنة، أما النص العبراني المازوري وهو الأصل الذي ترجمت عنه النسخة العربية المتداولة الآن، فيذهب إلى أن مدة بقاء بني إسرائيل في مصر استغرقت ٤٣٠ سنة، وتشهد على ذلك عدة نصوص توراتية، منها بالنص العبراني: «ودور ربيعي يشبوا هنا» وتعني «في الجيل الرابع

يرجعـون إلى هنـا»، وقـد احتسبت كلمة «دور» بمعني مئة سنة كاملة، بدليل نص آخر يقول فيه الرب لإبراهيم، «إعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة ـ تكوين ١٥ ـ ١٣»، وبالاستناد إلى نص آخر واضح تماماً يقول: «وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، فكانت أربـع مئـة سنـة وثلاثين ـ خروج ١٢ ـ ٤٠»، هذا بينما يحدد لنا الإصحاح السادس من سفر الخروج أسماء لأربعة أجيال فقط من نسل يعقوب عاشت في مصر إلى زمن الخـروج، فأنجب (لاوي) أخـو يوسف وابن يعقـوب (كوجاث)، وأنجب كوجاث (عمـران) وأنجب عمـران (مـوسى) الـذي قاد رحلة الخروج، ولو افترضنا أن كلاً منهم قد أنجب ابنـه ولـه من العمـر خمس وعشرون عاماً، فإنهم يكونون قد لبثوا في مصـر حوالي مئـة سنـة ربما تزيد قليلاً، وليس أربعمائة سنة، ذلك الزمن المعمول به لدى الباحثين التوراتيين لمدة بقاء الإسرائيليين بمصر، وهورقم (أي الأربعمائة سنة) بجمعه لستمائة ساقطة من تاريخ (فليكوفسكي)، يذهب بنا إلى عصر بناة الأهرام، ويكون بنو إسرائيل اليوم، هم فعلاً أحفاد بناة الأهرام، الذين استعبدوا في مصر.

هذا بينما على الجانب الآخر، يعطي لنا سفر الخروج عدد الخارجين من بني إسـرائيـل في قولـه: «فارتحل بنو إسرائيل.. نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال، عدا الأولاد ١٢ : ٣٧»، وبـإضـافـة الأولاد والنسـاء ربـما ارتفـع الرقم إلى أكثر من مليون، وربما ارتفع إلى مليونين إذا أخذنا بالاعتبار بقية النص «وصعد معهم لفيف كثـير جداً أيضـاً ـ ١٢ : ٣٨»، وإن كان لايحـدد جنس هؤلاء اللفيف الـذين لن يكونوا بالطبع جنساً آخر غير المصريين، بما يشير إلى خروج أعداد من المصريين مع الخارجين.

وهكـذا فإن (فليكـوفسكي) لايتعـرض بالمرة لهذه الإشكـاليـة، التي دفعت المؤرخـين إلى قرن بني إسـرائيـل بالهكسوس بالنظر إلى عدد الخارجين الهائل، وهو ماكـان منـاط احتجـاجـه ورفضه، وقد أسس هؤلاء المؤرخون رأيهم بالإضافة إلى عدد الخـارجـين، على الـزمن الـذي استغـرقوه بمصر وهو أربعة قرون، مع الأخذ بالحسبـان أن رقم الخـارجـين لايتناسب بحال مع سبعين فردا دخلوا مصر وعاشوا فيها لأربعـة أجيـال فقـط. هذا بينـما أهمل (فليكـوفسكي) مسألة الدخول بالمرة، حتى

لايتعرض لإشكالية: كيف ينجب سبعون شخصاً مايزيد عن مليون شخص خلال أربعة أجيال فقط، وهو ماكان ممكناً أن يضطره إلى الأخذ بأحد احتمالين، لابد أن يكون الكتاب المقدس بموجبه كاذباً في الاحتمال الآخر.

ـ فإما أن يأخذ بكون الخارجين نسلاً لأربعة أجيال فقط، وفي هذه الحال لن يزيدوا بحال عن خمسمائة شخص، مع افتراض فحولة لاتبارى في الرجال، وخصوبة تثير الشبق في النساء، وهو ـ أساساً ـ مالن يلتقي مع فروضه ونتائجه، حيث انتهى إلى أن (شاول) ملك اليهود، مع مئات الألوف من جنوده، وهم من دمروا عاصمة الهكسوس (حواريس) وحرروا مصر.

ـ وإما أن يأخذ بالاحتمال الثاني الذي يؤيد فروضه، وهو أنهم عاشوا في مصر أربعمئة سنة ليتيسر لهم إنجاب هذا العدد الهائل، لكنه في هذا الحال كان لابد أن يقر بنظرية أنهم كانوا هم ذات عين الهكسوس.

وحتى يقع بين شقي الرحا، فقد أهمل تماماً الإشارة إلى حدث الدخول، وهو الأمر الذي ربما غرب على بال القارىء، وسط زحمة الإثارة وكم الإدهاش، لكنه بتعمده هذا أثبت غرضية واضحة بعيدة عن روح العلم، وأول شروط العلم هو الأمانة فيما نعلم، وهذا أول الغيث الفليكوفسكي، كان لابد من الإشارة إليه، قبل البدء في مناقشة فروضه وطروحاته ووثائقه وبراهينه واحداً واحداً.

ونعود الآن لكلامه «إننا سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار باعتراف صريح مباشر، أن الكلمات ـ في الكتاب المقدس ـ تعني ماتقوله تماماً» لنجدها حسب ماأوردنا الآن لاتعني ماتقول، ولا تلتقي مع أي فروض، وكان كلامه تمهيداً للاستشهاد بالنص الذي أورده هكذا «ارتجت الأرض . . وارتعشت أسس الجبال . . تحركت واهتزت . . دخان ونار . . فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة» (أسقط هنا الإشارة إلى موضع النص بالكتاب المقدس؟!).

هنا عمد (فليكوفسكي) مباشرة إلى النص التوراتي الذي رآه أهلاً لتصوير الكارثة التي صاحبت الخروج، وربما مر القارىء على النقاط الأفقية بين العبارات مرور الكرام، وهي في عرف الباحثين مواضع لجمل أو فقرات تم الاستغناء عنها لعدم صلتها بالموضوع، وحتى لاتصرف ذهن القارىء عن جوهر الموضوع، وهي

إحدى أدوات البحث العلمي ولااعتراض، لكن كل الاعتراض يكون عندما نعلم أن للكاتب مقاصد غير أمينة، وأنه قد عمد إلى الإسقاط والحذف لأن المحذوف كان ممكناً أن يتعارض مع فروض الكاتب ومايريد الوصول إليه. باختصار هي انتقائية وعدم أمانة واضحة، وللتأكد إليك النص الأصلي من الكتاب المقدس:

«وفي ضيقي دعوت ربي، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه، فارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت وارتجفت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمراً، اشتعلت فيه، طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروب وطار، وهف على أجنحة الرياح، جعل الظلمة ستره، حول مظلته ضباب المياه وظلال الغمام، من الشعاع قدامه عبرت سحبه، برد وجمر ونار، أرعد الرب من السماوات والعلى، أعطى صوته برداً وجمراً وناراً، أرسل سهامه فشتتهم، وبرقاً كثيرة فأزعجهم، فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يارب، من نسمة ريح أنفك، أرسل من العلى فأخذني. . المزامير ١٨ : ٦ - ١٦».

هذا هو النص، وقد عمدنا إلى إبراز ماانتقاه (فليكوفسكي) ببنط مميز، انظر مثلاً **«صعد دخان من أنفه ونار من فمه»**، أصبحت في النص الذي استشهد به **«دخان ونار»** حتى تشير إلى صورة الكارثة التي صاحبت الخروج كما صورها، ولابأس علينا إن لفق الرجل في نصوص الكتاب المقدس، لأن بني ملته أدرى بالنصوص الأصلية، لكن البأس كل البأس أن زور علينا وعلى العالمين!!

واضح أن الرب (يهوه) هنا استجاب لدعوة الداعي بغضب، ولغضبه اهتزت الأرض والجبال، وفي حنقه ترك عرشه السماوي وركب كروباً (الكروب نوع من الثيران المجنحة، وهي بالقلب اللساني - الميتاتيز - تصبح بروكاً أوبراقاً)، وهبط ينفث غيظه دخاناً من أنفه وناراً من فمه، وهي صفات اعتيادية لرب التوراة يعرفها جيداً المعتاد على التعامل مع المقدس الإسرائيلي، فعادة مايظهر الإله في صورة التنانين، وهي الصورة التي دفعت الباحثين، ودفعتنا (في كتاب: منابع سفر التكوين إلى جمع الأدلة لتأكيد أنه ليس أكثر من رمز لقوى بركانية، لكن فليكوفسكي الذي انتوى أن يجد لكل كلمة بالتوراة نظيرها في الواقع ومايتبع ذلك

بالضـرورة من موضعة النص التـوراتي وعقلنتـه، فقد قام من البداية باستبعاد كل مايمكن أن يعطي دلالات أسطورية، هذا ناهيك عن كون هذا النص تحديداً من النصـوص التي كتبت متأخـرة عن كتـابـات أخـرى بالكتـاب المقـدس، ويـذهب البـاحثـون إلى احتـمال كتـابتهـا إبان أسر اليهود في بابل أو ربما قبله بقليل، أي أنها لاتـرقى أصـلاً لعصـر قائلهـا النبي (داود) في الألف الأولى قبل الميلاد، وحتى (لو) كانت نسبتها لداود صحيحة، وحتى (لو) كانت نسبتها للألف الأولى قبل الميلاد، ومـاقبلهـا بقليـل صحيحـة، وحتى (لو) دونت وقتها فوراً (بالفرض)، وفي كل (لو) كسر لحقيقة علمية، فإن النص يبعد عن زمن الخروج، وحسب تزمينه هو للعصور، حوالي ستة قرون كاملة، فهل يصلح للشهادة على واقعة مضى عليها ستمائة سنة؟ مع ملاحظـة أن كاتبنـا لم يشـر بالمـرة إلى كل تلك الملابسات المحيطة بالنص، وإنما أورده كما لو كان شهادة شاهد عيان على الكارثة، أما الأجدر من كل هذا، ويدفعنا لنصـح القـارىء بإلقـاء تلك الشهـادة في أول صنـدوق قمامة يقابله، فهو ماجاء في مقـدمـة ذلـك النص ويشـرح الظروف التي قيل فيها، حيث يقول: «المزمور الثامن عشر لإمام المغنين، لعبد الرب داود، الذي كلم الرب بكلام هذا النشيد، في اليوم الذي أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه، ومن يد شاول».

ولإيضاح المقصود في تلك المقدمة التي سبقت النص، نورد قصة من أطرف القصص التـوراتيـة المقـدسـة، بإيجاز، فبعد أن هزم الفلسطينيون بني إسرائيل أيام القضاة، اجتمعت قبائل إسرائيل وطلبت من القاضي الكاهن (صموئيل) أن يختار لهم ملكـاً كبقيـة الشعـوب، يجمـع صفـوفهم وينظمهم ويقودهم بأسلوب الجيوش النظـاميـة لحرب الفلسطينيـين، «فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب ـ صمـوئيـل أول ٨: ٥»، فاختـار لهم (شـاؤ ول) كأول ملك لإسـرائيل، وكان أهم صفاته التي أهلته للملك، أنه كان «شاب، وحسن الصورة، ولم يكن رجل في بني إسـرائيـل أحسن منـه، من كتفـه فما فوق كان أطـول من جميـع الشعب ـ ٩: ٢»، ودخـل (شـاول) عدة حروب منهـا حربه مع العمالقة التي اهتم بها (فليكوفسكي)، لكن شاول أبقى على الغنائم من الأطفال والبهائم، وأطلق سراح زعيمهم (أجاج) بعـد إذلالـه وكسـر شوكتـه، فغضب يهوه على (شـاول)، لأن أوامـر الرب كانت:

«اذهب واضـرب عماليق، وحـرمـوا (أي أبيـدوا، وهـو اصطـلاح توراتي معـروف ومتـواتـر) كل مالـه، ولاتعف عنهم، بل اقتـل رجـلاً وامـرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً ـ صموئيل أول ١٥ : ٢، ٣» (لاحظ أن فليكوفسكي لايأتي أبداً على ذكـر بربـريـة بني إسـرائيل الوحشية تلك بالمرة بطول كتابه، ولايذكر شيئاً عن إبـادتهم الـرجـال والنسـاء والأطفـال حتى البهائم، لأي شعب يوقعه سوء الحظ في أيـديهم، لكنـه ينعي وينعب طوال كتابه على العرب الهكسوس، دونما دليل واضح على وحشية مشابهة اتسم بها الهكسوس تشابه وحشية وقسوة بني إسرائيل وربهم يهوه).

المهم أن الرب يغضب على (شاول) لرحمته بملك العماليق (أجاج)، ويسلط عليـه عفـريتـاً يلبسه، لذلك احتاج شاول إلى إقامة حفلات الزار بالطبول والزمور لتصرف عنه العفاريت، وكان رجل الزار هو (داود بن يسي إمام المغنين والزمارين)، الـذي دخـل البلاط ولمس حلاوته فطمح إلى الاستيلاء على العرش، بالتعاون مع الكاهن (صموئيل)، وبدأ الصراع الذي انتهى بمقتل (شاول) وتسلق (داود) سدة الحكم، ومن هنا قام (داود) يغني على مزماره تلك الأنشودة، التي يقدم فيها الشكر للرب عرفـانـاً، ولا علاقــة لهذه التـزمـيرة البتـة بحـدث الخـروج، وقـد ارفق (فليكوفسكي) معها شهادات أخرى، كالاستشهاد بمقاطع من سفر (أيوب) المتأخر بدوره عن الأحـداث بما لايقـل عن ألف عام، من قبيـل «هـو المزحـزح الجبال . . إلـخ»، وهي عبـارات تجدهـا في التـوراة بطوله، أو في أي نص ديني في أي دين آخر لتمجيد عظمة الإله، أي إله، وتصوير قدراته على اللعب بأركان الطبيعة الثابتة.

وهكـذا يعـزف (فليكوفسكي) مع داود على مزماره مرة، وينوح مع بكائيات (أيـوب) على حالـه المتـدهور وتوقعه تدخل الغضب الإلهي مرة أخرى، بنزوع غير خاف لنزع النصوص من سياقها، وتفريغها من دلالاتها الأصلية، لتشهد معه على حدث الخروج الأسطوري.

مناقشة الوثائق

١ ـ تزييف دلالات بردية ليدن :

من المعروف أن بردية ليدن (إيبور) قد نسخت من قبل شخص عاش في الأسرة الثامنة عشرة أو بعدها، عن أصل يعود إلى بداية العصر المتوسط الأول بعد الدولة القديمة، وقد انتهى إلى هذا الرأي ـ بقرائن لاتهم تفاصيلها إلا المصرولوجيين ـ (السير آلن هنري جاردنر)، ووافقه عليها بعد نشره الترجمة كاملة جمهرة العلماء، والبردية على حالها الراهن تتكون من أربع عشرة صفحة، تشمل فقرات نثرية، وست قصائد شعرية طويلة، وربما كان من الأفضل هنا استحضار كلام (جاردنر) نفسه حول تلك البردية حيث يقول: «إن الفوضى التي ظلت قائمة بصفة مستمرة أو متقطعة حتى الأسرة الحادية عشرة، إنما هي صورة لثورة حقيقية انطبعت في أعجب وأهم بردية من الأدب المصري، الذي استطاع أن يبقى رغم مخاطر الأيام، ولا ترجع هذه البردية المحفوظة في مجموعة ليدن إلى ماقبل الأسرة الثامنة عشرة، ولكن حالة البلاد التي تناولتها بالوصف، لايمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية، ولا هي تصلح لأن توضع في أي مكان من التاريخ المصري، سوى الفترة اللاحقة لنهاية الدولة القديمة، أما المقدمة فضائعة لسوء الحظ، وقد فقد معها كذلك تسجيل الظروف التي دفعت المتحدث لإلقاء موعظته، وهناك أول الأمر مجموعة كبيرة من الفقرات المختصرة تصور حالة الدمار والغزو، التي سقطت البلاد فريسة لها نتيجة عدوان مغامرين منحطي الأصول، وآسيويين يشقون طريقهم إلى الدلتا . . . إنها تعكس صورة لما آلت إليه الارستقراطية المنهارة . . . أما الملك الذي يهيل إيبور اللوم على رأسه من جراء ضعفه وتراخيه، فربما كان من آخر فرع بين الملوك المنفيين (آخرهم هو آخر ملوك الأسرة السادسة بيومي الثاني، والإضافة من عندنا) ومهما كان من أمر، فإنه لانزاع في أصالة بردية

ليدن وصدقها، من حيث هي وصف لمصر في العهد الوسيط الأول»[1].

وكان حرياً بأي باحث غير متخصص في المصريات وأركيولوجيتها، أن يترك الأمر لأهل مكة فهم أدرى بشعابها، وربما جازله أن يأخذ بأرجح الشهادات، ليبني بعد ذلك عمله أو كشوفه، لكن (فليكوفسكي) ليس باحثاً عادياً، لذلك رفض كل ماقيل بشأن تلك البردية وركن إلى احتمال ضعيف قدمه (زيته)، ومن ثم رفض نسبتها للعصر المتوسط الأول، وألحقها بالعصر المتوسط الثاني، لأنها في هذه الحال ستوافق ما ذهب إليه، بينما نحن سبق أن أقمنا عملاً كاملاً تأسس على إشارات لجاردنر وبيت وبرستد وارمان وسليم حسن ونجيب ميخائيل وعبد العزيز صالح . . إلخ)، وهي شذرات تشير إلى تصوير البردية لحال يبدو كلون من ألوان الثورة، ثم أقمنا عمد العمل وجمعنا له الدلائل والشواهد مع مالحقها من استنتاجات، بحيث أثبتنا في كتابنا (أوزيريس عقيدة الخلود في مصر القديمة»[2]، أن الظلم الذي حاق بالجماهير في عصر بناة الأهرام، والفوارق الطبقية الهائلة التي اكتمل نضجها في ذلك العصر، أدت إلى ثورة شعبية عارمة، كانت هي السبب في سقوط الأسرة السادسة والدولة القديمة، وأن بردية (إيبور) ليست سوى واحدة من رجع الصدى الأدبي لتلك الأحداث الجسام.

وهنا أجدني مضطراً لتقديم اعتراف متواضع، مضمونه أني ماكدت أنتهي من قراءتي الثالثة لكتاب عصور في فوضى حتى كان (فليكوفسكي) قد أنشب كل إمكاناته وبراعته في دماغي، حتى وصلت إلى لحظة كادت تكون هي التسليم له بكل ماذهب إليه، ومن ثم كان لابد أن أعيد النظر فيما سبق أن وصلت إليه في أعمالي المنشورة على الأقل، وأن أعلن في أقرب مناسبة تراجعي الكامل عن كل ماوصلت إليه في أبحاثي من باب أمانة واجبة علمياً، كما كان ينبغي إذا أردت الاستمرار أن أبدأ من نقطة الصفر مرة

---

(١) جاردنر (آلن هنري): مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) د. سيد محمود القمني: دار الفكر، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨.

أخرى، وأعيد النظر في كل ماوصلت إليه حتى الآن في قراءتي للتراث، وهذا طبعاً عدا كم المعاناة التي عشتها مابين انتماءاتي الوطنية والقومية، وبين إصراري على التزام نتائج العلم الصادق ـ وهي ماتصورت (فليكوفسكي) قد انتهى إليها ـ حتى لو خالفت أشد الأمور حميمية، وكان الحل هو العزوف الكامل عن البحث والدرس بشكل نهائي.

ولولا محاولة أخيرة في قراءة رابعة لعصور في فوضى، تسعى للاطمئنان اليائس قبل أن أنفض يدي من شؤون البحث، قصدت منها مراجعة أخيرة لمكمن سقطاتي البحثية قياساً على نتائج (فليكوفسكي)، لأضعها بين يدي باحث صديق أطمئن لإخلاصه ليأخذ الخطوة المناسبة، أقول: لولا تلك القراءة ماكان ممكناً أن أكتب هذه الصفحات، فسرعان مابدأت تتتالى اكتشافاتي لمكامن الشراك والفخاخ، وبدأ التلفيق يظهر ثم تزييف الدلالات آخذاً بعضه برقاب بعض، تلك الشراك التي تمت صياغتها وترتيبها بحرفية عالية الجودة، وبإتقان غاية في الكفاءة.

وهنا لا أجد مندوحة من إطلاع قارئي على فكرة أساسية تتعلق بذات الوثائق التي استشهد بها (فليكوفسكي) من نصوص مصر القديمة، وأدت فيها تلك الوثائق ـ عندنا ـ دوراً يختلف تماماً، وسنكتفي بتلك الفكرة الأس في عملنا (أوزيريس..) والتي استغرقتها ثلاث أسر في الدولة المصرية القديمة (الرابعة والخامسة والسادسة)، وما أفرزته تلك الأحداث من بنى فكرية، مع عدد من القرائن والبراهين التي تشير إلى ثورة جماهيرية شعبية حقيقية، صاحبتها حركة فكرية نشطة أفرزت للثورة تنظيرها ووضعت لها أيديولوجيتها، تلك الأيديولوجية التي تمثلت في ديانة جديدة، ورب جديد، يهتم بشؤون المستضعفين، ويضع أسس النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي طمح إليه الثوار، وقد تمثلت الأدلوجة في ديانة الإله (أوزيريس)، وهو مادفعنا لجمع عدد آخر من البراهين لدعم فكرة محورية، هي حداثة ذلك الإله بالنسبة للآلهة الرسمية وشبه الرسمية، وأن ظهوره رافق مقدمات تلك الثورة، مما استدعانا للرجوع إلى ماتركه العصر من تراث أدبي ينطق بما حدث، وكان على رأس تلك الأدبيات (بردية ليدن).

ولا يبقى الآن سوى موقفين يجب أن يثبت أحدهما صدقه الموضوعي:

الأول: أن تكون الأحداث التي سجلتها البردية تصويراً حقيقياً لكارثة الخروج كما رواها الكتاب المقدس، والثاني: أن تكون تلك الأحداث تصويراً لثورة شعبية، واعية لأهدافها الطبقية، دلت عليها ـ في رأينا ـ روح ثورية في أشعارها، متضمنة مطالب بالعدل الاجتماعي، والتقريب بين الطبقات، مع بعض المحافظة التقليدية الطبيعية تماماً، من شاعر حكيم، أتاحت له ظروفه الاجتماعية ذلك القدر من التعليم.

وحتى لانفعل فعل (فليكوفسكي)، فسنقدم الوثيقة كما ترجمها المتخصصون من علماء المصريات عن الهيروغليفية، ولن نتدخل في النص إطلاقاً، فقط سنسقط الأبيات التي يعاد تكرارها نصياً، مع الاستعانة الأساسية بـ (سليم حسن)، مع التدخل بالاستعانة بترجمة (جاردنر) في بعض المواضع لما نجده غير واضح أو مفهوم لتيسيره على القارىء، كذلك سنستعين بترجمة (هنري برستد) لذات الغرض في أحيان أخرى، وللمدقق أن يراجع وراءنا.

ويقول الحكيم (إيبور):

حقاً فإن (. . . تالف)، وملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه، . . . وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون في كل مكان. .

حقاً إن النيل في وقت الفيضان، ولكن لا أحد يحرث من أجله. .

حقاً لقد أصبح المعوزون يمتلكون ـ الآن ـ أشياء جميلة، ومن كان يرقع نعليه أصبح صاحب ثروة. .

حقاً إن القلب لثائر، والوباء قد أنبث في كل الأراضي، والدم صار في كل مكان، ولفائف المومياوات تتكلم. .

حقاً لقد أصبح الحزن يملأ أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً، وأضحت كل قرية تقول: دعونا نقصي العتاة من بيننا. . . .

حقاً لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، وصار اللص صاحب ثروة. . .

حقاً لقد تحول النهر دماً فهل يشرب الإنسان منه؟. .

حقاً إن (. . . . تالف) والعمد والجدران قد التهمتها النيران. . .

حقاً إن حجرة قصر الملك لا تزال باقية، وتقف ثابتة . .

حقاً لقد أصبحت التماسيح متخمة بما تقنصه بعد أن ذهب إليها الناس عن طيب خاطر . . .

حقاً لقد أصبح ابن الأصل التليد مجهولاً، وأصبح ابن زوجته ابن خادمته . .

ونزل أقوام من الخارج إلى أرض مصر . .

حقاً إن الذهب والفضة والياقوت والكرنيليان والبرونز والمرمر (. . تالف). تحلّي جيد الجواري، والنبيلات مشردات في الشوارع، وربات الخدور. يقلن: ليت عندنا شيئاً نأكله.

حقاً فإن (. . تالف) أعضاء النبيلات في حالة يرثى لها إذ يرتدين الخرق الممزقة . .

حقاً إن صناديق الأبانوس تتكسر وخشب سسنم الثمين يقطع لصنع الأسرة . .

حقاً إن (ألفنتن) و(طينة) لاتؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية . . .

فما فائدة وجود خزانة للدولة بدون دخل؟ . .

هذا ماؤنا وهذه سعادتنا ولكن ما العمل؟ وكل شيء ينحدر إلى دماء . . .

حقاً إن الأموات أصبحوا كالأحياء . . وأصبح لايميز بين ابن رفيع الأصل وبين من لا أب له، والجلبة لم تكن بهذه الشدة في سني الجلبة، ولا نهاية للضوضاء . .

حقاً لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم عرض الحائط، وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق، وأصبح الإله خنوم يئن تعباً . .

حقاً هؤلاء الذين يرتدون الكتان الراقي أصبحوا يضربون، واللاتي لم يسبق أن شاهدهن نور النهار قد خرجن، واللاتي كنّ على أسرة أزواجهن بتن ينمن على مضاجع مقضة، وأصبحت السيدات يتألمن كالإماء . . .

حقاً لقد أصبحت الخادمات يوجهن ألسنتهن حيث شئن، وعندما تتكلم السيدات فإنهن يبدين الملل . .

حقاً لقد أصبح الولاة بائسين جياعاً . .

حقاً لقد أصبح الأحمق يقول: «إن عرفت اين الإله؟ قدمت له القرابين!.
حقاً إن قلوب الماشية تبكي والقطعان تندب حال البلاد. . .
حقاً لقد عمت الوقاحة كل الناس.
حقاً لقد دمر ماكان بالأمس مرئياً. .

حقاً لقد أصبح القوم يأكلون الحشائش ويشربون الماء. . وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير. . . وجرد الملأ من الملابس والعطر والزيت. .

حقاً لقد سلبت قاعات المحاكم الفاخرة، وأصبح المكان المحظور مشاعاً. .

حقاً لقد فتحت إدارات الدولة ونهبت قوائمها، وصار العبيد يملكون عبيداً،

حقاً لقد ذبح الموظفون الرسميون وسلبت منهم سجلاتهم، ودمرت دفاتر كاتب الضرائب، وأصبحت غلال مصر مشاعاً.

حقاً لقد وضعت قوانين الحكم في الساحات، وأخذ العوام يدوسونها بالأقدام في الطرقات والفقراء يمزقونها في الأزقة.

حقاً لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسع. . وازدحمت قاعات المحاكم العليا بالغوغاء، وأخذ الفقراء يروحون ويجيئون في البيوت العظيمة.

حقاً لقد أصبح أولاد ولاة الأقاليم يلقون في الشوارع. . .

انظر إن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد.

انظر لقد حدثت أمور لم تحدث من عهد بعيد فقد أختطف الفقراء الملك.

انظر إن الذي دفن كصقر يرقد الآن على نعش وما أخفاه الهرم بات خاوياً. .

انظر إن الناس يظهرون العداء لليورايس (ثعبان التاج الملكي، التوضيح من عندنا) حامي الدرع، الذي جعل الأرضين في سلام. .

انظر إن الأرض ملأى بالعصابات. . والثاوين في المقابر ألقوا على قارعة الطريق، ومن لم يكن بمقدوره الحصول على كفن أصبح يملك ثروة. . ومن لم يملك حجرة صار يمتلك فناء مسوراً.

انظر إن كبار القضاة قد طردوا ليهيموا في الأرض. . .

انظـر إن النبيـلات يرقـدن على الفـراش الخشن . . ومن لم يكن ينـام على مصطبة حجرية بات يمتلك سريراً . .

انظر إن الرجل الغني يمضي ليله عطشان، ومن كان يتلقى فضلاته أصبح يمتلك الجعة الفاخرة . .

انظـر إن أولئـك الـذين كانـوا يملكـون المـلابس الكتانية أصبحوا في خرق بالية، ومن كان لاينسج لنفسه يلبس الكتان الراقي . .

انظـر إن الـذي ماكـان يستطيع صنع قارب لنفسه أصبح يمتلك سفينة بينما صاحبها ينظر إليها بعد أن سلبت منه . .

انظـر إن من كان يجهـل الضـرب على العـود أصبح يملك الهارب البديع، ومن كان لايغني له أحد بات تغنيه آلهة الطرب . .

انظر إن من كان ينام بلا امرأة لفقره أصبح يجد الأميرات .

انظر إن الفقير أصبح يمتلك ثروة تجلب له مديح العظماء .

انظر إن من كانوا يملكون خوى وفاضهم . .

انظر إن الأصلع الذي لايعرف الزيت أصبح يمتلك أواني العطور الزكية . .

انظر إن التي كانت تشاهد وجهها في الماء أصبحت تملك مرآة .

انظر إن أبناء البلاط في ملابس ممزقة وماشيتهم منهوبة .

انظر إن القصابين يذبحون الماشية للفقراء . . .

انظر إن القصابين يذبحون الأوز ويقدمونه للآلهة على أنه ثيران (؟!)

انظر إن من كانوا ينامون على أسرة ينامون اليوم على الأرض، وذاك الذي كان ينام في الأوساخ يتدثر في سرير . .

انظر إن من كان لايمتلك أتباعاً أصبح صاحب عبيد، ومن كان من السادة أصبـح ينفـذ الأوامر . . إن الفقراء يستيقظون وهم لايخشون نور النهار، وإنما الخيام صنعوها مثل المتوحشين . .

انظر أين هو ليحاسب الناس؟ . . إنه يطفىء اللهيب، يقال عنه راعي كل الناس، ولا يحمل في قلبه شراً، وحينما تكن قطعانه قليلة العدد، فإنه يصرف يومه في جمعها إلى بعضها وقلوبها محمومة . . فأين هو اليوم؟ هل هو بالمصادفة نائم؟ إن بأسه لايرى (تلفيات شديدة) . . .

إن القيادة معك والفطنة وأسباب العدالة، لكنك نشرت الفوضى في البلاد مع الفتن، الغوغاء يحدثون الضوضاء. . بينما تتلى عليك الأكاذيب والبلاد كالقش الملتهب. . . ليتك تذوقت بعض هذه المصائب بنفسك. . (بعد ذلك تلفيات لاتسمح بتكوين فكرة صحيحة أو جملة مفيدة)[٣].

وتأسيساً على تلك المعاني، اعتمدنا بردية ليدن كوثيقة دالة على الثورة، التي بدأت عملياً وفعلياً بانتشار الكفر بالآلهة الرسمية للدولة، حتى صار الرجل الأحمق يقول: إذا عرفت أين الإلـه قدمت له القرابين، و(الأحمق) هنا تترجم أيضاً (المنفعل، ما هو ضد الرزانة والتصرف الكَيِّس عموماً)، وبينما كان القصابون مشغولين بذبح الثيران للجوعى، كانوا يقدمون للآلهة الأوز على أنه ثيران، إشارة وسخرية من آلهة لاتميز في توزيع الأرزاق، ثم الأحداث التي تلت ذلك لإقصاء العتاة وتدمير مباني القضاء الظالم وسجلاتها، ونهب ثروات مقابر الأغنياء والملوك، وبدا أن كل شيء ينقلب رأساً على عقب، فالأرض «تدور حول نفسها كعجلة صانع الفخار»، والشطر الثاني من البيت يشرح مباشرة «وصار اللص صاحب ثروة»، وتمكن الثوار من القبض على الملك الذي لم توضح البردية مصيره، وهو معلوم على أية حال، وانفلتت الجماهير من عقالها لتدمر بدون تمييز حتى صار نهر النيل بلون الدم لكثرة القتلى وماكانت تلتهمه التماسيح، مع إشارات نادرة ويتيمة لتسلل أغراب للدلتا، بحيث بدا الحدث هامشياً بجوار الأحداث الأخرى الجسام، وهو التسلل الذي تم القضاء عليه مع استقرار ملك أسرة أهناسيا الإقليمية إبان

---

(٣) أدرجت تلك البردية في متحف ليدن تحت إسم ورقم Leyden Papyrus, No. 344 وقد اعتمدنا هنا ترجمة د. سليم حسن: الأدب المصري القديم، كتاب اليوم، ١٩٩٠، ج ١، ص ٣١٠، ٣٣٢، وماسيلحظه المدقق من بعض الاختلاف مع تلك الترجمة في النص الذي عرضناه، فقد جاء بالاستعانة بترجمتين وردتا عند:

العصر المتوسط الأول، حتى يقول أحد ملوكها (خيتى) لولده (مرى كارع) : «لا تزعج نفسك بالآسيوي التعس، إن هو إلا آسيوي»، ثم تابع حكام الأسرة الحادية عشرة تطهير البلاد منهم، ولم يأت زمن الأسرة الثامنة عشر ونجد أي ذكر لوجود آسيوي على أرض مصر، وإن كان المعلوم أن ذلك التسلل قد تكرر لكن في شكل غزو كبير للهكسوس جاء بعد سقوط الدولة الوسطى، ولعل إشارة (إيبور) إلى أن الفقراء إبان الثورة، قد أقاموا لأنفسهم خياماً في الشوارع مثل المتوحشين، إشارة ساطعة تقطع بأن هؤلاء كانوا ثواراً مصريين يأتون تصرفات تشبه المتوحشين، وهي الوصف المصري للبدو، أما أن تذكر البردية الإله رع والإله خنوم، ولا ذكر إطلاقاً للإله آمون، فذلك في رأينا يشير إلى وجوب نسبة البردية للعصر المتوسط الأول حيث لم يكن آمون قد ظهر بعد، حيث إنه ظهر مع الملك أمنمحات الأول في الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى.

هذا ماكان عن بردية ليدن ودلالاتها، فماذا عن تلك الدلالات عند (فليكوفسكي)؟ مع الانتقاء، وملء الثغرات من عنده، لا يجد المرء نفسه إلا أمام حدث كوني عظيم «الأرض تدور حول نفسها، المدن دمرت، الكل خراب، سنوات من الضجيج»، هذا مع المقاطع التوراتية مع كل مقطع مقتطع من البردية، مع كلام من لون «إن تلك الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى أنقاض، وانهار نظام الدولة فجأة وأصبحت الحياة لا تطاق، فيقول إيبور: آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج، إن بردية إيبور تحتوي على دلالة على حدوث كارثة أرضية مصحوبة بزلزال».

ولا يفوت المدقق هنا أن تصدير هذه الفصول بعنوان (أرض مصر في جيشان) أو (في ضجيج)، عمد واضح لتزييف الدلالات في البردية، حيث عمد إلى الكلمة المصرية (هرو) التي تعنى عدداً من المعاني مثل(الركض، الثورة، أصوات الشغب والجدل والصراخ، الزمجرة، نفثات الغضب، الصراع)، ليأخذ منها فقط بمعنى زمجرة الأرض القاصرة على جيشان الزلازل، وغني عن البيان هنا، أن أسلوب المصري القديم في التدوين، له سمات خاصة، وتعبيرات خاصة، ويقصد إلى دلالات يجب الاعتياد عليها مرتبطة ببلاغيات العبارة وتراكيبها، وهو اعتياد من لزوم

مايلزم للفهم السليم لتلك الدلالات، فمثلاً عندما كان المصري القديم يقول (الأرض) نفهم فوراً أنه يقصد مصر تحديداً دون العالم أجمع، وعندما يقول (الناس) يقصد الشعب المصري وحده دون الناس، حتى أنه في البرديات المتأخرة وفي عصور الانحطاط كان المصري يبدي أسفه لأن الأجانب قد أصبحوا من (الناس)[4]؟!، لكنه يفصل عن دلالات (الأرض) و(الناس) معنى (الحكومة)، حيث لاتدخل المؤسسة السياسية ضمن تلك الدلالات، فالكلمة الدالة عليها تصبح (برعو) أي السور أو البيت العظيم، المأخوذ منها كلمة (فرعون)، والأمر هنا شبه استخدام تعبير (الباب العالي) للإشارة للسلطان أو مقر الحكم العثماني، لذلك فإن (إيبور) عندما يتمنى أن تكف الأرض عن الضجيج، يعني تماماً أمنية توقف أرض مصر عن الثورة أو ناسها عن تدمير البلاد.

و(فليكوفسكي) الذي يريد تحقيق المطابقة التامة بين أحداث البردية وأحداث التوراة، لايعمد إلى التأويل، لكنه يركن إلى قدرته على استخدام الأدوات الفنية في الصياغة والتوصيل، فيمزج كلامه بكلام التوراة بكلام البردية، ويتداخل الكل وسط شوق متأجج يضع فيه القارىء الذي إن التفت إلى الأمر في البداية، فلن يستمر منتبهاً له وسط زحمة الأحداث وتسارعها، وعندما يدرك (فليكوفسكي) التوقيت المناسب الذي يحتمل أن يكون القارىء قد بات فيه مستسلماً له، يدخل مباشرة بكل ثقله ليمرر ماقد لايتفق إطلاقاً مع فروضه، ويربط بين مالايمكن توافقه بين البردية والتوراة، فبينما كان حديث الدم في النهر لضحايا الثورة وتماسيح النيل، يصبح حديثاً عن تحويل مجرى النهر دماً، دون الاشارة إلى الثورة أو تماسيح، ويأتي بالنص «هذه مياهنا وهذه سعادتنا فماذا سنفعل؟» لتشير دون أي وجه لتشابه مع نص التوراة «مات السمك الذي في النهر وأنتن النهر»، ولما لايجد بالبردية نصاً واحداً يشير إلى ضربة البرد لايجد بأساً من الاستشهاد بنصوص تشير

---

(٤) جون ولسن: مصر، ضمن كتاب (ماقبل الفلسفة) بالمشاركة مع آخرين، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة، بغداد، د. ت، ص ٤٥، ٤٦.

لنتائج الثورة الوخيمة، كإهمال شؤون الفلاحة والري، من قبيل «لافاكهة ولامحاصيل موجودة»، كما يجعله أيضاً دلالة على ضربة الجراد الذي لا يوجد له أي ذكر بالبردية، لكنه يجد صيداً ثميناً في النيران التي أشعلها الثوار في المباني الحكومية ليطابقها مع التوراة «وجرت نار على أرض مصر»، لكن الفاضح في الأمر أنه لايزيف الدلالات فقط، بل يبلغ حد تزوير النص عندما يضيف من عنده داخل علامات تنصيص البردية «والنار التي أهلكت الأرض لم تنشرها أيد بشرية لكنها سقطت من السماء».

وأحياناً يُحمل الألفاظ فوق طاقتها، كما في تعقيبه على نص البردية «أحقاً اختفى ماكان بالأمس مرئياً»، رغم أن المصري لم يزل حتى اليوم يستخدم كلمة «بالأمس» للدلالة على وقائع وأحداث مرت عليها أجيال، أما انتحاب الماشية على أحوال البلاد، وهو تعبير شائع في الكتابات المصرية، فيتحول بقدرة قادر ليلتقي مع قول التوراة: «يد الله تكون على مواشيهم التي في الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم. . سيفتك بها طاعون»، والمثير أن مصر لم تعرف في تاريخها القديم ولا نقوشه ولا ألفاظه مايشير إلى معرفتها بالجمل، أما الأكثر إثارة فهو أن فليكوفسكي قد فاته أن المصريين لم يعرفوا الحصان والعجلة التي تجرها الخيل إطلاقاً وبالقطع، قبل قدومهما مع الهكسوس الغزاة، وحسب نظريته هو، فإن بني إسرائيل خرجوا من مصر قبل دخول الهكسوس إليها؟!

ولأن التوراة تتحدث عن ضربة البرد، ولايرد في البردية، فإن (فليكوفسكي) يتقصى حتى يجد معلومة يتيمة في كتاب وضعه (أرتبانوس) عن أحداث غير معلومة المصدر، نقلها عنه (إيسابيوس) يحكي فيها عن صقيع وزلازل أثناء ليلة البلاء الأخير «حتى أن أولئك الذين فروا من بيوتهم خوفاً من الزلزال قتلهم البرد»، والمعلوم أن (إيسابيوس) راوية مرتبط بروايات التوراة في كثير من تخريجاته، أما الكتاب الأصلي الذي وضعه (ارتبانوس) ونقل عنه (إيسابيوس) فهو كتاب مجهول، ولم تكتشف منه نسخة واحدة إلى اليوم!.

وكان معنى أن يسقط (فليكوفسكي) من اعتباراته الإشارات الكثيفة والواضحة والمتكررة إلى الثورة الطاحنة، أن يلحق الشك عمله بكامله، ولأنه

أذكى من ذلك، فقد خصص فصلاً بعنوان (البكر أو المختار) ليفرغ فيه المحتوى الثوري ودلالاته، ليصب في دلالات أخرى توافق التوراة، ولأنه من جانب آخر لم يجد في التوراة ذاتها ما يشير إلى تلك الثورة الشعبية الطبقية، فقد جعل من فصله متاهة للقارىء بعبقرية يحسد عليها، مهد له بفصل (الليلة الأخيرة)، وألحقه بملاط لاصق جيد التماسك في فصل (تمرد وفرار)، بحيث أصبحت كل نصوص البردية التي تتحدث عما لحق الأغنياء والفقراء من تحولات، ومآل إليه أبناء النبلاء من مصير بالقتل أو التشرد، إنما حديث واضح عن الضربة الأخيرة في الليلة الأخيرة، حيث سفك الرب دم المصريين في تلك الليلة، ولم يعد قانعاً بقمله وذبابه وبعوضه وجراده وضفادعه، فنزل تقتيلاً لكل بكر في كل بيت، إنسان أو بهيمة، مع الأخذ بالحسبان أن تلك الضربة لم تلحق أياً من بني إسرائيل أو مواشيهم، بعد أن ميزوا بيوتهم للرب الذي هبط يتخبط كرهاً وفظاظة، والتاثت روحه برائحة الدماء، وذلك بأن قام بنو إسرائيل يرشون دماء الحيوانات على أبواب بيوتهم كعلامات للرب الهائج، كي يظن أنه قد سفك دم أهلها فيعبر عنها[٥].

ويؤكد الرجل وجهة نظره في مقتل المختارين من مصر بنص البردية «انهار المسكن في لحظة»، بحيث إن الزلزال قتل سكان المنازل الفخمة، والبيت الملكي تحديداً (رغم نص البردية على سلامته)، لكن السؤال المشروع هنا هو: كيف أمكن الزلزال بهذه الشدة أن ينتقي انتقاءين متميزين: الأول: أن يصيب المصريين ولا يصيب الإسرائيليين (ولا يمكن في هذه الحال قبول حجة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون بعيداً عن المصريين في مصر، وإلا ما ميزوا بيوتهم بالدم، وما تيسر لنسائهم استعارة ذهب المصريات الساكنات معهن ونزيلات بيوتهن لسلبه ليلة الخروج حسب نصيحة موسى لهن وحسب نص التوراة)[٦]، أما الانتقاء الثاني غير المفهوم، فهو كيف أمكن زلزال أن ينتقي أغنياء مصر ويميز أمراءها ويصيبهم دون الفقراء؟ إن الكارثة الوحيدة والوباء الوحيد الذي يمكن أن يفرز هذا الفرز هو ثورة طبقية

---

(٥) انظر: سفر الخروج، الإصحاح الثاني عشر.

(٦) انظر: سفر الخروج، الإصحاح ٣: ١٨ - ٢٢.

واعيـة، وهـو مايفسـر لنا بقاء المعابد الضخمة والأهرام وغيرها من آثار سبق بناؤ ها العصر الذي نحن بصدده، ولم يشر إليه (فليكوفسكي) إزاء زلزاله العظيم.

ويـلاحـظ القـارىء هنـا أن كاتبنـا ـ وهو بسبيل التغلب على العقبة الكأداء بالبردية، وماتحمله من أحداث تشير إلى ثورة الجماهير المصرية ضد طغيان النبلاء والملك ـ يروح ويجيء قبل إلقاء مافي جعبته فيقلب أكثر من حقيقة رأساً على عقب، فهـو يحول الحـديث عن السجن الذي حطمه الثوار لإطلاق المعتقلين، إلى حديث آخر يقول: «لقد حرك مشهد أبناء الأمراء المسحوقين على أرض الشوارع الصخرية المظلمـة (لا توجـد في مصـر شوارع صخـريـة بالمنـاسبـة)، والجـرحى والمـوتى بين الأنقـاض، حرك لوعـة وأسى الشـاهـد المصـري، ولم ير أحـد ما حدث في أقبيـة السجن، تلك الأقبيـة التي حفـرت تحت الأرض وأغلقت أبـوابهـا على السجنـاء (الـرجـل هنـا يصـور لنا مصر كما لو كانت في أوروبا العصور الوسطى)، ولم ير أحد العـذاب الـذي تعـرضـوا له حين انهارت تلك الأقبية فوق رؤ وسهم ودفنتهم أحياء تحت الأرض»، وكـل ذلـك جاء فيـما يرى في العبارة اليتيمة، التي بحثنا عنها عبثاً، وتقول «السجن حطام».

أما كفر الناس بالآلهة الرسمية وتطاولهم عليها، فهو مايشير إلى قول التوراة: «واصنـع أحكـامـاً بكل آلهة المصريين»، ونبش قبور الموتى الأثرياء أصبح عنده «ولم تكن الأرض أكثـر رحمـة بجثث المـوتى في قبـورهـم، فالمقـابـر لفظت موتاها وتمزقت الأكفان» أما الدليل فمن الهجادا التي كتبت بعد ذلك بما يصل إلى ألفي عام.

كل هذا وورطة الأحداث الثورية قائمة، لكن الآن قد خفت حدتها في ذهن القـارىء، ويسهـل عنـدئـذ أن يسـوق تخريجه الضعيف المتكلف والمبتسر، في كون إصـرار الـبرديـة على تعرض أبناء الأمراء والحكام فقط للقتل والتشريد، هو موافقة تامـة للتـوراة، التي قررت قتـل الـرب لأبكار المصريين، والأبكار في تفسيره ليست سوى أبنـاء النخبـة والطبقة البكر المصطفاة، ولأنه لايمكن ـ عقلاً ـ قبول أن يكون يهوه قد أمضى ليلتـه يمارس نزوتـه الشـاذة في قتـل أطفـال الأغنيـاء، فلم يبق أمـام (فليكـوفسكي) سوى مزج فكـرة الثـورة ـ التي يعـترف بها بسـرعـة وبألفـاظ غير حاسمـــة ـ بإرادة الـــرب (يهـوه)، وينتهي إلى أن ربـه انتقم من المصـريـين بقتـل

المختارين المميزين من النبلاء والمترفين، ثم يردف فوراً بما يشعر القارىء بمدى موضوعيته ونزاهته فيقول: «وبرغم أن البردية المهترئة لم تحتوعلى أي ذكر للإسرائيليين صراحة أوتلميحاً، ولم تشر إلى أي من قادتهم (؟!)، فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح تام كنتيجة للكارثة، أو مجموعة الكوارث المتتالية، وهي: تمرد السكان، فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك في ظروف غامضة، وبالرغم من التطابق الوصفي للكوارث بين ماذكرته البردية، وماسردته أحداث الكتاب المقدس، فإنني إن حاولت أن أستخرج من البردية أكثر من الحقائق، فقد أعرض نفسي للريب والظنون، بمحاولة استغلال الحالة السيئة التي وجدت عليها البردية، لإثبات نتائج مسبقة بتضمينها مالم تتضمنه، لكن الإشارة للكارثة، والجماهير التي تمردت وفرت ليست غامضة، ومعناها واضح وليس فيها أي مجال للبس أوغموض.. وهي زلازل متتابعة صاحبت ظواهر طبيعية أخرى اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، واتلاف كل مصادر المياه».

والرجل هنا، وهويلبس ثوب العالم النزيه والأمين، يقوم بأكثر من تلفيق، وأكثر من تزوير لدلالات الوثيقة، فإذا كان السكان قد تمردوا فهذه حقيقة، وأن يكون المعتقلون قد فروا من الحبس فهي حقيقة أخرى، لكنها لاتشير بالمرة إلى فرار بني إسرائيل من عبودية مصر إلى فلسطين، أما مايسميه اختفاء الملك في ظروف غامضة، فهو إشارة ذات تخابث واضح على عقل القارىء، وتذهب به فوراً إلى فكرة الغرق في البحر.

أما أن يطابق بين النص البردي «انظروا إن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد» وترجمها هو «أمام أعداء البلاد»، وبين نص التوراة «وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم» فهو افتئات واضح على اللفظة المصرية التي تفيد معنى (مقابل) والتي ترجمها (سليم حسن) بمعنى (ضد)، والتي تحمل ضمنياً معنى أن لهيب الثورة كان إشارة للبدو بتجاوز حدود مصر وهي في حالتها المتردية، وهو ما توضحه البردية دون لبس في قولها ـ حسب ترجمته هو ـ «ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد».

وعن قول (إبيور) في النص الفليكوفسكي «إن ذلك لم يحدث لأي فرعون آخر قط» فهو ليس إشارة لغرق جلالته إنما لخطف الفقراء لجلالته، وربما محاكمة جلالته، وربما إعدام جلالته.

إننا نقرر مع التاريخ التقليدي، الذي لم يعجب (فليكوفسكي)، والذي لم يذكر بني إسرائيل بالمرة إلا في نص مرنبتاح المعروف، أن البدو الذين تسللوا إلى البلاد إثر الثورة، في العصر المتوسط كانوا شيئاً يختلف تماماً عن غزو الهكسوس الذي دخل بجحافله في العصر المتوسط الثاني، وأن الغزو الأول كان تسللاً غير ذي بال «لاتزعج به نفسك، إن هو إلا آسيوي» وإن أصحاب الغزو الأول أطلق عليهم اللسان المصري «العامو حريشع» أي البدو فوق الرمال، أما الغزو الثاني فكان باللسان المصري «حقاو - خاسوت» التي نطقت عند (امنيتون) «هكسوس»، ولم يخلط التاريخ في وثائقه بينهما ولا مرة واحدة.

٢ ـ تزييف دلالات حجر العريش:

من سيهتم ـ حقـاً ـ بالبحث وراء رجـل بهذا القـدر من الاجتراء؟ أو من سيشك أصلاً في قرائن تركب بعضها بعضاً فوق ذهن قارىء أسلم قياده لمفكر يبدو بهذا القـدر من النـزاهـة؟ وعليه من سيهتم مع الصدمة النفسية والوجدانية بالبحث والاهتـمام؟ أو من سيجـد نفعـاً يرجى بمراجعة نصوص قديمة بعد الصدمة العقلية لكـل ماتعـارف عليـه التـاريـخ والمؤرخون؟ أو من سيجد في ذاته بواعث تدفعه للسعي وراء نص لاتجـد له ذكـراً في أغلب المصنفات التي تناولت مصر القديمة؟ وربما كان على الباحث المُصرّ على التأكد أن يذهب بنفسه إلى متحف الإسماعيلية ليستفسر عن (حجـر العريش) ومصيره، وعن ترجمته الصادقة، وربما عاد بعد ذلك يائساً من كل شيء، بعد كَمّ اللامبالاة والاستهانة والاستخفاف التي سيلقاها من مؤسساتنا العتيدة.

فما هو حجر العريش؟

لقد حكى لنا (فليكوفسكي) قصة العثور عليه بكثير من الصدق، ثم حكى لنا القصة المدونة عليه بما هو أكثر من الإفك، فحَمّل النص فوق مايحتمل، وأنطقه بدلالات لم يقصـد إليهـا ولاخطـرت ببـال الرجل الذي قضى ينقره بالإزميل زمناً، فالنص عنـد (فليكـوفسكي) يحكي بلسان مبين عن بلوى عظيمة تعرضت لها مصر القديمة، من عواصف، وجيشان للأرض، ودمار، مما حدا بالفرعون المدعو(توم) ـ والـذي أكـد كونه كان ملكاً أن اسمه سجل في خرطوش ملكي ـ إلى جمع جيوشه، ووعـد جنـوده في ظل الظلام الذي حل بالبلاد، أنهم سيرون النور من جديد بقوله «سنـرى أبـانـا رع حر أختي في منطقـة باخيت المضيئـة»، و(رع) هو إلـه الشمس المصـري كما هو معلوم، هذا بينما الملك قد أضمر غرضاً آخر، فقد «ذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبي وزمرته»، لكن النتيجة وكانت وخيمة على الفرعون وجنده، لأنـه «حـين قاتـل جلالـة الملك رع حرماكيس (نظراً للتضارب بين حر أختي، وبين

حرماكيس، يضع فليكوفسكي هنا علامة استفهام وعلامة تعجب)، حين قاتل إله الشر بالقرب من البحر مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، ولكن جلالته هو الذي اندفع إلى دوامات البحر».

وإذا كانت المنطقة المضيئة اسمها (باخيت) فإن (فليكوفسكي) بعد صفحتين، وبعد مرور كثير من الأسماء الغريبة الكفيلة بنسيان الاسم الأصلي، يعود لذات النص ولكن الكلمة تصبح هذه المرة (بي خاروتي)، وذلك كي تلتقي مع كلمة (بي هـ حير وث) العبرية، التي تشير للموقع الذي توقف فيه الإسرائيليون قبل عبور البحر مباشرة والمترجمة في التوراة العربية إلى (فم الحير وث)، ولأن (باخيت) بعيدة فيلولوجيا عن (بي هـ حير وث) فإنه يضع بينهما متوسطاً مزوراً لم يرد بحجر العريش هو (بي ـ خاروتي).

ونستمر مع (فليكوفسكي): «خرج ابن الفرعون صاحب السموجب ليبحث عن أبيه، وقد أخبره شهود العيان بكل ماحدث لرع في بات نيبيس.. والصراع الذي خاضه الملك توم»، ولاشك أن المدقق سيتوه هنا وهو يحاول معرفة اسم ذاك الذي خاض الصراع وغرق في دوامات البحر، هل هو ملك باسم (رع) أم باسم (توم)، لكنه يعلمنا بعد ذلك أن أبناء (أبوبي) قد غزوا البلاد ليحطموها، وسلبوا الابن (جب) عرشه، بينما اعتزل هو في مسكن ناء، ربما كان في منفى اختيارياً أو إجبارياً.

وبينما يهمل (فليكوفسكي) الاسم (رع) تماماً كما لو كان غير موجود، وركز على (توم)، لأنه الاسم الذي سيلتقي مع الاسم الوارد في التوراة، للمدينة التي استعبد الإسرائيليون في بنائها لفرعون الخروج، واسمها (فيشوم)، ويمكن نطقها (فيتوم) و(بي توم)، وفي هذه الحال يصبح معناها (منزل توم)، ولا ينسى أن يربط ببراعة، بين إشارة (مانيتون) ـ الذي سبق أن هاجمه وسفه آراءه وتاريخه لكنه احتاجه الآن ـ إلى فرعون الخروج باسم (توتيماوس)، ويرى أن الاسم يحوي في تركيبه شقاً هو (توم).

لكن أي مهتم بالتاريخ الديني لمصر القديمة، سيعرف كم كان (فليكوفسكي) ملفقاً؟ وكم كان بارعاً؟ لأن القصة المنقوشة على حجر العريش،

ليست سوى ترديد لأسطورة دينية قديمة، اعتقد فيها المصري منذ فجر التاريخ، وأن الأسطورة قد صيغت في أسلوب التعاويذ السحرية، التي يتم ترديدها في زمن محدد، لدرء خطر عظيم سيلحق بإله الشمس المصري، وبالتالي بمصر جميعاً، وكان إله الشمس ذاك يحمل الاسم المركب (رع آتوم) أو (آتوم رع). ومنذ استقرار الإنسان في الوادي، أدرك أهمية الشمس في تجفيف التربة والمستنقعات، وفي نضوج النباتات، لذلك حظيت بأهمية بلغت بالشمس سمت السيادة بين الآلهة، وبحيث أصبحت الرب الرسمي للدولة، وقد ارتبطت الشمس بعناصر أخرى لازمة لحياة الإنسان والنبات، وهي حسب أهميتها: الهواء، والرطوبة أو الندى، والتربة أو الأرض، والسماء التي هي مقر (رع آتوم)، وفي واحدة من الصياغات الدينية لمدينة (أون) المقدسة، نجد إله الشمس يخلق من ذاته بالاستمناء ـ إيغالاً في توحيده وحتى لاتكون له شريكة ـ إلهاً ذكراً هو (شو) إله الهواء، وإلهة أنثى هي (تفنوت) إلهة الندى أو الرطوبة، ويتزوج (شو) و(تفنوت) لينجبا إله الأرض (جب) الذي يحتسب وفق تلك الصياغة حفيداً لرع آتوم، وابناً لـ(شو) و(تفنوت)، بينما في صياغة أخرى يأتي (جب) كأب لإله الشمس (رع).

ولأن أهم وسيلة نقل للمصريين هي الإبحار في النيل، فقد تصوروا أن هناك نيلاً آخر في السماء، هو الذي يؤدي إلى سقوط الأمطار أحياناً[٧]، وأن دورة الشمس اليومية تتم بإبحار (رع) في النيل السماوي، في مركب أسموه (مركب الشمس)، تجوب به السماء من الشرق إلى الغرب نهاراً، لتنتقل إلى زورق آخر مع الغروب لتعبر به سماء سفلى أثناء الليل من الغرب إلى الشرق، وهكذا دواليك، أما تلك اللحظة التي يتم فيها الانتقال فكانت أخطر اللحظات إطلاقاً، حيث كانت غالباً ماتدور حرب هائلة ودموية يظهر أثرها في لون الغسق الناري وفي لون الشفق، فالرحلة الإلهية لم تكن تتم دوماً في بهاء وسلام، لأن هناك إلهاً للشر هو الأفعى الضخمة الإفعوانية (أبوفيس) وجنوده، يكمن في لحظة الظلام ليداهم زورق الشمس ويبتلع إله النور، لذلك كان يحرس الإله في مركبه بحارة وجنود وحاشية

---

(٧) جون ولسن: ماقبل الفلسفة.. سبق ذكره، ص ٦٣.

عظيمة، تخوض معارك شرسة ضد إله الظلام والشر (أبو فيس)[٨]، حتى لاتسمح له بابتلاع الشمس الذي يعني خراب الزرع والضرع، وتحول البلاد إلى بادية جرداء، لذلك ألحق المصريون باسم (أبو فيس) العلامة الهير وغليفية الدالة على الصحراء والجدب، وهي ذات العلامة المستخدمة لكل مايمت للصحراء والشر والجفاف بصلة.

ومن هنا لابد من وجود جيوش الخير بصحبة (آتوم رع) لقهر التنين (أبو فيس) وجنوده، وهو اعتقاد مرده إلى اعتقاد آخر شاع في أقطار الشرق القديم ـ ولم يزل ـ وهو أن كسوف الشمس أو خسوف القمر، ناجم عن ابتلاع ثعبان ضخم أو شيطان أو مجموعة من الجن للجرم السماوي، ومازال الأهلون في قرانا يخرجون بالطبول والعصي والسيوف في جماعات منظمة تمثل جنود الخير تهلل وتكبر لمساعدة الجرم عند ظهور حالة الخسوف، لتخويف الثعبان ليطلق الجرم السماوي، ومن هذا اعتقد المصري القديم في تعرض (آتوم رع) أحياناً، بل وفي أي وقت، للالتهام أثناء إبحاره في دوامات النيل السماوي، لذلك وضعوا تلك الترتيلة السحرية المعوذة لمساعدة إله الشمس على الهروب من (أبو فيس) والإبحار السريع في مياه السماوات العظيمة حيث لا يتمكن (أبو فيس) من اللحاق به أمام جحافل جيش الخير التي تعطله دوماً عن غايته الشريرة، وقد صيغت ترتيلة (فشل التنين) عدة صياغات متواترة في نقوش متعددة في مواضع مختلفة بالوادي، وليس على حجر العريش وحده، وتستخدم التعويذة خاصة عند الغروب حيث تختفي الشمس في الظلام وتكون أكثر تعرضاً للابتلاع، وربما لا تعود للظهور في اليوم التالي، وإن الشمس ماكانت تتأخر في الظهور شتاء (هو فصل الجدب) إلا لأنها كانت تخوض حرباً مريرة مع جيشها كل ليلة ضد الشيطان (أبو فيس)، الذي لايستقوي إلا في فصول الجدب الباردة.

ومطلع النص معنون بـ«فاتحة قهر أبو فيس عدو رع وعدو الملك أون نفر (اصطلاح ملكي يشير لأي فرعون بمعنى له الحياة)، له الحياة والفلاح

---

(٨) المصدر السابق: ص ٦٣.

والصحة . . . كتاب معرفة الخلق لرع وقهر (أبوفيس)، الكلام الذي يتلى»، ثم يبدأ المقطع الأول بترديد عظمة آتوم رع باعتبار الخالق «قال إله الجميع بعد أن جاء إلى الوجود. . (هنا حديث طويل عن خلقه للآلهة من أبنائه وأحفاده ومنهم جب رب الأرض). . أمرتهم بإبادة أعدائي بواسطة السحر الفعال لحديثهم، وأخرجت هؤلاء الذين جاءوا إلى الوجود من جسمي أن تصب عليه لعنة. . ينتصر رع عليك. . هكذا تكون في مركبك، ستعبر السماءين في سلام. . . الخ»[٩].

وهكذا يهمل (فيكوفسكي) اسم «رع» تماماً من النص، ويفصل عنه (آتوم)، ويحذف الهمزة ليصبح (توم) حتى يلتقي باسم الموضع التوراتي للخروج (بي توم)، ثم تصبح المعركة ضد ظلام الكسوف، معركة الفرعون (توم) للملك الهكسوسي (أبوب) عند موضع عبور بني إسرائيل الميامين (بي حير وث)، ويتحول إسراع (آتوم رع) بالهرب من أبوفيس (حيث كانت مهمته الهرب دوماً والحفاظ على ذاته بينما يحارب جنوده عنه ليهرب) إلى خضم الماء السماوي، يتحول إلى فرعون يندفع من جيشه إلى دوامات البحر (وعليه نفهم أنه غرق رغم أن القصة ليس فيها أي غرق)، وبكل براعة يطابق بين اسم التنين (أبوفيس) اسم الملك الهكسوسي (أبوب) مع استثمار عدم معرفة القارىء غير المتخصص لمعنى (خرطوش)، فيشير إلى أن وجود اسم (توم) محفوراً على خرطوش يشير إلى كونه كان ملكاً لأنها الصيغة المصرية المتبعة لكتابة أسماء الملوك، بينما المعلوم لدى أي مهتم بالمصريات أن الخرطوش كان لتدوين أسماء الآلهة، في المقام الأول، ثم لتدوين أسماء الملوك المؤلهين، أو الحاكمين بحق النسل الإلهي في المقام الثاني، لذلك كان طبيعياً أن ينقش أسم (رع آتوم) داخل خرطوش، أما اسم حالة مابين النور والظلام المضيئة بين ذهاب النهار الذي أظلم، وبين قدوم ظلمة الليل، فيتحول من التسمية (باخيت) إلى (بي حير وث).

ثم إن (فليكوفسكي) يضع علامة استفهام وعلامة تعجب من تلقيب (رع)

---

(٩) بريتشارد (جيمس): نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم، ترجمة وتعليق: د. عبد الحميد زايد، نشر هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤١، ٤٣.

مرة بلقب (حر أختي) ومرة بلقب (حرماكيس)، وهو مايشير إلى أنه يوحي بقارئه، أنه قد لمس خطأ في النص ربما يرجع لجهل من كاتبه، لكن معنا ربما انصرف الذهن الآن إلى جهل في (فليكوفسكي) ذاته، لكن الرجل حتى الآن أثبت براعة تجعلنا نناى به عن صفة الجهل، لكنها لاتنأي به عن العمد إلى التزوير، لأن (حر أختي) هو اسم الشمس أو لقبها في حالة الشروق، أما (حرماكيس) فهو عندما تكون في حالة الغروب ويمثلها أبو الهول، واللقب الحوري لإله الشمس (رع آتوم) يشبه الشمس بالحر أو (حور) الصقر، إنها تطير كالصقر، إضافة لما يحمله لفظ (حر) من معنى الحرارة.

و(فليكوفسكي) وهو يقوم بهذه التلفيقة الكبرى، يعمد إلى ترجمة (نتر) ومرادفاتها بالقصة إلى ملك، وهي إن صلحت للدلالتين إله وملك، فإنها تستعمل عادة للإشارة للآلهة، أما (جب) إله الأرض، وحفيد (رع آتوم) فيصبح عند (فليكوفسكي) الأمير الملكي الذي فقد عرشه بعد غرق أبيه بمعجزة البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأن حجر العريش فيما يبدو كان تسجيلاً لحالة هامة من حالات الكسوف، فقد قام جب بالدور المطلوب منه حسب نص التعويذة والذي من أجله وجد أصلاً هو وأشقاؤه من آلهة، فخلقهم كان بغرض حماية (رع آتوم) من (أبو فيس).

لكن من المهم هنا أن نسجل للعالم البارع (فليكوفسكي) سقطة لاتليق به، فالسرد هنا جميعه يتناول حرباً خاضها الفرعون - حسبما يقول - ضد الملك الهكسوسي (أبو فيس)، إذن لم تكن مطاردة ضد الإسرائيليين - حتى لو أخذنا بتزويره -، وحتى يلتقي النص مع الزمن الذي حدده لدخول الهكسوس، وهو ذات الوقت الذي خرج فيه بنو إسرائيل، فلا بد أن يكون الملك الهكسوسي ليس (أبو فيس)، إنما يجب أن يكون (سالاتيس) أول ملوك الهكسوس على مصر، لأن (أبو فيس) الأول وليس الثاني أو (أيوب الأول) هو الملك الرابع من ملوك الهكسوس الفعليين على مصر، وليس ملك الغزو، ولو ذهبنا إلى كونه ربما كان (أبو فيس) أو (أيوب الثاني)، فإن ذلك يعني أن تلك الحرب قد حدثت في آخر عصر الهكسوس، وهو ما يبعد أربعة قرون عن عصر خروج بني إسرائيل حسب تأريخه هو وتزمينه

للأحداث .

الحقيقـة أن الـرجـل رغم براعتـه، ورغم أنـه أمتعنا فعلاً بأكبر عملية تزوير وتلفيق، فإنه كبا حتى الآن أكثر من كبوة، أما هذه فكانت سقطة شديدة .

٣ ـ تزييف دلالات بردية الارميتاج :

أكتشف بردية الأرميتاج المصرولوجي (جولتشيف)، وقام بترجمتها ودرسها وتحقيقها وتحليلها كل من (بيت وبرستد وإرمان وجن وجاردينر)، وهي محفوظة الآن بمتحف (لينجراد)، وتحوي نبوءات الكاهن المرتل (نفررحو)، وتدعي البردية أنها ألقيت في حضرة الفرعون (سنفرو) أحد أوائل ملوك الأسرة الرابعة من الدولة القديمة، وفي رأينا أنه قد دخلها على حالتها التي وصلتنا أكثر من خدعة، الأولى في كونها تحكي عن أحداث تخص عصراً، وكتبت في عصر آخر ونسبت إليه، وقد ذهبنا في كتاب (أوزيريس . .) أنها كتبت في عصر الثورة في العصر المتوسط الأول، وأعطيت قيمة تقليدية ـ حيث القديم يكتسي القداسة والتبجيل ـ بنسبتها إلى عصر موغل في القدم، عصر (سنفرو) قبل عصر الثورة بعدة قرون.

أما الخدعة الثانية فهي في نسبتها لعصر موغل في القدم قبل الأحداث التي تروجها بالفعل، مما يكسبها قدرة أعظم بالتنبؤ.

والخدعة الثالثة التي ربما جازت على كثير من الباحثين، فهي أنها استثمرت مرة ثالثة في عصر يخالف العصرين السابقين: عصر (سنفرو) وعصر الثورة، بأن أضيف إلى متنها الأصلي نصاً إضافياً ألحق بآخرها، وهو النص الذي ـ بعد سرد أحداث الصراع الاجتماعي، وتسلل الآسيويين إلى البلاد ـ يضيف نبوءة بملك منقذ يأتي ويخلص البلاد من كبوتها، أشارت إليه باسمه المختصر (آميني)، وذهب المؤرخون إلى أنه هو (أمنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى، مما حدا بهم إلى تزمينها بإثبات تاريخها في عصر ذلك الفرعون، وأنها كتبت في عهده ثم نسبت إلى أيام (سنفرو)، كي تتحول إلى لون من ألوان الدعاية لأمنمحات كملك عادل منقذ، وهو مانوافق عليه تماماً، لكننا سقنا في المقابل عدداً من القرائن التي تشير إلى أن الجزء الأخير الذي يتنبأ بالملك المنقذ (آميني) هو فقط

الذي تصح نسبته لعصر (أمنمحات)، وأنه أضيف بالفعل أيامه أو قبل صعوده سدة العرض بزمن يسير، وكان معلوماً باليقين للكاتب الذي أضاف تلك النبوءة أن (أمنمحات) لابد سيصبح ملكاً للبلاد، أما بقية متن الوثيقة فكان بالفعل يسبق عصر (أمنمحات) بزمان، وأن ذلك الأصل قد تم تدوينه زمن الثوررة، وبالتحديد أيام فوضى العصر المتوسط الأول، وهكذا أصبحت الوثيقة تبدو بكاملها كرؤية تنبؤية بقدوم (أمنمحات).

أما السر في عدم اليقين من التأريخ الصادق لزمن الأحداث الواردة بها، أنها لم تدون بالفعل على النسخة التي وصلتنا إلا في عهد الدولة الحديثة، من قبل كاتب عاش في القرن ١٥٠٠ ق.م، حيث ظهرت له أهمية النص الأصلي الذي بدا موشكاً على التلف، فقرر نسخه والاحتفاظ به، ولما لم يجد بردية خالية عنده قام بنسخها على ظهر بردية كان يستخدمها لإجراء حساباته الخاصة، وبذلك وصلتنا نبوءة (نفررحو) بالصدفة البحتة، بما تحويه من غموض من أغلاط كثيرة حدثت نتيجة النسخ عن نص قديم يختلف في أسلوبه عن عصر أسلوب عصر الناسخ.

وترجع أهمية الوثيقة لكونها ـ في رأينا ـ دونت لأول مرة في عصر الثورة بالعصر المتوسط الأول، لكنها بعكس (إيبور) الذي ركز اهتمامه على أحداث الثورة، فإنها ركزت اهتمامها على تسلل الآسيويين للبلاد، فألقت الضوء على ماأهمله (إيبور) وساقه في شذرات لاتعطي تفصيلاً عن ذلك التسلل بشكل واف، وهنا يجدر بنا أن تضيف أنه ليست فقط مؤخرة البردية هي التي أضيفت إليها في عهد (أمنمحات)، بل إن بالمدخل شواهد واضحة على كونها بدورها تمت إضافتها في عهد (أمنمحات).

والوثيقة تبدأ بالملك (سنفرو) جالساً وسط حاشيته: «وقال لهم جلالته: ياإخوتي لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لي.. عن أي شخص يتحدث بكلام جميل وألفاظ منتقاة، عندما أسمعها أجد فيها تسلية، عندئذ سجدوا... وقالوا... يوجد مرتل عظيم للإلهة باست ياأيها الملك، اسمه نفررحو، وهو رجل شعبي قوي الساعد وكاتب حاذق الأنامل... فقال جلالته: اذهبوا وأئتوني به.. فقال المرتل

نفررحو: هل تريد كلماتي عما حدث أو ماسيحدث يامولاي الملك؟ فقال جلالته: لا، مما سيحدث، لأن الحاضر قد أتى إلى الوجود يمر بنا، ثم مد يده إلى صندوق مواد الكتابة، وأخذ قلماً وقرطاساً ومداداً وكتب: كتابة ماتحدث به الرائي نفررحو. ابن مقاطعة عين شمس، حينما كان يفكر فيما سيحدث في الأرض، ويفكر في حالة الشرق حينما أتى الآسيويون بقوتهم»، (ولنلحظ أن نفررحو من عين شمس بالدلتا، مما يجعله أقرب إلى معايشة أحداث التسلل البدوي)، ويقول نص كلام (نفررحو):

فؤادي، لطالما تألمت من أجل تلك الأرض التي نشأت فيها
وقد أصبح الصمت نقيصة
وثمة أمور يتحدث القوم عنها...
وقد ولى زمان الرجل الكفء..
فمن أين تبدأ؟..
لا تراع فؤادي
فالأمر واضح أمامك وعليك أن تقاومه
لقد أصبح حكام البلاد يأتون أموراً ماكان ينبغي حدوثها
وخربت الأرض وليس من يأسى عليها
.. يتحدث الجميع عن الحب... لكن الخير اختفى
تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا
جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت
قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع
واقتحم القبليون أرض مصر
ومامن مدافع ليسمع أو يجيب
تباعد (رع) عن الناس
وأصبح الكليل صاحب سلاح
وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم..
لكن سيأتي ملك من الجنوب اسمه آميني

ابن سيدة من تاستي
طفل خن نخن
سوف يتسلم التاج الأبيض
ويلبس التاج الأحمر
والناس في زمنه سيكونون سعداء
إن ابن أحدهم (أو ابن الإنسان)
سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين[١٠]
أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة
فقد أخرسوا أفواههم خوفاً منه
والآسيويون سيقتلون بسيفه
واللوبيون سيحرقون بلهيبه
والثوار سيستسلمون لنصائحه
والعصاة لبطشه
سيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه
وسيقيم أسرار الحاكم
حتى لايتمكن الآسيويون من غزو مصر
وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة
حتى ترده أنعامهم
وستعود العدالة إلى مكانها
وينفى الظلم من الأرض
فليبتهج من سيراها
ومن سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتي[١١]

---

(١٠) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص ٣٦٥.

(١١) استندنا هنا إلى ترجمة د. سليم حسن (سبق ذكره ج١، من ص ٣٣٣ : ٣٣٩) والتعديلات التي أدخلناها على الترجمة هنا مستندة إلى :

هذا، وكنا قد ذهبنا في كتابنا (أوزيريس . .) إلى أن تولي (أمنمحات الأول) عرش مصر، يوحي أن تلك الولاية كانت قمة أغراض العمل الثوري، استنادا إلى شواهد أهمها:

- إن (أمنمحات) لم يكن من سلالة ملكية، ولا حتى من أبناء النبلاء، بل كان رجلاً من سواد الشعب، وإن كان طيب المنبت، أثبت صلاحيات عسكرية وحربية أوصلته إلى وزارة الحرب، ويعلمنا (سليم حسن) مستفيداً من (جاردنر) أن تعبير (ابن أحدهم) أو (ابن الإنسان) تعبير متواتر يشير إلى شخص من نسل غير ملكي أو نبيل، وإن كان ابن أسرة طيبة[12].

ويقول (جيمس برستد) صراحة، «إن أمنمحات قد اغتصب الملك قهراً»[13]، ويذهب معه آخرون إلى أنه كان وزيراً قوياً في عهد (منتوحتب الرابع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، واستطاع - أثناء وزارته - أن يركز بيديه سلطات كبيرة، وأن يشرف إشرافاً فعلياً على شؤون الدولة. وانتهز وفاة مليكه فوثب على العرش[14]، هذا ناهيك عن الاتفاق شبه الكامل على أنه هو ذاته (آمنحتب سحتب أب رع) رئيس الجند في عهد (منتوحتب الرابع)، وأنه استغل رياسة الجند للإطاحة بمليكه والقضاء على شأفة أسرته، وقد أكد (برستد) وهو مصرولوجي ثقة أنه هو ذاته (آمنمحات سحتب أب رع) صاحب آخر حملة مشهورة تمَّ تجريدها لتطهير البلاد تماماً من بقايا الآسيويين، وذلك قبل قيام الأسرة الثانية عشرة بزعامته بزمن يسير[15].

- Gardiner, the jormal of Egyption Archaeology, voll, pp. 100 ff. :

- Gunn, vol x II, 1926, pp. 250 ff.

(١٢) سليم حسن: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣٨.

(١٣) جيمس هنري برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة د. حسن كمال. وزارة المعارف المصرية، ط ١، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٩.

(١٤) محمد العزب موسى: أول ثورة على الإقطاع، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٩٩.

(١٥) برستد كتاب تاريخ. . . سبق ذكره، ص ٩.

ـ والشـاهـد الثـاني هو أن (أمن محات) ينتمي باسمه الـذي يعني (آمن في الطليعـة) إلى إلـه كان مغمـوراً حتى ذلـك الحـين هو (آمن)، مما يشـير إلى اتباعه عقيـدة تخالف عقيـدة سادتـه، المنـاتحـة التـابعين للإله (منتو) إله أرمنت، وهو أمر غريب مع وزيـر في حكـومـة فرعـونيـة، ومنـذ تولى (آمنمحات) الحكم يرتفع شأن (آمن) حتى يصبح أهـم الآلهة على الإطلاق حتى نهاية العصور الفرعونية، والخطير في رأينـا هو أن (آمـون) كان في العقيـدة الشعبيـة هو «. . روح أوزيـريس»[١٦] ذلك الإله الذي احتسبناه أدلوجة الثورة.

ـ والشـاهـد الثـالث هو أن (أمنمحـات) اعتـبر في نظر رجال الفكر المصري القـديم ـ كما عنـد (نفررحو) ـ المخلص المنتظر، إضافة إلى كونه الرجل الذي وجه همه إلى كسر شوكة النبلاء الذين بقوا من العصور القديمة[١٧].

وقـد أسسنـا على ذلك تكهناً مفاده أن أمنمحات كان رجل الشعب المنتظر، وربـما كانت القيـادات الشعبيـة وراء الـتر ويـج له كما في إضـافـة النبوءة به لأشعار (نفـررحـو)، مع تمهيد السبل له بكل الوسائل للوصول إلى الحكم، ولعل في نص الـبرديـة مايشـير إلى حميميـة العـلاقـة بين (أمنمحـات) والثـوار، فإن الآسيـويين سيقتلون بسيفـه «واللوبيـون سيحـرقـون بلهيبه»، و«العصاة ببطشه»، لكن «الثوار سيستسلمون لنصائحه»، وقد استطاع أمنمحات بالفعل أن يجعل من عصره أزهى عصور الدولة الوسطى، ولكن (أندريه إيمار) و(جانين إبوابه) يذهبان إلى تأكيد أنه قد مال آخـر أيـامـه إلى عقـدلـون من المصالحة مع النبلاء الأقوياء. . الذين بدءوا يستعيدون نفوذهم بعد سكون الأحوال، بحيث ارتضى السماح لهم باستعادة قسط من النفوذ القديم مقابل طاعته[١٨].

---

(١٦) أدولف إرمان ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت. ص ١٠٩.

(١٧) العزب سبق ذكره، ص ٩٩.

(١٨) إيـمار وإبـوابـه الشـرق واليـونـان القـديم، ترجمـة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، ١٩٦٤، مج ١، ص ٦٣.

وهنا عثرنا على نصوص تشير إلى مؤامرة قد دبرت في الخفاء لاغتيال الملك، وبلغت حداً بعيداً حيث دخل عليه الجناة غرفة نومه، وهجموا على شخصه الملكي بالسيوف، مما اضطره للدفاع عن نفسه بنفسه حتى هرع الحراس لمساعدته، وقد احتسبنا تلك المحاولة قد جاءت من جانب القيادات الثورية إزاء سياسته الجديدة مع النبلاء، بحيث اعتبر خائناً لقضية الثورة، مما استدعى تصفيته جسدياً، ويدل حديث (أمنمحات) عقب محاولة اغتياله على ذلك المعنى، فهو يأسف لخيانة حلفائه الذين وثق بهم، ويقول:

لقد أحسنت إلى اليتيم
وأطعمت المساكين
وتحدثت مع الوضيع كمحادثتي مع الأمير
لكن كل من أكل خبزي
قام ضدي[19].

والمعنى الواضح أنه كان حليفاً لطبقة محددة، يصفها باليتم والمسكنة والوضاعة، مؤكداً أن هؤلاء الحلفاء هم من حاولوا اغتياله، وإن كان (برستد) يؤكد أن المتآمرين كانوا من رجال حاشيته[20]، فإن ذلك يدعم مذهبنا، لأنه من الطبيعي أن تكون حاشيته متشكلة ممن مهدوا له السبيل إلى العرش، ومن هنا نفهم لماذا قام بتصفيتهم جميعاً بعد ذلك؟

كما أن في بردية (نفررحو) معاني كثيرة تؤيد ماذهبنا إليه، ونسوقها هنا كأدلة جديدة لم ندرجها بكتابنا المذكور، فالمعتاد أن يسبق اسم فرعون ويتبعه عدد غفير من ألقاب التشريف والسيادة والتفخيم إلى حد مبالغ فيه، ويثير عجباً شديداً بين الباحثين، وهو الأمر الذي تخلو منه هذه البردية تماماً، وهو أمر خارج على المألوف بالمرة، ناهيك عن كون الملك يخاطب حاشيته بالنداء (إخوتي) ويتوجه بالحديث

---

(١٩) برستد كتاب تاريخ.. ص ١٦٦.

(٢٠) نفسه: ص ١١٥.

لأحد رعيته بالقول (ياصاحبي)، وبدلا من أن يأمر بإحضار الكاتب الملكي، يقوم هو بهذا الدور ليسجل مايقول أصغر رعاياه وهي مشاهد لايمكنك أن تجدها قبل أو بعد تلك الوثيقة النادرة، في تراث مصر القديمة أما أن يطلب صاحب الجلالة مرتلاً يؤنسه فيخبره رجاله لزيادة سعادته وإدخال السرور على قلبه إن مثل ذلك الرجل موجود، وأنه ليس رجلاً عادياً، ويبشرونه بوصف الرجل المطلوب بالوصف «رجل شعبي قوي الساعد»!! فهو أمر في غنى عن التعليق.

والآن ماذا قدم لنا (فليكوفسكي) بشأن بردية الأرميتاج!

بعكس الجميع فإن كلمة (آميني) تشير عنده إلى (آمنحتب الأول) ابن الملك (أحمس) ملك التحرير، ويعد (آمنحتب الأول) ثاني ملوك الأسرة الثامنة عشرة، والاسم هنا بدوره ملصق من مقطعين (آمن + حتب)، ولأنه يريد من كلمة (آميني) أن تشير إلى محرر مصر من الهكسوس، ولأنها لاتلتقي مع المحرر (أحمس)، فلتلتق مع ولده، ولأن (آميني) من (تاستي) بالنوبة، فلابد أن يكون أسود اللون وهو لون (آمنحتب الأول)، لكنه أيضاً لون (أمنمحات) وأغلب حكام مصر من ملوك طيبة، (أميني) إذن يحتمل أن تشير (لأمنمحات) أو (لأمنتحب)، لكنها عند فليكوفسكي لابد أن تشير (لأمنحتب) حتى يتزامن التاريخ مع زمن التوراة، ولأن الفاصل بين الرجلين (أمنمحات الأول) و(آمنحتب الأول) يصل إلى ستة قرون، إلا أن أخطر مايدحض (فليكوفسكي) تماماً، هو نص البردية الذي يصف (آميني) بأنه ابن أحدهم، أي ليس سليل بيت ملكي، بينما الملك (أمنحتب الأول) هو ابن الملك (أحمس) بن الملك (سقننرع).. الخ، أما (آمنمحات) فرجل من عامة الشعب، وهكذا لاينطبق الوصف على الملك الذي اختاره (فليكوفسكي) ليتزامن مع تاريخه، وقصد به أن يطابق (آميني) مع (آمنحتب الأول) ليستطيع أن يجعل من بردية الأرميتاج برمتها شهادة على أحداث الخروج ودخولها الهكسوس.

أما الدحض الثاني لهذا السند لإعادة كتابة التاريخ حسب التزمين الفليكوفسكي، فهو ماجاء، في نص البردية «.. الآسيويون سيقتلون بسيفه.. وسيقيم أسرار الحاكم حتى لايتمكن الآسيويون من غزو مصر»، والمعلوم أن سور الحاكم الذي كان يشار إليه بالتعبير (حائط الحاكم التي أقيمت لصد الآسيويين

والقضاء على عابري الرمال)، قد بنيت في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة[٢١] أسرة (آمنمحات)، وقبل زمن (آمنحتب الأول) بستة قرون كاملة.

وبمزيد من البحث والتدقيق، نجد في وثائق الأدب المصري، وفي قصة (سنوحي) تحديداً، وهي قصة أدبية مشهورة، دليلاً قاطعاً على أن (حائط الحاكم) قد أقيم زمن (أمنمحات الأول)، أو أنه كان موجوداً في اخر أيام هذا الملك، وبعد القضاء التام على أثر (للعاموحريشع) بمصر، فيحكي (سنوحي) بعد أن بلغه نبأ محاولة اغتيال الملك (آمنمحات الأول)، ودون أسباب واضحة لم تزل شاغلة للمهتمين من الباحثين، يشعر المحارب (سنوحي) بالذعر الشديد، ونظن السبب واضحاً مع رؤيتنا التي قدمناها، وموقف سنوحي يشير إلى كونه كان أحد القيادات الشعبية المتآمرة على الملك، بل وكان شريكاً مخططاً على الأقل، لذلك نجد سنوحي يهرب فوراً إلى آسيا بعد أن غافل حراس (حائط الحاكم) أو بالنص في قوله: «وأعطيت الطريق لقدمي ـ وهو يشبه تعبيرنا: وأسلمت قدمي للريح ـ ولما اقتربت من حائط الحاكم المقامة لرد الآسيويين والقضاء على عابري الرمال، قعدت القرفصاء تحت أجمة خشبية، خشية أن يراني حراس الأسوار أثناء تأديتهم لخدمتهم اليومية»[٢٢].

فالحائط قد أقيم إذن في عهد (آمنمحات)، وقبل (آمنحتب) بستة قرون، وبه تسقط حجة (فليكوفسكي) المؤسسة على بردية (نفررحو) لإعادة صياغة تاريخ العالم، مع زيادة يقين القارىء الآن، أن غزو الهكسوس كان أمراً يختلف تماماً، ومتأخراً تماماً، بالنسبة للتسلل الآسيوي الأول في العصر المتوسط الأول، وأن غزو الهكسوس كان حدثاً، وغزو أولئك الذين انتهزوا فرصة الثورة للتسلل كان حدثاً آخر، وهم من أطلق عليهم المصريون (العاموحريشع).

---

(٢١) العزب: سبق ذكره، ص ١٧، ١٨.

(٢٢) بريتشارد: سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٦.

٤ ـ تزييف دلالات نبوءة الخزاف:

في عملية 'التأريخ المصرية القديمة لتاريخ مصر، كان ثمة خطأ بالفعل، لكنه ليس من نوع الخطأ الذي يسقط بموجبه ستة قرون كاملة من التاريخ كما يريد (فليكوفسكي)، إنه خطأ لا يسقط شيئاً إنما يؤدي إلى التباس في حسابات سني الملوك والأسر، ومدى دقة ضبطها مع توقيت محدد في عام بذاته، وللتوضيح نقول: إن الخطأ لم يكن ناتج نقص أو تشويه للمستند التاريخي، لكنه كان عيباً في التقويم المصري ذاته، إذ أنه في زمن بالغ القدم، كان المصريون قد وضعوا حساباتهم الفلكية التي بموجبها تزيد ربع يوم أو مع زيادة يوم كامل إذا قارناه بالنسبة الفلكية، وعندما نسقط تلك الزيادة ـ كما نفعل اليوم فيما نسميه بالسنة الكبيسة ـ فإننا سنجد فارقاً في حسابات السنة المصرية القديمة، شهر زائد كل ١٢٠ سنة عن السنة الفلكية، ومع تراكم هذا الشهر كل ١٢٠ سنة يبدأ التناقض بالظهور، مع أناس يعملون في مواسم للزرع ومواسم للحصاد، وهو ما عبرت عنه بردية عصر الرعامسة التي تقول: «إن الشتاء يأتي في الصيف، والشهور تنعكس، والساعات تضطرب..»، ويبدو أن المصريين لم يحاولوا تلافي الخطأ لما يحوطه من قدسية تحريمية تقليدية، حتى جاء (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م ليصدر مرسوماً بإدخال يوم إضافي للسنة، حتى يمنع أعياد مصر الوطنية من المجيء في غير مناسباتها الزراعية، وحتى لا يأتي الشتاء في الصيف[٢٣]، لكن (فليكوفسكي) لا يجد مانعاً من الإتيان بنص البردية «ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعي» ليوحي أن الشمس كانت قد خرجت عن مدارها نتيجة الخلل الكوني الذي أصاب كوكب الأرض وسبب كوارث الخروج، ثم يستمر «وتهدأ الرياح بعد أن كانت الشمس محجرية بسبب العاصفة»، بعد أن يكون قد مزج بين

---

(٢٣) جاردنر (آلن هنري): مصر الفراعنة، سبق ذكره، ص ٨٢: ٨٤.

نص البردية المنسوبة لعصر الرعامسة بالأسرة التاسعة عشرة، وبين مرسوم كانوب المكتوب بثلاث لغات منها اليونانية، والذي أمر به (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م.

وبعد ذلك يسرب فصلاً تحت عنوان (استفسارات) يقول فيه: «لاتوجد معلومات قاطعة عن أي غزو آسيوي (عامو) أو (آمو) حدث في العصر المتوسط الأول الذي يقع بين الدولة القديمة والدولة الوسطى»، حتى لايكون ثمة إمكان لغزو سوى غزو الهكسوس الذي حدث بعد الأسرة الثانية عشرة، وهي عموده العظيم الذي أسس عليه بنيان إعادة صياغة التاريخ، وبحيث ينتهي إلى عدم صحة أو جواز نسبة بردية ليدن وبردية الأرميتاج إلى ماقبل الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم تكون كل رواياتها والأحداث التي وردت بها تتفق تماماً مع لحظة دخول الهكسوس ولحظة خروج الإسرائيليين، تلك اللحظة التي صاحبتها كوارث فلكية نادرة، أشرف على تنظيمها، ورتب الإخلال بنظام الكون خلالها، الرب (يهوه) بذاته، من أجل عيون شعبه الذي فضله على العالمين!!

لكن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تتعرض دوماً وبشكل شبه دوري للغزوات الرعوية، والتسلل إلى البلاد، وخاصة مع أي لحظة ضعف أو خلل في المركزية، وهو ماتشهد به الوثائق التاريخية، نضرب منه أمثلة سريعة، ففي عهد (بيومي الأول) بالدولة القديمة (عصر بناة الأهرام) يحكي قائد الجيوش «وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، جمع جلالته جيشاً من عشرات الألوف. . وأرسلني جلالته على رأس ذلك الجيش. . عاد هذا الجيش في سلام. . بعد أن حمل معه جيوشاً كثيرة العدد كأسرى»[٢٤].

وهناك تسلل آخر قوبل بردع سريع في الأسرة الحادية عشرة، أو بالأحرى في بدايتها، في عهد (منتوحتب الأول) الذي سجل نصاً يقول أنه «استولى على الأرض كلها، وأقدم على ذبح آسيوي دجاتي[٢٥]، كما علمنا بطرد (آمنمحات)

---

(٢٤) المصدر السابق ص ١١٤، ١١٥.

(٢٥) نفسه ص ١٤٢.

لطرد بقايا العامو حريشع عندما كان قائداً على جيوش (منتوحتب الرابع)، ثم تبعه ابنـه (سنـوسـرت الثالث) الذي طاردهم إلى مواطنهم خارج الحدود المصرية، وهو ماتسجله لوحـة نسمـونت «ارتحـل الملك بنفسه للقضاء على الآسيويين ووصل إلى إقليم سكمـم» وهـو منطقـة (ششم) السـامـرية الجبلية بشمالي فلسطين[٢٦]، وهو أمر ماكـان ممكن التحقق لو كان أولئـك الآسيـويين هم الهكسوس الذين احتلوا المنطقة كلها بما فيها فلسطين ومصر، أما الملك (خيتي) فيسجل قبل ذلك بزمان، في العصر المتـوسـط الأول «عـامـو التعساء» إن سوء الطالع يحل حيث يحلون، . . إنهم يقومون بالمعـارك منـذ عهـد حورس (يعني منـذ فجر التاريخ)، ومع ذلك فإنهم لاينتصرون مطلقـاً، وهم كذلـك لايغلبـون»[٢٧]، ثم يوجه النصح لولده (مري كارع)، قائلاً: «الآسيـوي التعس لاتـزعـج نفسك به، إن هو إلا آسيوي»[٢٨]، وهي بالطبع صورة لاتلتقي أبداً مع الهكسوس المحتلين أصحاب الإمبراطورية

---

(٢٦) نفسه ص ١٥٣.

(٢٧) نفسه ص ٥٤.

(٢٨) ولسن: سبق ذكره، ص ١٥٢.

٥ ـ تزييف دلالات مقياس سمنة :

فيما وراء الجندل الثاني في أقصى الجنوب، وفي وقت ما من التاريخ المصري القديم، أرسى المصريون حدودهم الجنوبية عند قلعتين منيعتين تواجه كل منهما الأخرى على القمم الصخرية على ضفتي النيل، واحدة اسمها (قمة) والأخرى اسمها (سمنة)، ومن هناك نحو الجنوب، ومع بدء الصخور، تبدأ أرض (كوش)، وعلى الصخور المقام عليها قلعة سمنة حفروا مقياساً لمياه النيل، ليتمكنوا من التنبؤ بالفيضان المرتفع أو المنخفض، قياساً على الأثر الذي يتركه ماء الأعوام الماضية من أثر، دون حاجة لفرعون حلوم، كما قصت علينا التوراة، وبناء على ملاحظة (ليبسوس) لأثار الماء التي تركها على المقياس، بما يسجل ارتفاعاً يزيد عن اثنين وعشرين قدماً على القياسات المعاصرة، يقدم (فليكوفسكي) وثيقته السادسة الدالة على الكارثة، حيث يزعم أن ذلك يعني هبوطاً في التكوين الصخري وطبقات الأرض في مصر آنذاك بمقدار اثنين وعشرين قدماً، لأنه لو كانت الأرض هي الثابتة، وأن التغير حدث في كمية الماء المتدفق بالنيل، فذلك لاشك يعني أن عدداً من المعابد والمساكن كان من المفروض أن تغطى بالمياه بانتظام كل عام زمن الفيضان.

ولا مشاحة أن الرجل هنا يمتلك قدرة التقاط عظيمة، وصبر على التفتيش وراء كل مايدعم مذهبه، لكنه ربما لم يلتفت إلى النتائج التي يترتب على هبوط الصخور المقياس، والتي لابد أن تؤدي إلى هبوط المقياس بدوره بذات القدر، حيث إنه أنشيء على الجرف الصخري عند (سمنة)، وحجته هنا كما هو واضح واهية تماماً، لكنه على أية حال يسوقها ضمن مجموعة قرائن متضافرة، بحيث لايظهر هذا الضعف إلا عند انهيار القرائن الأخرى، أما مانعرفه نحن أبناء هذا الوادي يقيناً بالمعايشة والمعاينة، وفي طفولتنا قبل بناء السد العالي، أن الفيضان كان يأتي في بعض مواسمه مرتفعاً إلى حد نتحول فيه جميعاً إلى طوارىء من لون خاص بمصر، طوارىء الريف المصري الذي يتحرك أبناؤه فوراً، وكل يعرف دوره تماماً

دون تنظيم رسمي ، للردم حول القرى لحماية البيوت المتطرفة ، التي ستتعرض بحكم الدراية - خلال أسابيع للغرق الكامل ، وكان الماء يرتفع إلى حدود هائلة ، ولم يكن ذلك ليبهرنا نحن أبناء النيل كما أبهر الروسي (فليكوفسكي) ، حيث كنا معتادين - في غير فصل الفيضان - على التطلع من فوق أسطح منازلنا ، على الأطراف العليا البعيدة لأشرعة المراكب النيلية تحتنا ، وكنا معتادين أيضاً - في فصل الفيضان - على الصعود الى أسطح تلك المراكب واللعب فوقها عندما ترسو عند أبواب بيوتنا ، اما المساعدة في حمل (قفف) الأتربة والأحجار للبالغين وهم يقيمون الردم حول البيوت المتطرفة ، فكانت مجالاً لسعادة طفولتنا وهذرها ومرحها ، كانت لوناً من اللهو الدوري الجميل الذي - لاشك - لايعرف (فليكوفسكي) طعمه ، ولاعلاقته بحميمية أبناء هذا الوادي وبعضهم ، وبينهم وبين نيلهم الذي كان يتجرأ عليهم إلى حد التدمير ، لكنهم كانوا دوماً أسعد الناس به ، وأشد من في الكون فرحاً بجبروت فيضانه ، أما أجدادنا فكانوا يحكون لنا في طفولتنا عن ارتفاع أشد قسوة للماء لم نحظ نحن بمعايشته ، وكان يحدث قبل إقامة سد أسوان الذي يبعد عن السد العالي إلى الشمال بمقدار سبعة كيلومترات ، وكان الأجداد يشيرون إلى مواقع بيوتنا ويقولون : ماكان ممكناً أن تقام هذه البيوت هنا قبل إقامة سد أسوان ، حيث كان الماء يغطي هذه الأرض وقت الفيضان ، أما أهل بعض المناطق وخاصة في وسط الدلتا فقد أقاموا قراهم بكاملها فوق ردم مرتفع ، جعل لتلك القرى الآن لوناً غريباً لكنه بديع ، وعلى الردم أقام الأهلون السلالم التي كانت تسمح للفلاحات بحمل أواني الطهو والملابس لغسلها أمام أبواب البيوت مباشرة في مياه النيل وقت فيضانه ، بدلاً من جهد حملها الطويل أيام التحاريق الصيفية إلى مجرى النهر البعيد .

٦ ـ تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجري :

يسوق (فليكوفسكي) نص هذا النقش كالآتي «إن مقر ربة كيس قد تحول إلى أنقاض، وابتلعت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزلت عنه ماتراكم وأعدت بناءه، واستعدت ماكان أنقاضاً، وأكملت ماكان قد ترك بلا بناء، فقد كان هناك آمر في وسط الدلتا، وفي حواريس، وكانوا هم من دمرت قبائلهم كل المباني القديمة، وقد حكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع».

وعندما يورد (فليكوفسكي) ذلك النص مباشرة، بعد حديثه عن مقياس سمنة الذي يقع أقصى الجنوب ودون أن يحدد أين يقع المعبد المهدم، معتمداً على أنه مكان يسمى (كيس) حيث إن المعبد كان معبد (ربة كيس)، إنما يقوم بتزييف آخر يذهب بالقارىء إلى مكان اسمه (كيس) قرب (سمنة)، وهنا لاشك سيراود القارىء وهو يبني تصوراته أن الهكسوس قد حكموا مصر بكاملها حتى وصلوا حدودها الجنوبية قرب (سمنة)، حتى يلائم ذلك أربعة قرون حكموا فيها مصر، ولن يكون مستساغاً أن يحكموا أربعة قرون دون احتلال لكل شبر فيها، لكن الحقيقة أن الهكسوس لم يصلوا إلى أبعد من (أشمون) الحالية في أبعد التقديرات، بل ربما لم يصلوها إطلاقاً، إنما رضوا من حكامها بالجزية التي ستسمح لهم بالمرور شمالاً إزاء إغلاقهم للحدود الشمالية والشرقية بسيناء كما أن التعبير (ربة كيس) فيه تلاعب واضح، لأنه (مقر الربة كيس) وليس (مقر ربة كيس)، والنص عبارة عن نقش أمرت بكتابته الملكة حتشبسوت على واجهة معبد إقليمي، يوعز لنا (فليكوفسكي) أنه كان في سيناء ليتيسر له الزعم بهبوطه تحت الأرض أثناء الكارثة، رغم المعلوم أن المعبد المذكور في منطقة اسطبل عنتر الحالية بمصر القديمة، وهو الذي أطلق عليه اليونان اسم «سيبيوس أرتميدس) ويبدو أن معبد الإلهة (كيس) أهمل زمناً أتاح للرمال أن تتراكم عليه «أزلت ماتراكم عليه»، وهي ظاهرة نعرفها في بلادنا، أما التعبير الوحيد الذي استند إليه صاحبنا في انخفاض الأرض المتزلزلة بفعل رب التوراة وقت الكارثة، وهو تعبير مجازي واضح يشير إلى تراكم الرمال

على المعبـــد، يقـول «ابتلعت الأرض حرمهـا المقـدس»، وليس هنـاك أيـة إشـارة لانخفاض الأرض وإلا أشارت (حتشبسوت) للأمر بوضوح، أما كوننا نذهب إلى عدم تجاوز الهكســوس لسينـاء وشـرقي الـدلتـا فهو واضح في قول حتشبسوت «كان الآسيـويـون في حواريس في شمال البلاد، وكانت من بينهم حشود تقوم بهدم ماسبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع»[٢٩]، ولعل القول بحشود تهدم ماسبق بناؤه لاتحتاج إلى تعليق.

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثاني من نظرية (فليكوفسكي) تجدنا بحاجة إلى الإجـابـة عن تسـاؤلات مشـروعة إزاء ماقدمه حتى الآن، فإذا كان بنو إسرائيل في مصر منذ زمن طويل سبق نهاية الأسرة الثانية عشرة حين خرجوا ودخل الهكسوس، فهل لم يوجد في مصر شخص واحد أمكنه أن يسجل لنا ولو إشارة عن بني إسرائيل باسم إسرائيل أو باسم أي فرد من أعلامهم؟ وإذا كان الهكسوس قد حكموا مصر أربعـة قرون متصلة لم يوجـد بينهم من يعـرف الكتـابـة ليسجل لنا شيئاً واضحاً عن إمـبراطـوريـة عربيـة عظمى قامت على الجهـل والـبربرية؟ أولم يوجد مصري في عهدهم يدون لنا خلال أربعة قرون شيئاً عنهم؟ إن عدم وجود مثل تلك المدونات إطـلاقـاً، كفيل وحده بهدم كل ماذهب إليه (فليكوفسكي)، لكن وقفتنا معه كانت أمـراً لازمـاً إزاء براعتـه القصوى التي تحسب له، والتي كانت تكفل له أن يهمل أي قارىء مثل تلك التساؤلات.

---

(٢٩) انظر على سبيل المثال فقط جاردنر: سبق ذكره، ص ١١٢.

تزوير التاريخ

أقام (فليكوفسكي) رؤيته في جنس الهكسوس وموطنهم على إشارة عابرة للمؤرخ المصري (مانيتون)، والتي ساقها (مانيتون) في صيغة عدم اليقين بقوله: «والبعض قالوا: إنهم كانوا عرباً». لكن (فيكوفسكي) يهمل تماماً إشارة (مانيتون) التأكيدية في كون الملوك الستة الأوائل من الهكسوس، أصحاب الأسرة الخامسة عشرة - فيما يزعم - كانوا فينيقيين بالتأكيد[1] وهو ما أخذ به بعض المؤرخين، وإن ذهب الأكثرية إلى قدومهم من مناطق بحر قزوين.

والمعلوم أيضاً أن العامل الأخطر والذي ساهم بقدر فاعل في غزوهم لمصر، ليس فقط حالة التفكك والفوضى التي صاحبت العصر المتوسط الثاني، بل أيضاً تفوقهم العسكري الذي تمثل في أمرين غاية في الدلالة، الأول هو اكتشافهم لمعدن الحديد وتصنيعه، بحيث امتلكوا أسلحة مصنوعة من الحديد، أما الأمر الثاني فهو أنهم كانوا السابقين إلى ترويض حيوان لم يكن معروفاً في منطقة الشرق الأدنى أصلاً هو الحصان، بل واختراع العجلات التي يجرها ذلك الحصان واستخدامها في النقل، وكأداة حربية متطورة للغاية، تعادل دبابات اليوم وطائراته، والثابت تاريخياً وحفرياً أن منطقتنا لم تعرف الحصان بالمرة قبل قدوم الهكسوس إليها، وإن جاءت إشارات إليه من نصوص الرافدين المسمارية، من عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) باسم (آنشوكرا) أي (حمار الجبل) أو (حمار البلد الأجنبي)، ولم يعرف في الرافدين إلا مع الغزو الكاسي لها[2] حوالي عام ١٦٠٠ ق.م، ولنلحظ أن غزو

---

(١) د. لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠.

(٢) طه باقر: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة، =

الهكسوس لمصر جاء حسب التاريخ المعروف حوالي عام ١٦٨٠ ق.م.

وقد ظهر سلاح العجلات التي يجرها الحصان لأول مرة في مصر، بعد اكتسابها تلك المعرفة من الهكسوس، وإبان حروب التحرير، وكان أول ظهور للحصان والعجلة الحربية في حروب أحمس ضد الهكسوس مع بداية الأسرة الثامنة عشرة، وكان سلاحاً ابتدائياً، بحيث أن كبير ضباط الفرعون (أحمس)، والمعروف بدوره باسم (أحمس بن أيانا)، الذي عرفناه مدوناً لقصة حصار المصريين لحواريس عاصمة الهكسوس، كان يسير على قدميه إلى جوار عجلة الفرعون، فإلى هذا الوقت كان المصريون يستخدمون السفن كوسيلة نقل رئيسية، وكترسانة عسكرية متحركة، وهو ماوضح في قصة التحرير، حيث «أبحر المصريون لقتال الهكسوس» ولأول مرة تظهر رتبة قائد سلاح العجلات مع نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، وتحديداً في عصر (آمنحتب الثالث) الذي أصدر قراراً - لأول مرة - بتعيين حميه (يويا) قائداً لسلاح العجلات، بلقب «وكيل الملك في سلاح العجلات».

وهذا الأمر وحده كفيل بعدم السند الأساسي لفروض (فليكوفسكي)، إضافة لفقدان الكتاب المقدس صفته كمعيار تام السلامة للتزمين، حيث إن الكتاب المقدس يشير إلى العجلات كسلاح معلوم، وكوسيلة انتقال اعتيادية عند دخول (يوسف) إلى مصر، والمفترض - حسب نظرية فليكوفسكي - أن هذا الدخول قد حدث منذ زمن سبق الأسرة الثانية عشرة، وجاء ذلك في عدة نصوص توراتية، جاء في تصرف الفرعون بعد إدراكه لقيمة يوسف التنبؤية «وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا أمامه: اركعوا، وجعله على كل أرض مصر - تكوين ٤١ : ٤٣»، ثم عند وصول يعقوب إلى مصر «شد يوسف مركبته وصعد لاستقبال يعقوب لأبيه - تكوين ٤٦ : ٤٩»، ثم عند موت يعقوب وخروج يوسف من مصر ليدفن أباه في أرض كنعان «فصعد يوسف ليدفن أباه... وصعد معه مركبات وفرسان، فكان الجيش كثيراً جداً - تكوين: ٥ : ٧ - ٩»، وغير ذلك كثير من النصوص التي تؤكد وجود العجلات كشيء اعتيادي في مصر عند دخول الإسرائيليين إليها، وهو

بغداد ١٩٨٦، ج ١، ص ٤٥٦.

بالوثائق أمر باطل تماماً، إذا احتسبناهم قد دخلوا مصر قبل الهكسوس كما ذهب (فليكوفسكي)، لأن العجلات لم تعرف في مصر إلا مع مقدم الهكسوس إليها، بل ظلت العجلات بعد طردهم زمانا شيئاً ابتدائياً، لم يكتمل ليمكن أن يكون نواة لسلاح مستقل بالجيش، إلا بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان. وهو الفارق بين زمن (يويا) أول وكيل للملك لسلاح العجلات، وبين زمن (أحمس) محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

وعليه لايمكن أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر في زمن سابق لزمن الهكسوس، بل المرجح أن يكونوا، قد دخلوها زمن الهكسوس وكحلفاء لهم، وقد سبق لنا أن وصلنا إلى تحديد المنطقة التي قدم منها الهكسوس إلى المنطقة، ونشرناه في كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)[٣]، وسجلنا مجموعة من القرائن كافية، تشير إلى أنهم يعودون بأصولهم إلى المنطقة الكاسية شمالي بلاد الشام والرافدين، في أراضي (أرمينيا) جنوب بحر قزوين، وتحديداً حول بحيرة (فان)، ومن هذه المنطقة قدمت موجات ذات كثافة عالية في شكل موجات متتابعة، وكان أكبر هذه الهجرات وأخطرها الموجة الكاسية التي دونت أخبارها نصوص الرافدين، بعد أن هبط الكاسيون في غزو كاسح على دولة بابل الأولى حوالي ١٦٠٠ ق.م، وقد ذهبنا إلى أنه ضمن تلك الموجات جاءت موجة الهكسوس التي تعد جناحاً من أجنحة الهجرة الكاسية اتجه إلى مصر حوالي ١٦٨٠ ق.م.

وقد سبق أن علمنا أن (يوسفيوس) فَصّل كلمة هكسوس إلى مقطعين: (هك) بمعنى ملك و(سوس) بمعنى راعي، أي ملوك الرعاة، وفي كتابنا (النبي إبراهيم...) رفضنا ذلك التخريج، لأن كلمة (هكسوس) واضحة بذاتها ولاتحتاج إلى تخريجات وتقسيمات، و(برستد) يذهب إلى أن الهكسوس أراميون[٤]، وقد رأينا ـ بالأدلة ـ أن الأراميين من أرمينيا الكاسية، ومع حذف التصريف الأسمي في

---

(٣) د. سيد محمود القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠.

(٤) برستد: كتاب تاريخ مصر... سبق ذكره، ص ١٤١.

آخر كلمة هكسوس (حرف السين الأخير) لاتحتاج التسمية إلى إثارة إشكاليات، حيث تصبح (الكاسر) أو (الكاسي)، وهو مايلتقي مع مذهبنا في كونهم فرعاً أصيلاً في الهجرات الكاسية الأرمينية، ومع أشيع الآراء حول منطقة قزوين كموطن أصلي للهكسوس، أما موسوعة تاريخ العالم فتقول في حديثها عن أحداث تاريخ الرافدين عام ١٦٠٠ ق.م، قولها: «عام ١٦٠٠ ق.م، غزا الكاشيون بابل، . . . حكموها لمدة ٤٥٠ عاماً، أصبح الحصان معروفاً في مصر وغرب آسيا»[٥]، ومع ذلك لم تربط الموسوعة ولو بالإشارة بين الغزو الكاسي للرافدين، وبين الغزو الهكسوسي لمصر، وبين الآراميين وأرمينيا.

ولعل أهم مايبطل تقسيم كلمة هكسوس إلى مقطعين (هك)، (سوس)، أنه لايوجد في اللغة المصرية القديمة لفظة بنطق (سوس) أوماتفيده من معناها، على وجه الإطلاق[٦]، وهو مايبطل أيضاً أي تخريج يقسم الكلمة إلى مقاطع، ولاتبقى سوى (هـ ـ كاسي ـ س) أي الكاسيين، لكن (فليكوفسكي) كافح كفاحاً مستميتاً ليجد بالكتاب المقدس أي إشارة تتوافق مع معنى المقطعين (الملوك الرعاة) حسب التخريج الخاطىء، وهو مايشير إلى تكلف وتلفيق واضح العمد، فيلجأ إلى سفر المزامير المتأخر بقرون طويلة عن زمن الخروج، ليجد فيه النص «قد أنزل عليهم الرب أشد غضبه وعقابه سخطاً وزجراً وضيقاً، جيش ملائكة أشرار ـ ٤٨ : ٤٩»، ثم يعقب متغابياً فيما يبدو «فما الذي يعنيه ملائكة الشر؟»، بينما هو يعلم جيداً تواتر (ملائكة الشر) بالكتاب المقدس، واصطلاح ملاك الشر يشير إلى الملك الموكل من قبل (يهوه) مع جنوده لإنزال الدمار بأعداء إسرائيل، وهو اصطلاح اعتيادي تماماً لدى العارف بالكتاب المقدس، ثم يقوم (فليكوفسكي) بتفسير الاصطلاح (ملائكة أشرار) بحيث تلتقي مع (ملوك رعاة)، بقوله إن الناسخ القديم

---

(٥) وليم لانجر وسبعة عشر عالماً موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة مع سبعة مترجمين، مكتبة النهضة المصرية، د. ت، ص ٥٦.

(٦) العزب سبق ذكره، ص ٤٥.

للكتاب المقدس باللغة العبرية القديمة قد أضاف حرف ألف لكلمة (شرر) لتتحول عن معناها الأصلي (رعاة) إلى (أشرار)، بينما الشق الأول (ملائكة) يلتقي مع كلمة (ملوك) بلا فرق يذكر، وعليه فالأصل في المقدس القديم، كان «جيش ملوك رعاة»، وليس «جيش ملائكة أشرار»، والواضح أن الرجل قد بذل جهداً لاطائل من ورائه، حيث لاتعني كلمة هكسوس بالمرة (ملوك رعاة)، لعدم وجود كلمة (سوس) بمعنى (رعاة) ولا بأي معنى آخر ولاحتى بلفظها ضمن معجم ألفاظ المصرية القديمة، لأن الأصل في اللسان المصري كان (حقاو كاسوه) والتي تعني ببساطة ـ لدينا ـ (الحكام الكاسيين) أو (الكاشيين).

ولو كان (فليكوفسكي) قد اقتصر على تزييف دلالات النصوص لهان الخطب، لكنه ـ كما رأينا في أكثر من موضع ـ عمد إلى تزييد النصوص ذاتها، ومن ذلك التزوير مافعله مع (بردية ساليه)، وهي عبارة عن تمرين مدرسي كتبه التلميذ (بيتاعور) كتدريب على النسخ، وزمن نسخها يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، بعد طرد الهكسوس بمئات السنين، والأصل مفقود، لكن المصرولوجيين استخرجوا من ملابساتها أنها كان تحكي قصة شعبية متواترة، من ألوان قصص الفخر الوطني وأشعار البطولة القومية، والقصة تتناول بداية حروب التحرير، وتحديداً بداية مايمكن تسميته بالنزاع بين (سقننرع) الملك المصري الطيبي، وبين (أبوب) الملك الهكسوسي، وتبدأ البردية بوصف حال الفاقة والبؤس، وكيف بعث (أبوب) رسالة تحدي (لسقننرع) في طيبة مع رسول، تقول: «إخل البركة الواقعة شرقي المدينة من أفراس النهر، لأنها تحول بيننا وبين النوم ليلاً، ولأن ضوضاءها تملأ آذان سكان حواريس».

ورغم أن (فليكوفسكي) يرى في تلك الرسالة كثيراً من الازدراء والاحتقار من قبل (أبوب) للحكام المصريين الذين يحكمون في طيبة (الأقصر)، فإن آخرين ذهبوا إلى أن الرسالة كانت لوناً من (جر الشكل)، والاستفزاز، وهو استفزاز لامعنى له لو كانت الأمور مستقرة للهكسوس في الجنوب، لذلك ذهب آخرون إلى أنها نوع من الألغاز القديمة التي كان الملوك يخاطبون بعضهم البعض بها، وأن الأمر يشير إلى لون من الضجيج الثوري بدأ يتعالى في طيبة، وأن الأمر (أزعج) أبوب مما

دفعه لإرسال تلك الرسالة المتحدية، التي تكاد تقول: إن المشاعر الوطنية التي ظهرت في الجنوب تقض مضاجعنا وعليك أيها الحاكم إخمادها فوراً.

ثم يأتي (فليكوفسكي) بما يوحي أنه نص يقول: «وظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل ولم يدر بما يجيب على رسالة الملك أبوفيس» ومن ثم «قبض على الأمير المصري، وساقه رسول الملك أبوب الثاني إلى حواريس»، ونهاية البردية مفقود، (والتعقيب الأخير لفليكوفسكي)، أما الغريب فعلاً أن بردية (ساليه) تنقطع عند مشاورة الملك (سقننرع) لحاشيته وجنوده بشأن الرسالة، وإن الاستكمال جاء من عند فليكوفسكي في حديثه عن القبض على (سقننرع) وأخذه إلى حواريس، وهنا الأمر الخطير في عمل ملفق كالذي بين أيدينا، والذي حاز شهرة عالمية لاتضارع، وربما عمد (فليكوفسكي) إلى عدم ذكر ظروف كتابة البردية، حتى لايتساءل القارىء: كيف يمكن لتلميذ في مدرسة، وكيف يمكن لمدرسة وطنية في ظل حكومة إمبراطورية تفاخر العالم آنذاك، أن يتناول موضوعاً شعبياً يحكي كيف تم إهانة ملك يفخر به المصريون، وكيف سيق أسيراً لعاصمة الهكسوس، بينما الثابت من وصف (إلبرت سميث) ومن واقع الجراح التي وجدت في مومياء الملك (سقننرع)، أن الرجل مات بعدة ضربات نافذة بالخناجر والبلط، وكان ممكناً القول مع (فليكوفسكي) أن الملك المصري أخذ إلى حواريس أسيراً، ولو بافتراء على وثيقة لم نقله، وأنه أعدم هناك، لولا أن جثمانه كان محفوظاً بوادي الملوك في طيبة عاصمة الجنوب، والتي انطلقت منها عزمات التحرير، وهومايشير إلى موت الرجل في معركة شرسة، وقع فيها شهيداً وسط جنوده، الذين حملوا جثمانه من ساحة المعركة إلى مرقده الأخير في مقر حكمه (طيبة ـ الأقصر)، ولن نفهم سر كل هذا التسفيه من شأن قواد التحرير المصريين إلا في ضوء تزمين التاريخ الفليكوفسكي، الذي يصب في النهاية كل البطولة والنجدة والشهامة والمروءة في يد بني إسرائيل الكرام، حيث يتزامن الخروج الإسرائيلي مع الدخول الهكسوسي، ويتزامن الملك الإسرائيلي (شاول) مع زمن تحرير مصر من الهكسوس، الذي قام به (شاول) ورجاله بعد ماثبت له أنه إزاء جبروت إمبراطورية عربية، وينص (فليكوفسكي) «إن الإسرائيليين كانوا هم الشعب الوحيد الذي قاوم وقاتل ودخل

حروباً وبإصرار شديد، كي يظلوا مستقلين وغير خاضعين لسيطرة العماليق. . لقد كان زمناً بطولياً لإسرائيل انفردت به دون سائر الأمم، في الوقت الذي لم تقم فيه أية ثورة أو أي تمرد من أي نوع كان، لا في مصر ولا في غيرها، ضد العماليق، في تلك الإمبراطورية الواسعة، خلال القرون التي حكموا فيها تلك البلاد».

ونفهم من ذلك أن الإمبراطورية العربية المتبربرة التي تحدث عنها كإمبراطورية عالمية تحكم جزيرة العرب ومصر وجزر البحر المتوسط وبلاد الشام بما فيها فلسطين، تغلب على سطوتها حفنة من الآبقين الخارجين من مصر هاربين، بحيث كانوا الشعب الوحيد في المنطقة الذي امتلك كرامة قومية دعته للمحافظة على استقلاله في بقعة صغيرة بفلسطين، ضمن الإمبراطورية العربية العظمى، وهو مبرر واه تماماً لتفسير قيام حكم القضاة اليهود لأربعة قرون في فلسطين في ظل إمبراطورية عاتية وهمجية كالتي صورها لنا (فليكوفسكي) ذاته، تم سحب زمن الهكسوس ليتزامن مع عصر (شاول) مع تحرير مصر، لأن (شاول) ـ في رأيه ـ هو الذي قاد ألوف الإسرائيليين إلى حواريس، وضرب عليها الحصار وهزمها شر هزيمة، وشتت العماليق الهكسوس الذين انسحبوا إلى شاروهين، وترك الأرض المحررة لأصحابها المصريين (منتهى العدل؟! ومنتهى المروءة)، دون أن يفكر في الاستيلاء على تلك الأرض، ولو من باب انتقام واجب من عبودية بني إسرائيل بمصر قروناً، ولم يحاول بقواته العظمى التي هزمت أعظم الإمبراطوريات في زمانها أن يحتل مصر، كان همه الأوحد الانتقام من عماليق، لأنهم آذوا الإسرائيليين عند الخروج، منذ أربعة قرون مضت، وظل الاسرائيليون يحتفظون بذلك الحقد حتى انتقموا بتدمير حواريس وتشتيت الهكسوس العماليق، هذا رغم (جيشان) الكتاب المقدس في كل إصحاح وكل سفر بحقد على مصر والمصريين، وكل ماكانت تملكه تلك الأسفار هو استنزال اللعنات المرتجاة من رب العالمين على رؤوس المصريين، لذلك من حقنا أن نبدي الدهشة والعجب من امتلاك إسرائيل تلك القوة الهائلة التي تهزم الهكسوس المحتلين، ولا تنتقم من المصريين، في وقت كانت فيه مصر أمام تلك القدرات الإسرائيلية مجرد ثمرة ناضجة تقع دون جهد يذكر في يد (شاول) وجيوشه الجرارة.

ومن جهة أخرى، فإن مزاعم (فليكوفسكي) لابد تفترض ـ ضمناً ـ أن بني إسرائيل قد قضوا تماماً على كل أعدائهم الصغار مقارنة بالعماليق، وهو الأمر الذي يحتاج توضيحاً، لكن ليس قبل أن نقف مع النص المصري الذي علم منه (فليكوفسكي) بقصة التحرير على يد (شاول)، وهو المدون في مقبرة الضابط (أحمس بن أبان)، إضافة إلى نص آخر استشهد به هو حكاية العراف (بلعام) بالتوراة.

ولنبدأ بنص التوراة، الذي يحكي لوناً فجاً من الخرافة، عن كيف استدعى (بالاق) ملك الموآبيين العراف (بلعام) المدياني، ليصب له اللعنات على بني إسرائيل فيبيدهم، «فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق: ولو أعطاني ملء بيته فضة، ولاذهب، لاأقدر أن أتجاوز قول الرب. . فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له: أتى الرجال ليدعوك فقم اذهب معهم. . فقام بلعام صباحاً وشد على أتانه وانطلق مع رؤساء موآب، فحمي غضب الله لأنه منطلق معهم (؟!) ووقف ملاك الرب في الطريق ليقاومه وهو راكب على أتانه وغلامه معه، فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفا في الطريق وسيفه مسلول في يده (؟) فمالت الآتان عن الطريق. . فحمى غضب بلعام وضرب الأتان بالقضيب، ففتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام: ماذا صنعت بك كي تضربني؟ . . فقال بلعام للأتان: لأنك ازدريت بي، لو كان في يدي سيف لكنت قتلتك الآن، . . ثم كشف الرب عن عيني بلعام فأبصر ملاك الرب واقفاً في الطريق وسيفه مسلول في يده، فخر ساجداً على وجهه. . إلخ ـ العدد ٢٢: ١٩ ـ ٣١».

والمعتاد على قراءة ذلك الكتاب لن يجد أية غرابة في تناقض الرب، ولن يعجب من حمار يتحدث مع صاحبه حديثاً ودياً فيعاتبه، وصاحبه يلومه، لأن القارىء لن يجد صفحة بالكتاب تخلو من تلك العجائب، لكن المهم أن (بلعام) بدلاً من أن يلعن بني إسرائيل مدحهم وأعطاهم بركاته، وتنبأ أن مُلك إسرائيل سيتسامى على ملك (أجاج)، وأن آخرة عماليق إلى هلاك (انظر سفر العدد ٢٤: ٢٠ ـ ٧)، وهنا يقفز (فليكوفسكي) ليمسك (أجاج) بكلتا يديه منادياً: فلتشهدوا أن هذا هو (أبوب الثاني) ملك الهكسوس، ولابد بالتالي أن يكون الهكسوس هم

العماليق، وأن هلاك العماليق قد جاء على يد بني إسرائيل، حسبما تنبأ بلعام، وذلك في الحملة التي قادها أول ملك لأول مملكة يتم فيها توحيد شراذم إسرائيل.

ولإثبات صدق بلعام والحمار والرب، يكتشف (فليكوفسكي) الدليل على ماحدث في مقبرة الضابط المصري (أحمس بن أبانا)، ولنقرأ كيف صاغ (فليكوفسكي) ذلك النقش الهام، الذي يقول فيه الضابط: «تابعت الملك سيراً على أقدامي حين ركب عجلته الحربية في طريقه إلى خارج الولاية، كانوا هم يحاصرون مدينة حواريس»، والإشارة (كانوا هم) لاتعني سوى أن قوماً آخرين هم أصحاب الفضل الحقيقي في التحرير، «كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه في حواريس.. استولوا هم على حواريس.. هم حاصروا شاروهين»، الرجل بهذا الشكل محق تماماً، لكن عندما نقرأ النص الأصلي سنكتشف إلى أي حد بلغت بالرجل الجرأة والقدرة على التزوير.

يقول الضابط (أحمس بن أبانا) في النص الصادق: «تبعت الملك على قدمي عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس»، ولنقف هنا مع أمرين: الأول زمن الفعل في النص الصادق (حاصر) وزمنه في النص المزور (يحاصرون)، والذي ضبطه مع تزوير آخر، وبدلاً من الصيغة المصرية للفعل الماضي (إنه حاصر) تحولت (إنه) في صيغة الإشارة المفخمة للغائب (الملك) إلى (كانوا هم)، ولأن استكمال العبارة جميعاً في صيغة الماضي ستصبح غير ملتئمة (كانوا هم حاصر مدينة حواريس)، فكان لابد من تزوير الأمرين لتتحول العبارة من (إنه حاصر) إلى (كانوا هم يحاصرون).

ولنقرأ النص كاملاً: «تبعت الملك سيراً على قدمي عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس، وقد أظهرت في قناة مياه بازدكو في حورايس، ثم حاربت ملتحماً يداً بيد واستوليت على أحد الأسرى، ولما بلغ ذلك المسامع الملكية منحني الملك ذهب الشجاعة، ثم تجدد القتال مرة أخرى في ذلك المكان، وحاربت ثانية هناك يداً بيد، وحصلت على أسرى آخرين، ومنحني الملك ذهب الشجاعة ثانية».

وأثناء انشغال الملك (أحمس) في محاربة الهكسوس، حدثت قلاقل في جنوبي

البلاد، على بعد مايزيد عن ألف كليومتر عند (الكاب)، فسارع الملك مع بعض جنود، وبضمنهم الضابط (أحمس)، الذي يروي تلك الواقعة أيضاً، ويقول: «لقد حاربت في مصر جنوبي مدينة الكاب، واستوليت على أسير حي حملته معي على صفحة الماء، ولما بلغ هذا الأمر المسامع الملكية، منحني هو الذهب بالمعيار المزدوج»، والسؤال الآن: هل كانت (هو) المفخمة هنا ـ بدورها ـ تشير إلى الإسرائيليين، وأنهم ذهبوا إلى أسوان مع (أحمس) الملك للقضاء على قلاقل منطقة النوبة، ومنحوا الضابط (أحمس) الأنواط الذهبية المزدوجة لشجاعته؟

وذات الأمر يكرره في قصة انسحاب الهكسوس من حواريس إلي شاروهين بفلسطين، حيث حاصرها الملك ثلاث سنوات حتى استسلمت ورحلوا عنها بموجب اتفاقية أبرمت بهذا الخصوص، «لقد حاصر شاروهين ثلاث سنوات ثم استولى عليها، وأسرت هناك رجلاً وامرأتين»، لكن النص هنا لا يحمل اسم الإشارة المعتاد، بل الفعل (حاصر) فقط، مما يشير إلى الملك كقائد لجيش الحصار، وهي إشارة لمفرد متضمن داخل الفعل الماضي بالتقدير، ولايشير إلى جيوش يمكن أن تكون عند (فليكوفسكي) جيوش أجداده الأفاضل، وهنا لا يجد الرجل مايناسب النص بالتوراة،فلجأ الى أسطورة متداولة بين بني جلدته تحكي عن القوة البدنية الخارقة في أساطير منوعة عن (يوآب) قائد جند (داود) الذي خلف (شاول)، وضمنها أسطورة تقول إنه اخترق بمفرده أسوار مدينة عماليق، وعليه فإن (فليكوفسكي) يعلم أن (يوآب) هو صاحب الفضل الحقيقي في هزيمة ألوف المحاربين العماليق بمفرده، وأنه وفق العادة الكريمة لبني إسرائيل، قد تركها هدية لأحمس المصري، رغم أنها تقع داخل أرض فلسطين ذاتها، وفي عمقها، وجزء من مملكة إسرائيل؟!!!!

وتبقى هنا عدة مسائل، تثيرها استفسارات بدهية، إزاء كل ماقدم (فليكوفسكي)، لإثبات سقوط ستة قرون كاملة من التاريخ المصري وتاريخ العالم بالتالي، وإزاء ركونه الكامل إلى مصداقية مطلقة تتسم بها نصوص التوراة، وهو غرض آخر يتضمن في ثنايا الغرض الأول، من أجل تحقيق عدة أهداف أهمها إيجاد موطىء قدم لبني إسرائيل في تاريخ المنطقة، وإثبات البراءة الكاملة والطهارة المطلقة

لهذا الشعب من كل ماالتبس بتاريخه من اتهامات، مع تأكيد العلاقات الحميمة بين بني إسرائيل والمصريين إزاء العرب منذ التاريخ القديم، والتي أهدرها المصريون من جانب واحد، مع إعادة تأسيس تاريخ العالم بحيث يتزامن مع الأساس المتين بالكتاب الإسرائيلي المقدس، وبحيث يكون العمل في مجمله تنظيراً تاريخياً للقومية الصهيونية.

وهذه المسائل التي تنتج عن استفسارات، يمكن تحديدها في العناصر التالية:

- إزاء المصداقية الكاملة التي يريد (فليكوفسكي) إثباتها لنصوص المقدس الإسرائيلي، والتي عمد وهو بسبيل ذلك الإثبات إلى الانتقاء من وثائق التاريخ القديم مايراه أهلاً لتحقيق غرضه، مع تزوير دلالات تلك الوثائق، وإزاء حدث الخروج العظيم الذي انبنت عليه الكرامة القومية الإسرائيلية، وعليه أسس (فليكوفسكي) العمل كله، أقول: إذا كان الأمر كذلك فلاريب أن الدهشة تأخذ المدقق مع استفسار بسيط تماماً نتساءل: لماذا لم تذكر النصوص المقدسة بالكتاب المقدس اسم ذلك الفرعون الذي سام شعب الرب العذاب، رغم كل تلك الدقة في سرد المعجزات، ورغم خطورة الحدث وأهميته واحتسابه حجر الأساس في التاريخ الإسرائيلي؟

- ثم إذا كانت الكوارث التي أنزلها (يهوه) بالمصريين ليست من باب الأساطير، إنما تسجيل لوقائع حدثت بالفعل، وكان حدث انشقاق البحر هو قمة تلك الأحداث الكونية، وبعدها دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، فإن المدقق في التوراة سيجد أن هناك أحداثاً أخرى تمت في فلسطين بعد الخروج، تدخل في عداد المبالغات الأسطورية وتهويلاتها، وغض (فليكوفسكي) الطرف عنها تماماً، لأن الكارثة التي يتحدث عنها كانت قد انتهت، فهذا مثلاً (يشوع بن نون) الذي خلف (موسى) على قيادة الإسرائيليين، وعند عبور نهر الأردن البعيد عن أحداث كارثة الخروج مكاناً وزماناً، تحدث له نفس المعجزة «ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد (هو تابوت ينام فيه الرب ليحملوه معهم) أمام الشعب، فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن، وانغماس أرجل

الكهنـة حامـلي التابوت في ضفة المياه، والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصـاد، وقفت الميـاه المنحـدرة من فوق وقامت ندا واحداً بعيداً جداً. . والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا، فوقف الكهنة حاملو تابـوت عهـد الـرب على اليـابسـة في وسط الأردن راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن ـ سفر يشوع ٣: ١٤ ـ ١٧»، وبعد ذلك بخمسة قرون يأتي الرب ليقابل النبي (إيليا التشبي) «فقال أخـرج وأقف على الجبـل أمـام الـرب، وإذا بالـرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبـال وكسـرت الصخور أمـام الـرب ـ ملوك اول ١٩٩٠ ١١» فهل كانت تلك كارثة أخرى، وخاصة أن (إيليا) قام بمعجزة فلق الأردن هو بدوره «فأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس ـ ملوك ثاني ٢ : ٨»، وبعـدهـا ظل رداء (إيليـا) يقوم بالوظيفة التي كانت تقوم بها عصى (موسى)، «فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب المـاء أيضـاً فانفلق إلى هنـا وهنـاك فعـبر أليشـع ـ ملوك ثاني: ٣: ١٤» ومثل تلك الروايات تغص به كل صفحات الكتاب المقدس من بدئه إلى منتهاه.

ـ أما الاستفسار الأهم، فهو إذا كان الإسرائيليون مع أول ملوكهم (شاول) قد امتلكـوا تلك القـوة الحـربيـة العظمى بألوف العربات ومئات الألوف من الجنود المدربين، بحيث تمكنوا بها من استئصال شأفة الهكسـوس العرب وتحرير مصر، فإن ذلك يعني وجود نظام مركزي متماسك وقوي، بينما المطالع للكتاب المقدس لن يجد لأي من الفرضين أي تحقيق بالمرة:

«وأمـا اليبـوسيـون السـاكنـون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون. مع بني يهوذا في أورشليم إلى اليوم ـ يشوع ١٥ : ٦٣».

وكـذلـك سبط إفرايم «لم يستطيعوا أن يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، فسكن الكنعانيون وسط إفرايم إلى اليوم ـ يشوع ١٦: ١٠».

وكـذلـك أبنـاء منسي أخي إفـرايم «ولم يقدر بنو منسي أن يملكوا هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض ـ يشوع ١٧ : ١٢».

كذلك سبط أشير لم يستطع الاستيلاء لأعلى سيناء «صيدون العظيمة». ولا

على «المدينة المحصنة صور ـ يشوع ١٩ : ٢٨ ـ ٢٩».

«وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات من حديد ـ قضاة: ١ : ١٩».

كذلك «زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلون فسكن الكنعانيون في وسطه ـ قضاة: ١ ـ ٣٣».

«وحصر الأموريون بني دان في الجبل . . فعزم الأموريون على السكن في جبل حارس في إيلون وفي شعلبيم ـ قضاة: ١ : ٣٥».

والأمثلة غير ذلك كثيرة يمكن للقارىء الرجوع إليها بالكتاب المقدس، وتشير بوضوح إلى أمرين هامين: الأول هو أن الخارجين من مصر ظلوا على انقسامهم قبائل وبطوناً وأفخاذاً، والثاني هو أنهم رغم البشاعة التي استخدموها في حروبهم ضد سكان الأرض، فإن هؤلاء ظلوا في أماكنهم ولم يتمكن بنو إسرائيل رغم المجازر الهائلة التي ارتكبوها ـ وسنأتي على ذكرها ـ، أن يزحزحوا هؤلاء من بلادهم، فسكن الإسرائيليون بينهم.

أما الفرض الثاني، وهو قيام كيان متماسك، فمن الواضح أنه لم يتحقق طوال العصر الممتد من زمن الخروج إلى زمن (شاول)، وفي رواية المقدس التوراتي تفاصيل تؤكد أن بني إسرائيل لم ينعموا بالاستقرار طول ذلك الزمن الذي امتد حوالي أربعة قرون كاملة، وإليك نماذج من تلك الروايات التي وردت في سفر القضاة «فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا إلههم وعبدوا البعليم والسواري، فحمى غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين، فعبد بنو إسرائيلَ كوشان رشعتايم ثماني سنين ـ ٣ : ٧، ٨، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب. . . فشدد الرب عجلون ملك موآب. . . وضرب إسرائيل، فعبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة ـ ٣ : ١٢ ـ ١٤، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب. . . فباعهم بيديا بين ملك كنعان. . . فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد، وهو ضايق بني إسرائيل بشدة عشرين سنة ـ ٤ : ١ ـ ٣، وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين. . بسبب المديانيين عمل بنو

إسـرائيـل لأنفسهم الكهوف التي في الجبـال. . وإذا زرع إسـرائيـل كان يصعـد المـديـانيـون والعـمالقة وبنو المشرق. . ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد، ودخلوا الأرض لكن يخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين، وصرخ بنـو إسـرائيـل للرب ـ ٦ : ١ ـ ٦، وعـاد بنـو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبـدوا البعليم والعشتـاروت وآلهـة أرام وآلهـة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهـة الفلسطينيـين، وتـركـوا الـرب ولم يعبـدوه، فحمي غضب الرب جدا على إسـرائيـل وبـاعهم وبيـد بني الفلسطينيـين وبـد بني عمـون فحمطـوا ورضضـوا إسرائيل. . ثماني عشرة سنة. . فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب قائلين أخطأنا إليك ـ ١٠ : ٦ ـ ١٠، ثم عاد بنـو إسـرائيـل يعملون الشـر في عيني الـرب فدفعهم إلى يد الفلسطينيين أربعين سنة ـ ١٣ : ١».

وظل الأمر على ذلك الحال طوال عصر القضاة، ناهيك عن حروب أسباط بني إسـرائيـل مع بعضهم البعض، والتي سقـط فيهـا بزعم سفـر القضـاة مئـات الألـوف، حتى جاء الهجـوم الكـاسـح للفلسطينيين عليهم «فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ تابوت الله ـ صموئيل أول: ٤ : ١٠ ـ ١١»، وبعدها اجتمع الأسباط وطلبوا من الكاهن القاضي (صموئيل) أن يجعل لهم ملكاً فاختـار (شـاول)، الـذي نجـح في اسـترداد التابوت من الفلسطينيين، وفي غزوما أسمـاه الكتاب المقدس مدينة عماليق، والتي افـترض (فليكـوفسكي) أنهـا كانت حواريس عاصمـة امـبراطـورية الهكسوس العربية، تلك الإمبراطورية التي كانت تحكم كل منطقـة حوض المتـوسـط الشـرقي، بينـما كان في داخلها كل تلك الممالك وتلك الحروب، والتي لم يأت لها (فليكوفسكي)، على ذكر، لأن معنى وجود ممالك متعـددة في المنطقـة، وحـروب إقليميـة متتـاليـة، بينها حروب شعب مثل بقية تلك الشعـوب بالمنطقـة والمعـروف باسم العمالقة، يهدم الفرض الأساسي في كتابه حول تلك المملكة العظمى المسيطرة خلال عصر القضاة المليء بالأحداث.

ـ ومسألـة أخـرى مازالت تطلب المنـاقشـة، وتتأسس على مدى مصـداقيـة الصفـات الـبربـرية التي نسبها (فليكوفسكي) للهكسوس العرب حسب فروضه،

وفي هذه الحال لن يكون أمامنا مقياساً للفضائل ومعياراً للنبل سوى الشعب المقابل، الشعب التقي الورع الذي فدى الإنسانية جمعاً. وقضى على شر الهكسوس، وظلمته الإنسانية جمعاء، شعب إسرائيل، ولاشك أنه لاتوجد شهادة للإسرائيليين أفضل من كتابهم المقدس.

تقول شريعة الكتاب المقدس العطرة والسمحاء لشعبها أثناء رحلة التيه، قبل دخول فلسطين: «أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار - **عدد** ٣١: ١٠، اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة - عدد ٣١: ١٧، أحرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار - تثنية ١٢: ٣١، فضرباً تضرب سكان المدينة بحد السيف وتحرقها بكل مافيها من بهائمها... وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك - تثنية ١٣: ١٥، ١٦، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما - تثنية ١٠: ١٠ - ١٦».

ولن تجد سفراً واحداً من صورة (يهوه) وهو ينفث أوامره المتكررة بالحرق والذبح وتقطيع الأوصال، رجال أو نساء أو حتى الأطفال بل والبهائم أيضاً، وعندما كانت تحدث أي مخالفة لتلك الأوامر، حين يطمع الإسرائيليون في الإبقاء على بعض النساء كسبايا، أو على المتاع والبهائم كغنائم، فإن الرب كان يصب نقمته على الإسرائيليين أنفسهم، والأمثلة كثيرة بالكتاب نستشهد منها بمثال واحد فقط اختصاراً للأمر، «وكلم الرب موسى قائلاً: انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين.. فكلم موسى الشعب قائلاً: جردوا منكم رجالاً للجند فيكونون على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان، ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون للحرب.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر... وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار... فخرج موسى.. لاستقبالهم.. فسخط موسى.. وقال لهم موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة - عدد - ٣١: ١ - ١٧». فلماذا تجاوز (فليكوفسكي) عن هذه المدونات التي لاشك كانت صادقة مصداق كل كلمة استشهد بها من قبل واعتبرها تقول ماتعنيه فعلاً؟ بينما حمل على الهكسوس تلك

الحملة القـاسيـة بعـد أن احتسبهم عربـاً من العـمالقـة ، بينما في مصر ذاتها لاتوجد شهادة قديمة واحدة على قسوة الهكسوس بشكل يقترب من تلك البشاعة في شرائع الحرب التوراتية؟ اللهم إلا في نص (حتشبسوت)، وما جاء في حديث (مانيتون) في القرن الثالث قبل الميلاد. . .

هذا ما كان عن تزويـر التـاريخ لصالح التنظير التاريخي للقومية الإسرائيلية، ويبقى أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ونكشف عن هوية الهكسوس بوضوح وعـلاقتهم بالعـرب وبـالمصـريـين وبني إسـرائيل، وموقعهم الصحيح من التاريخ القديم! وهذا وعد نعمل حالياً ـ وربما لبعض الوقت ـ من أجل الوفاء به.

مصادر استشهادات البحث

الكتاب المقدس.

القرآن الكريم.

١ ـ د. أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ، دار العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، د. ت.

٢ ـ د. أحمد شلبي : مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

٣ ـ إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة، ترجمة محمد عبد المنعم أبوبكر، ود. محمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

٤ ـ اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفي، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.

٥ ـ أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع وأهم إشاراته، د. ت.

٦ ـ د. أنيس فريحة : دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.

٧ ـ إيمار وإبواية : الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبوريحان، دار عويدات، بيروت، د. ت.

٨ ـ باقر (طه) : الوجيز في تاريخ حضارة الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦.

٩ ـ برستد (جيمس هنري) : كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط ١، القاهرة، ١٩٢٩.

١٠ ـ بريتشارد (جيمس) : نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم،

ترجمة وتعليق د. عبد الحميد زايد، هيئة الآثار المصرية، القديمة، القاهرة، ١٩٨٧ .
١١ ـ جاردنر (آلن هنري) : مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧ .
١٢ ـ حتي (فيليب) : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة، بيروت، ١٩٧٥ .
١٣ ـ حسن (د. سليم) : الأدب المصري القديم، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠ .
١٤ ـ روبنسون (تيودور) .
إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د. ت .
١٥ ـ الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١ .
١٦ ـ صالح (د. عبد العزيز) : الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٢ .
١٧ ـ طعيمة (د. صابر) : التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ .
١٨ ـ علي (د. جواد) : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د. ت .
١٩ ـ علي (د. فؤاد حسنين) : التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربي، القاهرة، د. ت .
٢٠ ـ عوض (د. لويس) : مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ .
٢١ ـ الفرح (محمد حسين) : الحضارات العربية الكبرى في العصور القديمة، مجلة المنابر، بيروت، الأعداد من ٣٢ : ٤٠ .
٢٢ ـ القمني (سيد محمود) : الأسطورة والتراث، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢ .

٢٣ ـ القمني (سيد محمود) : النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.

٢٤ ـ القمني (سيد محمود) : أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة، دار فكر، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٥ ـ لانجر (وليم) : مع سبعة عشر عالماً : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة وسبعة مترجمين، دار النهضة المصرية، د. ت.

٢٦ ـ ماكلستر (راس) : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، مجلدات تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت، المجلد الثاني.

٢٧ ـ موسكاتي (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧.

٢٨ ـ موسى (محمد العزب) : أول ثورة على الاقطاع، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٦.

٢٩ ـ هومل (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم بإشراف (نيلسن)، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، د. ت.

٣٠ ـ ولسن (جون) : ضمن كتاب : ماقبل الفلسفة، بمشاركة آخرين، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة، بغداد، د. ت.

المحتوى

الاهداء ٣
تمهيد ٥

الباب الأول

التوراة ١١

تأسيس ١٣
علاقة النبي موسى بالتوراة ١٩
تدوين العهد القديم وترجمته ٢٨
الخرافة في العهد القديم ٣٥
الأنبياء في العهد القديم ٤١
الآلهة في العهد القديم ٤٨

الباب الثاني

التاريخ ٥٣

تأسيس ٥٥
أدوار التاريخ الاسرائيلي ٦٤
أحداث الدخول
في الطور الإيلي الابراهيمي ٧٠

احداث الخروج
في الطور اليهودي الموسوي ٨٢

الباب الثالث

التضليل ٩٥
التأسيس ٩٧
تأسيس - ١ - ٩٧
تأسيس - ٢ - ١٠٠
تأسيس - ٣ - ١٠٢
تأسيس - ٤ - ١٠٦

الوثائق والأدلة ١١٠
الوثيقة الأولى - بروية ليدن ١١١
الوثيقة الثانية - حجر العريش ١١٦
الوثيقة الثالثة - بردية الارميتاج ١١٧
الوثيقة الرابعة - نبوءة الخزاف ١١٨
الوثيقة الخامسة - مقياس سمنة ١١٩
الوثيقة السادسة - نقش حتشبسوت ١١٩
امبراطورية الهكسوس الأولى ١٢١
التحدي ١٢٨
مناقشة الوثائق ١٤٠
١ - تزييف دلالات بردية ليدن ١٤٠
٢ - تزييف دلالات حجر العريش ١٥٥
٣ - تزييف دلالات بردية الارميتاج ١٦٢

٤ ـ تزييف دلالات نبوءة الخزاف ١٧١
٥ ـ تزييف دلالات مقياس سمنة ١٧٤
٦ ـ تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجري ١٧٦

تزوير التاريخ ١٧٨
مصادر استشهادات البحث ١٩٤
من أعمال المؤلف ١٩٧

من أعمال المؤلف

* الكتب المنشورة:

- الموجز الفلسفي، دار السياسة، الكويت (نفذ).
- مشكلات فلسفية، التربية الكويتية، الكويت (بمشاركة آخرين).
- أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة، دار فكر، القاهرة.
- الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة.
- النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، دار سينا، القاهرة.
- الأسطورة والتراث، دار سينا، القاهرة.
- إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل.

* تحت الطبع:

قصة الخلق أو منابع سفر التكوين.

حروب دولة الرسول (الجزء الأول).

* مجموعة أبحاث مطولة في الأساطير والديانات، مع دراسات قومية ومقالات منشورة في صحف ومجلات عربية منها: الوطن، القبس، السياسة، مجلة العربي، مجلة الكويت، مجلة آفاق عربية (بغداد)، الكرمل (نيقوسيا)، فكر، مجلة القاهرة، قضايا وشهادات (قبرص)، مصر الفتاة، أدب، ونقد، المغار... الخ.

* قيد البحث:

- النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة.
- دور الجنس في التاريخ.
- حروب دولة الرسول (الجزء الثاني).

اسرائيل
التوراة .. التاريخ
التضليل

في بحثها عن مشروعية تاريخية لا وجود لها ، تستعيد الصهيونية النصوص التوراتية ، وتعيد تأويلها بما يخدم الهدف الصهيوني ويبرّر اغتصاب فلسطين . يفقد النص التوراتي وجوده الموضوعي والسياق التاريخي الذي أنتجه ، ليصبح عنصراً من عناصر الايديولوجيا الصهيونية ، كأن الصهيونية تزوّر التاريخ ، في وجهه القديم والحديث معاً ، محققة عملية تزييف فريدة من نوعها ، حيث يتحول التاريخ إلى مادة لا قوانين لها ، مرجعه القوة ، لا تاريخ العلوم .

يشكّل هذا الكتاب مساهمة ثقافية - وطنية متميزة ، يقارن بين معطيات التاريخ والتضليل الصهيوني ويعيد إلى التاريخ موضوعيته المختلة ، ويفصل بين الحقيقة والزيف ليؤكد شرعية الكفاح العربي ضد المشروع الصهيوني . ولعل الواقع العربي الراهن يضيف إلى الكتاب بعداً جديداً جديراً به ، ذلك أن الكتاب يربط بشكل نموذجي بين النص والسياق .

